عبد الرحمن عزام

الرسالة الخالدة

دار الشروق

دار الفكر

الرِّسَالَة الخَالِدَة

بحث في رسالة الله الواحدة الخالدة
على مدى الزمان ، واقتباس من هداها
في الاجتماع والسياسة والحرب والسلم
والعلاقات الدولية ، لإزالة أسباب
الاضطراب العالمي ، وإمداد الحضارة بسَنَدٍ
رُوحيٍّ وإقامة نظامٍ عالمِيٍّ جديد .

الطبعة العربية الرابعة
بيروت ١٩٦٩

طبعات الكتاب

* هذه هي الطبعة العربية الرابعة لكتاب الرسالة الخالدة.

* وصدرت منه كذلك طبعات باللغات الاندونيسية والتركية والفارسية والأردية ثم الانجليزية بعد أن قامت هيئات رسمية وغير رسمية بترجمته الى هذه اللغات.

* وقدم للطبعة التركية المغفور له شيخ الاسلام حمدي أقسكي بمقدمة مسهبة نفيسة سجل فيها فضل كتاب الرسالة الخالدة على جميع ما قرأ لأكابر علماء المسلمين ومفكريهم في عرض صورة واضحة للاسلام في عصرنا الحديث.

* أما الطبعة الانجليزية، فقد صدرت مرتين في أمريكا. كانت الأولى في طبعة ذات «غلاف مجلد» طبع منها بضعة آلاف من النسخ. ولما جاء الاقبال عليها شديدا طلبت واحدة من كبرى دور النشر العالمية اعادة نشره في طبعة ذات «غلاف ورقي» طبع منها مئات الآلاف من النسخ، توزعها الآن في أمريكا وأوربا وافريقيا والهند وباكستان وسائر البلاد التي تقرأ الانجليزية.

* وكان للطبعة الانجليزية - بنوعيها - الأثر العميق الذي حدا بالكثيرين والكثيرات في أمريكا وأوربا وإفريقيا... إلى اعتناق الاسلام!

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الإنجليزية
مترجمة

لم يكن في تقديري أن أقدم « رسالة محمد الخالدة » ككتاب. وإنما قصدت من الأحاديث الأصلية التى قدمتها في هذا الموضوع أن أوضح للمسلمين بعضا من مبادئ مجتمعهم واصول عقيدتهم وشريعتهم السماوية.

ولم يكن من قصدي بحال أن أدافع عن الإسلام أو أبشّر به لغير المسلمين.

* * *

وعن الاسلام، كتب مؤرخ مسيحي يقول: « الاسلام ثقافة ودين معا، وقلما يمكن تصور قيام الثقافة فيه بمعزل عن الدين ».

ونتيجة لهذه الحقيقة، فان المسلمين اذا فقدوا دينهم، فانهم يفقدون معه

ثقافتهم، ويتردّون بالتالى إلى انحلال مجتمعهم.

ويزداد الأمر بالنسبة للشعب العربي، الذي هو بذاته من صنع الثقافة الاسلامية، فانه خلال عملية الانحلال الحتمية هذه يفقد مقومات وجوده وعناصر كيانه كأمة.

* * *

والقرآن كثيرا ما ينص على الأصل المشترك بين الاسلام وبين كل من المسيحية واليهودية، الأمر الذي يتيح للأديان الثلاثة لقاء على أرض مشتركة.

وفي القرن العشرين، أخذت أوربا الغربية والشرقية معا تفقد تدريجيا ارتباطها بالدين الذى ورثته من القرون السابقة، وأصابها التيه والاعجاب بمنجزاتها العلمية ونجاحها التكنولوجي.

واليوم، صار جانب كبير من العالم يمجد صورته ويعبد خياله. وتتشابه الاشتراكية الماركسية والرأسمالية الغربية في خلق طقوس واقامة شعائر للعقائد والفلسفات المادية الحديدة في كل من الغرب والشرق على حد سواء.

وإله العالم، الذى هو إله اليهود والنصارى والمسلمين ورب العالمين جميعا. كأنما يراد إنزاله عن عرشه من أجل وثنية جديدة الهها الذى يركعون له ويقدمون له القرابين، هو ما يجسدونه ويمجدونه في هذه النظريات والعقائد المادية الجديدة.

وعلى الرغم من الشد والجذب اللذين يتعرض لهما المسلمون من كل من الغرب والشرق، فانهم لا يزالون يترددون ويرتابون، ويكرهون أن يشاركوا في تمجيد الأوثان والعقائد المادية.

حقا إن فريقا من قومنا يستوحون فكرهم وسلوكهم من الفلسفات المادية

وعقائداها وشرائعها، إلا أن الأغلبية الكبرى من المسلمين في أفريقيا وآسيا لا يزالون في قلق وحيرة من أمرهم. ذلك لأنهم يدركون ويعرفون منذ عهد بعيد أنه لهم عقيدة، وشريعة سماوية، ومجتمعا، ومبادئ... تدعو جميعها إلى دولة ليست علمانية فقط ولا دينية فقط، بل جامعة ومحققة لصالح دينهم ودنياهم معًا. وعلى أية حال فليست استبدادية أو غوغائية.

فالمجتمع الاسلامي - كما يدعو له الاسلام - يقوم على اساس حرية الفرد والمساواة بين الناس. وهو في حقيقته وجوهره مجتمع حر غير طبقي. وانعدام الطبقية فيه ليس على أساس نظرية اقتصادية أو نظرة مادية، وانما على أساس أشمل وأسلم، أساس شريعة الاخاء والمساواة بين الناس ورفض الاعتراف بامتياز أو فضل الا من خلال التقوى، والعمل الصالح لخير الفرد والجماعة، والامتثال لشريعة الله القائمة على مبادىء عالمية انسانية ديموقراطية.

هذا، وليس فيما يدعو إليه الشرق أو الغرب جديد على المسلمين. فتحكيم العقل والمصلحة أمر ضروري ومطلوب حتى في إقرار عقائدهم وأحكام شريعتهم. ومن ثمّ كان الاجتهاد أحد المصادر الأربعة للتشريع عندهم.

ولذلك فالمسلمون كثيرًا ما يأخذهم العجب عندما تساق إليهم المذاهب المادية الحديثة ويقال لهم انها ثمرة علم حديث وحضارة حديثة، ويسألون انفسهم عما اذا كان ضروريا أن ينصرفوا عن خالق الكون ليشاركوا في ثمار علم حديث وحضارة حديثة ؟.

أيجب عليهم أن ينكروا انبياءهم ورسلهم الذين أحبوهم وآمنوا برسالتهم، وان

يتنكروا لثقافتهم السمحة ومجتمعهم الانساني وحياتهم المطمئنة، وان يتخلوا عما يدعوهم اليه دينهم وتحضهم عليه شريعتهم المتكاملة من تكافل وتضامن وعدل ورحمة واخاء ومساواة وعمل صالح وخير مشترك ينعمون به هم وأسرهم ومجتمعهم... أيجب عليهم كل ذلك من أجل أن يشاركوا في الاندفاع العام نحو مجتمعات منكرة للخالق كما في الشرق والغرب، ومن أجل أن يكونوا بالتالى أهلا لما تعدهم به وما تزينّه لهم هذه المذاهب المادية الحديثة؟

وهم يتساءلون... أئذا لم ينصرفوا عن خالقهم ويكفروا به، واذا لم ينكروا انبياءهم ورسلهم ويتنكروا لعقيدتهم وثقافتهم ومجتمعهم، واذا لم يتخلوا عما يدعوهم اليه دينهم وتحضهم عليه شريعتهم. ألا يحق لهم ان يقرروا ما يصلح لهم من « نظام للأجور » وما يتسنى لهم من « مستوى معيشة مرتفع »؟؟.. وهل ينتفي حقهم في ان يقيموا المجتمع المتكافل المتضامن الذى يسوده العدل والاخاء والمساواة، المجتمع الذى لا طبقية فيه.. والذي يدعوهم اليه دينهم؟

هذه بعض الأسئلة التى تشغل بالهم وتقلق المفكرين والمسئولين بين السبعمائة مليون مسلم من مختلف الأجناس والشعوب.

* * *

والاسلام يختلف عن اليهودية في كونه يخضع معتنقيه لله رب العالمين جميعا، فليس بين المسلمين وبين الله عقد خاص أو امتياز خاص بأنهم شعبه المختار.

وهو لا يشارك المسيحية القول بان ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

وهو كذلك يختلف عن الديانات الأخرى كالبوذية والهندوكية.

والمسلمون الذين يشاركون الأديان الأخرى، وخاصة اليهودية والمسيحية،

في كثير من العقائد والشرائع والنواهي والأوامر، لا يشاركون الا بقدر في بعض ما تدعو اليه المذاهب المادية الحديثة، التي تنحصر شعائر الحياة وغاياتها لديها في نظرية اقتصادية ونظرة مادية.

* * *

فالاسلام عقيدة وشريعة. هو دين وثقافة وأسلوب حياة. هو أمة ودولة لها شريعتها المتكاملة والمتطورة لتدبير شئون هذه الدنيا والتجاوب مع حاجات الانسان لكي يحيا حياة انسانية كريمة خاضعة لسيادة الخالق وحده.

هو دين ودنيا. دنيا تعمر وتقوم على ما يبسطه لها الدين من إيمان وتقوى وعمل صالح لخير الفرد والجماعة، ومن مبادىء وقوانين، ومن مجتمع متكافل متضامن ودولة على نحو ما اسلفنا.

وهذه الدنيا التى يطالب الدين بأن تعمر أفضل ما يكون العمران، وبأن تكون الحياة فيها أكرم ما تكون الحياة، ليست مع ذلك الا مقدمة ومعبرا لحياة اخرى خالدة.

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا »

« ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ».

وفي القول المأثور « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا »

* * *

من كل ذلك فان أمة الاسلام التى هي أمة واحدة « وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » ترفض ان تلقى جانبا ثقافتها وعقيدتها وشريعتها المتكاملة

والتى لا تقبل التجزئة، لكي تجري وراء نظام قاصر ومحدود سياسيا كان أم اقتصاديا.

فالنظم الاسلامية فريدة ومتميزة بشمولها وبأصولها المتكاملة. ولذا فهي لا يمكن ان تدخل في مساومات وتنازلات، بل تقف ثابتة تطالب بتقوى الانسان وحريته وكرامته، وبقيام الأسرة المتكافلة فيما بينها المسئولة عن كل فرد فيها، وقيام المجتمع المتضامن الذى يسوده الايثار والاخاء والمساواة، والعدل والرحمة والانسانية، والعمل الصالح والخير المشترك.. المجتمع اللاطبقي.. مجتمع الشركاء المتساوين الذى يقوم على فلسفة سليمة شاملة كاملة!

* * *

ومع أن هذا الكتاب «رسالة محمد الخالدة» لم يلتزم بالأسلوب الاكاديمي في طريقة بحثه وعرضه، فانه محاولة جادة لاظهار وسائل الاسلام في حل مشكلات عصرنا الحاضر.

ولقد نشر الكتاب أولا باللغة العربية عام ١٩٤٦، ثم أعيد نشره بها مرتين. وكذلك ترجم ونشر بفضل أساتذة متخصصين وهيئات مسئولة في عدة دول وبعدة لغات في الدول الاسلامية.

وقد أضفت الى طبعته العربية الثانية فصلا عن الدولة الاسلامية ومقوماتها. كذلك أضفت الى هذه الترجمة الانجليزية فصلا عن حياة الرسول وبعض تعليقات وحواش تفسيرية.

ومهما يكن من شأن الكتاب، فليس لدينا منذ نشر أول مرة حتى اليوم ما يشير الى وجود معارضة أو خلاف حول معالجة أي موضوع من موضوعاته من قِبل فقهاء المسلمين وعلمائهم في جميع بلدان العالم الاسلامي.

مدينة نيويورك يناير ١٩٦٤

عبد الرحمن عزام

مُقَدّمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفاهم لحمل رسالته وأداء أمانته.

إن هذا الكتاب وليد المصادفة، فلم يكن تأليفه مقصوداً، وإنما دعا إلى تناول موضوعاته حالةُ الشذوذ والاضطراب التي سادت العالم أثناء الحرب الأخيرة. والرغبةُ في الكشف عن أسباب هذا الاضطراب العالميّ، ومحاولة إيجاد علاج له بعد أن تبين أن هذا العلاج غير ميسور في هدى الدعاوى والمبادىء السارية في هذا القرن، والتي أوحت بها المدنية المادية الحديثة.

فكلما قلّبنا الرأى فى هذه الدعاوى، وسايرنا تنفيذها الواقعيّ فى أوربا وأمريكا، ازداد الشك فى نفوسنا، وظهر عجز هذه الدعاوى عن حل المعضلة وعن وفائها بحاجة الناس. وتَوالى الحروب المدمرة، وتذَبْذُب الأقوام بين هذه الدعاوى أكبر شاهد على ذلك. فلا بد إذاً من النظر بجدّ لالتماس الهدى فى غيرها. فهل هو فى الرسالة الخالدة التى تعَاقَبَ رسل لله على الدعوة إليها وجاء بها إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد؟ذلك ما يريد هذا الكتاب الكشف عنه.

وإذا نظرنا فى الأديان السماوية جميعها نجدها تعبر عن حقيقة واحدة مهما تباينت الأشكال والأوضاع، أساسها الإيمان والإحسان. وهذا المعنى واضح فى القرآن الكريم فى الآيات التالية وأمثالها:

« قُولوا آمنَّا باللهِ وما أُنزِل إلينا وما أُنزِل إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والاسباطِ وما أُوتىَ موسى وعيسى وما أُوتِىَ النّبيُّون من ربهم لا نُفرِّق بين أحدٍ منهم ونحن له مُسلِمون ».

« مِلَّةَ أَبِيكم إبراهيم هو سَمّاكم المسلِمين من قبل...»

« إنَّ الذين آمنوا والذين هادُوا والنَّصارى والصابئين مَن آمن بالله واليومِ الآخر وعمِلَ صالحًا فلهم أَجرُهم عند ربهّم ولا خوْفٌ عليهم ولا هُم يحزَنون ».

فالآيتان الأولى والثانية اعتبرتا أتْباعَ هذه الرسالة الخالدة مسلمين، سواء أجاءوا بعد محمد أم قبله، والآية الثالثة جمعت الناس فى رحمة الله على أساسِ الإيمان والعمل الصالح. فرسالة الله إذاً فى نظر المسلمين واحدة يتتابع على حملها الرسُلُ والأقوام.

والشريعة المحمدية كنظام عالميّ هي آخر تطور لهذه الرسالة. وهذا الكتاب هو محاولة متواضعة لإيجاد حل لمشكلات هذا العالم على ضوئها، وهو أيضاً محاولة لبيان أسس الدعوة المحمدية في السياسة والاجتماع والحرب والسلم والعلاقات بين الدول والشعوب والطبقات والأفراد، وبيان حاجة الحضارة إلى سَنَدٍ من القوى الروحية والمعنوية يمسكها ويوجّهها للخير العام ويَحُدُّ من حوافز السيطرة والاثَرَة والظهور.

والعَرْض الواضح فى بعض النواحى لوجهة النظر الإسلامية إنما قصد به إلى التعاون والقُرْبَى لا التنابذ والتفرقة، وأن يجد النشء الجديد المتعطش إلى المعرفة والطالبُ للهدى، من المسلمين وغير المسلمين، مادةً للتفكير وسبيلاً إلى رأْى عالَمِيٍّ مستقيم بعد هذه الحروب المدمرة التى أثارت اضطرابا لا نظير له، التبس فيه الحق بالباطل. « شَرَعَ لكم من الدّين ما وصَّى به نوحًا والذى أوحينا اليك وما وصَّينا به إبراهيمَ وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ».

وقد شرّف الله العرب بأن جعل منهم آخر رسله، واستكمل فيهم رسالته الخالدة، فحمّلهم الأمانة، وعليهم أن يكونوا المَثَل والقدوة في سعة الصدر والنَّصَفَة والعدل والإخاء وحب السلم.

وإني لأرجو أن يكون الجيل الناشيء من العرب أهلاً لحمل هذه الرسالة، يمدون الحضارة والعِلْم بالسَّنَد الروحىّ الذى لابد منه لعالمٍ جديد متضامن متعاون على تثمير خيرات الأرض، مستظل بلواء الحق والعدل، نافرٍ من استخدام القوة، متجهٍ نحو دولة عالمية واحدة تباركها يد الله ويرعاها رضاه.

القاهرة سبتمبر ١٩٤٦ **عبد الرحمن عزام**

١

في أصول الدعوة

تمهيد

تاريخ

منذ اكثر من عشرين سنة دعتني الإذاعة المصرية للتحدث على مَوْجاتها ، وتركت لي اختيار الموضوع ، فاخترت الحديث عن ابطال العرب .

ولما نظرتُ في أمرِ العرب قديمًا وحديثًا ، وجدت أن بطلَ أبطالهم ، بل بطل العالم أجمع هو « محمد بن عبدالله » ، صلى الله عليه وسلم ، فابتدأت الحديث به ، فجاء الفَيْضُ بالسِّيرَة العاطرة عن أبرز صفات شخصيته العُظْمى ، ولم أستطع العدول عنه إلى من سبق أو من لَحِق ، فاستمر الحديث فيها يتتابع حتى خرجتُ من مصر سفيرًا لها إلى كثير من أقطار المسلمين ، وانقطع ما بيني وبين الإذاعة ، ولم أكُنْ قد تناولت إلا بعض نواحٍ لبطل الأبطال .

وقد وجد بعض العلماء أن ما تحدثت به من المِذْياع في صفات الرسول الكريم جدير بالجَمْع والنشر ، فجمعه وطبعه في كتاب سُمي « بطل الأبطال أو أبرز صفات النبي محمد » .

ثم مضت أعوام عُدْت بعدها إلى مصر ، وعادت هيئة الإذاعة المصرية فتفضلت مرة أخرى بالسماح باستئناف أحاديثي بها ، فلم

أجِد أحبَّ إلى نفسي من أن أرجع إلى أبطال العرب ، وأن يكون جامعُ فضائلهم بل فضائل الإنسانية كلّها موضوعَ الكلام هذه المرة . فكانت العناية بدعائم رسالة محمد وآثارها وانتشارها وما يستطاع تقديمه لعلاج مشكلات العالم على هداها ، وفاض الحديث واتسع له الوقت حتى أَرْبَى على ثلاثين محاضرة رأيت أن أجعلها أساسًا لهذا الكتاب الذي أرجو أن ينفع الله به في فهم « الرسالة الخالدة » لمحمد بن عبدالله في عصر الظمأ الروحيّ ، والاضطراب السياسي ، والمادّية القاسية .

وقد يكون من توفيق الله أن يخرج البحث في هذه الرسالة وأثرها في زمنٍ الناسُ فيه أحوجُ ما يكونون إلى هدى ينير لهم طرق العيش بسلام بعد أن دمَّرتهم الحروب والآلام .

فإذا كان هذا الكتاب شُعاعًا من قَبَس هذا الحق ينطلق في دياجي هذا الليل البَهِيم الذي غمر البشرية ، وإذا كان بَسْطُ مبادئ هذه الدعوة يَهدِي إلى طريقٍ وَسَطٍ مستقيم بين هذه المسالك الوعرة المضلِّلة التي تتخبط فيها شعوب البشر وتتصادم وتتطاحن لغير غاية واضحة ولا حجة ظاهرة ... فإني أرجو أن يكون ما بدا في هذا البحث من فضل الله وفَيْضِ رسوله مُعينًا على تبسيط مبادئ هذه الدعوة وبيانها بكيفية ترضي أهل الرأي وتنير طريق العامة .

شهادة الزمان والتجربة

وإني على ما أنا فيه من تقصير وتفريط لَشاهدٌ بالتجربة والنظر . وقد عشت بين الفقراء والأغنياء ، محروم الجاه ومتمتعًا به ، وخالطت

الخاصة والعامة في المشرق والمغرب ، وشاهدت آثار دعوات مختلفة ، ونظرت في كتب أقوام كثيرة ، فلم أر بناءً أقوى على الدهر ، ولا أَرْحَبَ لجَمْع البشرية من ذلك البناء الذي بناه محمد صلى الله عليه وسلم !

حاولَتْ أن تنال منه العرب والعجم ، واشْتَطَّ به المتفقّهون والمؤرّخون ، والرُّواةُ وأهل الرأي ، ودعاة الفتنة ودعاة السياسة ، وتألّب عليه الجاحدون والمكابرون وشوّهوا ما شاءوا ثلاثة عشر قرنًا ، فلم يستطيعوا أن يغيّروا وعد الله « إنَّا نحنُ نزَّلْنا الذِّكْرَ وإنّا له لحَافظون » فقضى أمرهم جميعًا وبقي أمر الكتاب قائمًا ، ولا يزال ذلك البناء على مرّ الأعاصير سليماً متينًا رحبًا ، من نزله كان آمِنًا ...

حق من السماء أو من الأرض !

هذه الرسالة الخالدة إن كانت من الله ، كما نعتقد نحن المسلمين ، فيكفي أنها من الله لتمتاز على كل دعوة من غير الله ... وإن كانت من « محمد » ، كما يقول المنكرون لنبوّته ، فنحن على بيّنةٍ من أَمْرِنا ، ندعو إلى سبيلها بالحكمة والموعظة الحسنة . ندعو المنكرين لينظروا فيها لا كَدِينٍ ، بل كنظريّة تاريخية أتت بأفكار وشرائعَ في السياسة والاجتماع والاقتصاد . فسيجدونها ، بصرف النظر عن معنى التديّن ، أُسسًا صالحة لنظام عالَميّ وَسَطٍ بين المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يتطاحن عليها الناس الآن ، وسيجدونها ، حتى على أنها من البشر ، أصلحَ الدّعَوات وأرشدَها وأدناها إلى مبادئ العدل والحرية والمساواة والإخاء ، وسيجدون طرائقها كمبادئها وسَطًا يلتقي

الناس على قبولها بفطرتهم فيصلح بها الحال ويستقيم المجتمع ، ويعمّ السلام بين الأمم ، وبين الطبقات في الأمم .

فما هي دعائم هذه الرسالة ؟

وما هو هُدَاها في الإصلاح والتكَافُل الاجتماعي ؟

وما هي سياستها في العلاقات الدولية ؟

وما هي نظرتها لأسباب الاضطراب العالمي ؟

وما هي وسائلها في البحث عن سَنَدٍ رُوحِيٍّ للحضارة ؟

وما هو النظام العالَمي الجديد الذي يوافق روحها ؟

وما هو تاريخ انتشارها شرقًا وغربًا قديمًا وحديثًا ؟

ذلك ما سنتناوله بعَوْن الله تعالى في أبواب هذا الكتاب وفصوله .

* * *

الدِّعامتانِ

تقوم الرسالة الخالدة على دعامتين ، ينهض عليهما بناؤها . وتتفرع منهما فروعها ، ويَصْدُر عنهما معتنقها ، هما :

الإيمـان ، والإحسان

لقوله تعالى : « إن الذين آمنُوا والذين هادُوا والنصارى والصابئين مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخِرِ وعَمِل صالحًا فلهم أَجرُهم عِند رَبِّهِم ولا خوْفٌ عليهم ولا هُمُ يحزَنون » .

وقوله : « بَلَى ، مَن أسْلَمَ وجهَه لله وهو مُحْسِنٌ فلهُ أجْرُهُ عند ربِّه ولا خوْفٌ عليهم ولا هُمْ يَحزنون » .

وقوله : « ومَن أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسلَمَ وَجْهَهُ لله وهو مُحْسِنٌ ! » .

ففي هاته الآيات وأمثالها تحديدُ وِجْهة الإسلام ، وتلخيص الدعوة المحمدية : عقائدها وعباداتها وشرائعها .

وفيها سرُّ بساطتها وقوتها ورَحَابتها وسرعة انتشارها بين أهل الرأْي والعامّة من البشر .

الإيمان بالله الواحد

أصل الأصول – الدين فطري – البحث عن الله – قصة إله زنجي – التوحيد
أعظم أسس الدعوة المحمدية – هو السبيل للوحدة العالمية

الإيمان بالله باريءُ الكون وحده لا شريك له ، هو أصل الأُصول في الأديان السماوية ، فهو أصل الرسالة المحمدية . أصل الأصول

هو الينبوع الذي أفاضه الله من قلب محمد عليه الصلاة والسلام بالهدى وحقائق الخير والسلام .

هو الصَّدَى العميق لذلك الهاتف الذي ناداه من السماء والأرض : « اِقْرَأْ باسمِ ربّك الذي خَلَق . خلَق الإنسانَ من عَلَقٍ . اِقرأْ وربُّك الأكرمُ . الذي عَلَّم بالقَلَمِ . علَّم الإنسانَ ما لم يَعلَمْ » .

« يا أَيها المدَّثِّر ! قُمْ فأَنْذِرْ . ورَبَّك فكبِّر . وثيابَك فَطهِّر . والرُّجْزَ فاهْجُرْ . ولا تَمْنُنْ تَستكثِرْ . ولربِّكَ فاصبِرْ » .

« وكذلك أَوْحَيْنا إليك رُوحًا من أَمْرِنا . ما كنتَ تَدْرِي ما الكتابُ ولا الإيمانُ ، وَلٰكِنْ جعلناه نُورًا نَهْدِي به مَن نشاءُ من عِبَادِنا ، وإنَّك لَتَهْدِي إلى صِراطٍ مستقيم . صراطِ اللهِ الذي له ما في السمٰواتِ وما في الأرض ، أَلاَ إلى اللهِ تَصيرُ الأُمور » .

خرج « محمد » على أهله وقومه بالدعوة إلى الإيمان بالله وحدَه فأنكروها ، وأرادُوه على العدول عنها وظنوا به الظنون ، فقالوا : ساحر وشاعر ومجنون وكذاب ، وساوموه على ترك دعوته بالمال والمُلْك والجاه ، وقاوموه واضطهدوه وآذَوْه ، فما كان قوله لهم إلا أن قال : « واللهِ لو وَضَعُوا الشمس في يميني والقمرَ في يساري على أن أَترُكَ هذا الأمر ما تَركتُه أو أهْلِك دُونَه » . فلم يَعدِل بذلك الإيمان الذي اطمأنت إليه نفسه وأَمَرَهُ به ربه ، ولا بالدعوة إليه ، مُلْكَ الليل والنهار وما فيهما ! وكان همه أن يلتقي الناس على عبادة الخالق القدير الذي تنزهت صفاته عن الشريك والمثيل .

الدين فطري

والناس من أقدم العصور حَيَارَى يجدون في أنفسهم إلهامًا بالفطرة إلى التسليم بقوة قاهرة يستلهمونها ويستمدُّون منها العون ، ويستقبلون منها الخير والشر ، فيدْعونها خوفًا وطمعًا ، ويتلقونها بالقَرَابين والعبادات ، ويجدون في الإيمان بهذه القوة التي اختلفوا في تكييفها سَنَدًا ومَلاذًا من رهبة القُوَى المادية في الكون ، وسَلْوَى وعزاءً عما هم فيه من قسوة الحياة وآلامها .

شعورٌ فِطْرِيٌّ قوي في نفوس البشر يدفعهم إلى عبادة القوة . وليس أبدعَ من تصوير القرآن لهذا الاتجاه بقوله في قصة اهتداء إبراهيم عليه السلام إلى الله كما وردت في سورة الأنعام :

البحث عن الله

« وكذلك نُرِي إبراهيمَ مَلَكُوتَ السمٰوات والأرض ولِيكُونَ من

المُوقنين . فلما جَنَّ عليه الليلُ رَأى كوْكبًا ، قال هذا رَبِّي ! فلما أَفَل قال لا أُحِبُّ الآفِلين . فلما رأى القمرَ بازِغًا ، قال هذا ربي ! فلما أفل قال لئِنْ لَمْ يَهدِني ربِّي لأكُونَنَّ من القوم الضالّين . فلما رأى الشمس بازغةً ، قال هذا ربي ، هذا أكبرُ ! فلما أفَلَتْ قال يا قوم إني بَرِيءٌ مما تُشرِكون . إني وجَّهْتُ وجهيَ للذي فَطر السمٰواتِ والأرضَ حَنِيفًا وما أنا من المشركين » .

هَكذا تدرج عقل إبراهيم في الاهتداء إلى الله من مظاهر القوة والنفع والرهبة والروعة في النجم والقمر والشمس ، ولكن لم يُرْضِ فطرته السليمة أن يراها ناقصة بأفولها وقيودها وتعدّدها وخضوعها لسلطان الظلام ، فعدل عنها ، والتمس عقله الطريق إلى قوة مختارة دائمة غير محدودة ، هي قوة الله الذي فطر السمواتِ والأرض وقَهرها . ثم اتصل بعقله وحي الله وهُدَاه .

* * *

وقد عبد الناس قُوًى كثيرة ، إما عبادة أصِيلة ، وإما لاتخاذ عبادتها زُلْفَى وتقرُّبًا إلى تلك القوة العظمى القاهرة التي يدركونها بفطرتهم .

عبدوا الأشباح والأرواح والجمادات والحيوانات والنجوم والكواكب والماء والنار والبرق والرعد ، وما توهموا أن فيه القوة أو أنه مَثَلٌ لها أو مظهر من مظاهرها . بل عبد بعض الناس بعضًا ممن تجلت فيه قوة غير طبيعية ، ثم قتلوا من عَبَدُوا حين تبين لهم قصوره عن القدرة التي ظنوها فيه .

ومِن أعْجب ما شاهدتُ من عبادة الإنسان للإنسان ، أنني جالست قبل نحو أربعين عامًا إلهًا من آلهة الزنوج في جبال النُّوبة بأقصى الجنوب من كردفان[1]. فكنا على الأرض نَتَفَيّأُ ظلالًا وارِفة لشجرة من تلك الأشجار الاستوائية الهائلة ، وجَمعٌ من الشعب رجالًا ونساءً عرايا يرقصون ويطربون في حضرة الإله ويسمونه « الكُجُور » . وهذا الكجور سواء أكان هو الإله أم رَمْزَه ، هو عُرْفًا المعبود الذي يرفع إليه الدعاء وتقدم له القرابين ، وهو القدير على تصريف الأمور الكونية ، له كل تقديس ، فهم يطعمونه ويَهبُونه ويتزلفون إليه مُقابِلَ أن يأتيهم بالمطر لزرعهم وسائمتهم ، وأن يشير عليهم بالوقت المناسب للصيد أو الحرب ، أو أن يدفع عنهم البلاء والمرض .

ولم أستطع أن أتبين إن كان في نظرهم إلٰهًا كاملًا أو كأصنام الجاهلية ، يعبدونهُ زُلْفَى لمن هو أعظم في نظرهم .

جاءت زوجة « الكجور » ونحن نتحدث بوساطة مترجم فجلست بجواري ومدّت ساقها فأرتني آثار ضرب بها . فقال المترجم : إن بعض العامة ضربوها ، وهي تشكو إليك ظانَّة أنك الحكومة . فقلت : كيف وهي زوج « الكجور » وهو إلٰههم المتصف بالقدرة عندهم ؟ ! فقال : إن القداسة لا تشمل الأسرة ، وحقوقه شخصية فقط ، وأهله مثل جميع الناس .

---

(١) كان ذلك سنة ١٩٣١ في جبال النوبة من جنوب كردفان .

فقلت لصاحبي : إن هذا الشعب على سذاجته وضلال عقيدته يضرب أعلى الأمثال في الديموقراطية والمساواة .

ومن عجيب أمر القوم ، أن للكُجور حقوقًا يقابلها واجبات ، فإذا امتنع عن أداء الواجب قتلوه .

فمثلًا إذا أجدبت الأرض وهَلَك الزرع سألوه المطر ، فإن أَبَى وتأخر المطر حاولوا استرضاءه بالهدايا والدعاء ، فإن مرّت السنة وأجدب ما بعدها ولم يستطيعوا أن يقنعوا كجورهم ليأمر المطر برحمتهم ، فإنهم قد ينتظرونه مواسم أُخرى ثم يقتلونه أو يرجمونه ويقيمون غيره ممن يعرفون فيه بالوراثة والاختبار علم الأسرار وفعل بعض الخوارق ، فيُحِلُّونه محله .

وأعجب ما في نوادرهم ما رُوِي لي أنهم شكَوْا أحد الآلهة مرة إلى الحكومة لامتناعه عن الإتيان بالمطر . ولم يتركوا موظف الحكومة حتى أمر بحبسه . واستمروا هم ينتظرون أيامًا ، فإذا بالكجور يطلب من الحاكم أن يطلق سَراحه فيأتيهم بالمطر بسرعة . وما إن انطلق من الحبس وسار بالشعب نحو الجبل ، حتى هطلت الأمطار غزيرةً . فهم لا يشكُّون في قدرته ولا يظنون به العجز ، وإنما يظنون به القصد السيئ .

ذلك مَثَلٌ من فكر البشر في سذاجته . وفكرُ البشر حتى في حضارته أحيانًا لا يكون أعلى كثيرًا . فقد عبد العجل والقط والصنم والنار وبعض البشر وغير ذلك .

التوحيد أعظم أسس الدعوة المحمدية

وكانت الدعوة المحمدية إلى الوحدانية غريبة لدى العرب وغيرهم رغم ما يظهر الآن من بداهتها واستقامتها . وكانت الحاجة شديدة لداعي التوحيد لِيَسْمُوَ بالعقل الإنساني إلى النظر في الكون والمخلوقات والتوجّه إلى خالقها جميعًا لاستمداد العون واستلهام الرُّشد .

وإذا تقصَّيْنا سيرة الرسول في مكة ، وتأملنا التنزيل في تلك الفترة ، رأينا « محمدًا » قد وقف قلبه وجهده ، ووهب حياته وحياة أنصاره لتمكين هذه الدعامة الأولى وإظهارها . وقد خاصم أعداءه وهادَنَهُم ، ونَفَرَ ورَضِي ، واستصرخ أهل الأديان الأخرى ليلتقوا معه على كلمةٍ سَوَاءٍ : هي عبادة الله لا شريك له « قلْ يا أهلَ الكتابِ تعالَوْا إلى كلمةٍ سَوَاءٍ بيننَا وبَيْنكم ألاَّ نَعْبُدَ إلاّ اللهَ ولا نُشْرِكَ بهشيئًا ولا يَتَّخِذَ بعضُنا بَعْضًا أرْبَابًا من دُونِ الله . فإنْ تَوَلَّوْا فقُولُوا اشْهَدُوا بأَنّا مُسلِمون » .

* * *

ولم يقبل في دعوته إلى الوحدانية من المشركين وعبدة الأوثان هَوادَةً أو مساومة رغم أنه كان يجادل الجميع ، ولكنه كان كثير التسامح مع أهل الكتاب . يقول القرآن « ولا تُجَادِلُوا أهلَ الكتابِ إلاَّ بالتي هي أَحْسَنُ » ، ويقول في النصارى « ولَتَجِدَنَّ أقربَهم مَوَدَّةً للذين آمنُوا الذين قالوا إنّا نصارى » ، ويقول قولًا عامًا في جدال الجميع « ادْعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحِكمةِ والموعِظةِ الحسَنَةِ وجادِلْهُم بالتي هي أحسنُ » .

التسامح هو السبيل إلى الوحدة العالمية

وقد بلغ تسامح الدعوة المحمدية مع المِلَل الكتابية حدًّا لا يعرفه أهل هذه الملل حتى في هذا العصر الذي انتشر فيه اللادينيّون ، ولا يقبل مثله كثيرون من المتديّنين في الملل الأخرى ، فلا تتسع صدورهم له ولا لرحمة الله لغيرهم .

انظر إلى هذه الآية الكريمة « إن الذين آمنُوا والذين هَادوا والنصارى والصابِئِين مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ وعَمِل صالِحًا فلَهُمْ أَجرُهم عِند ربِّهم ولا خوْفٌ عليهم ولا هُمْ يَحزنُون » .

فالهدف الأسمى للرسالة المحمدية هو الإيمان بالله لا شريك له . وفي سبيل التوحيد تسهل كل العقبات ، وتتساوى القبائل والشعوب جميعها ، حتى الأديان لقوله تعالى « قُولوا آمَنَّا بالله وما أُنْزِلَ إلينا وما أُنزِلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسْحٰقَ ويعقُوبَ والأَسباطِ ، وما أُوتِيَ موسَى وعيسى وما أُوتِيَ النّبِيُّونَ من ربِّهم لا نُفَرِّقُ بين أحدٍ منهم ، ونحن له مُسلِمون » .

دين واحد لأمة واحدة

فرسول الله في دعوته إلى الإيمان بالله الواحد الخالق لم يَدَّع أنه مُبْتَدِع بل قال إنه مكمِّل للشرائع السابقة ومعيدٌ للحنيفِيّة الفطرية التي هي دين إبراهيم بل دين نوح وآدم ، وإنه لا تبديل لذلك الدين القيم الذي يستند إلى وحدة الله ، ويترتب عليه وحدة خَلْقه « شرعَ لكم من الدِّين ما وَصَّى به نوحًا والذي أَوْحيْنَا إليك وما وَصّيْنا بهِ إبراهيمَ وموسى وعيسى أنْ أقِيمُوا الدِّينَ ولا تتفَرّقُوا فيه . كَبُر على المشركين

ما تَدْعُوهم إليه » . « يا أيها الرُّسل كلُوا من الطيّبَات وَاعْمَلوا صالِحًا إني بما تَعمَلون عليم . وإنَّ هذه أُمتُكم أُمّةً وَاحدةً وأنا ربكم فاتقُون » . « فلما أَحَسَّ عيسى منهم الكُفْرَ قال مَنْ أَنْصَارِى إلى الله ؟ قال الحواريُّونَ نحنُ أنصارُ الله ، آمنَّا بالله وَاَشْهَدْ بأنّا مُسْلمون » .

ولم يختلف الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب إلا حيث كان تنزيه الخالق موضع شك . ففي سبيل التوحيد والتنزيه جادل وخاصم ولم يصالح أَو يهادن أحدًا على حساب دعوته هذه ، لأنها أساس رسالته وغايتها ، بل غايةُ الوجود « وما خلقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلّا لِيَعْبُدون . ما أُرِيدُ منهم مِنْ رِزْقٍ وما أُرِيدُ أن يُطعِمُونِ » ، « سَبَّحَ للهِ ما في السموات والأرضِ وهو العزيزُ الحكيم . لهُ مُلْكُ السمواتِ والأرض يُحْيي ويُميت وهو على كل شيءٍ قدير . هو الأوّلُ والآخِرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ » .

وهذا التوحيد الذي دعا إليه فضلًا عن سموه بالعقل البشري هو أصل الخير وأساس السعادة والخلق السليم كما يظهر من الفصل التالي .

* * *

آثار التوحيد

التوحيد روح الدين – هو أساس الانتساب والاعتبار الشخصي – الإشراك سبب لإهدار شخصية المشرك – الشرك طارئ على الفطرة – الشرك باعث الظلم والاستبداد – التلازم بين التوحيد وصلاح الفكر والحياة – وكر الخرافات والأباطيل – عقائد التوحيد وآثارها في تزكية النفس – آثارها في حرية الفكر وسيادة العقل وسمو الحضارة – لا احتجاج بالواقع السيء

بيَّنا أن الإيمان بالله وحدَه لا شريك له هو الهدَفُ الأسمى للدعوة المحمّدية. والله سبحانه قد سمى المؤمن به وحده مسلما «فلما أَحَسَّ عيسى منهمُ الكُفْرَ قال مَنْ أَنْصَارِي إلى الله؟ قال الحَوَارِيُّونَ نحنُ أنصارُ الله، آمَنَّا بالله واشْهَدْ بأَنَّا مسلمون.»

وإذا تصفَّحْنا آيَ الذِّكر الحكيم نجد الدعوة إلى التوحيد والتَّنْزيه لا تخلو منها سورة، بل تكادُ لا تخلو منها صفحة من الكتاب تصريحًا أو تَلميحًا.

التوحيد روح الدين

وحِكْمة ذلك واضحة؛ إذ الإيمان بالله وحدَه يتفرع منه كلُّ ما في الدعوة من صلاحٍ وإصلاح، وهو الرِّباط الذي يجمع شتاتها ويُوَثِّق بين أجزائها، بل هو فيها بمقام الروح للجسد، يتحلل ويَبْلَى ويندثر بفراقها. والشرائع من غير إيمان كالقوانين الوَضْعِيَّة: تسقط بسقوط القائمين عليها ويذهب أثرها بذهاب الظروف التي أحدثتها.

لذلك كان الإيمان بالله لا شريك له هو الحدّ الفاصل بين الناس،

هو أساس لانتساب والاعتبار الشخصي

وليست العناصر والأجناس حدودا بينهم بل ليس الانتساب إلى الدين الإسلامي نفسه وعدم الانتساب إليه حدًّا ، إذ بينما هذا الدين يرعى كنيسة المسيحيين وَبيْعَة اليهود إذا دخلت في ذِمَّته ، ويأمر المسلمين بالقتال لاحترام حرية عقائد المُعَاهَدين من أهل المِلل الكتابيــة « ولو لا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لَهُدِّمَتْ صوامِعُ وبِيَعٌ وصَلَوات ومساجدُ يُذْكَرُ فيها اسمُ الله كثيرا » ، وبينما هو يكتفي ممن يؤمن بالله من أهل الكتاب بضريبة قليلة على القادرين من الذكور مُقابل حماية نفوسهم وأموالهم وأَعراضهم ودِينهم وعُرْفهم ، ضريبة هي رمز لعَهدهم ، يستعين بها المجاهدون على الرِّبَاط في الثُّغور ، ويأمَن المُعَاهَدون بها على ديارهم وعقيدتهم . وقد ردّها خالد بن الوَليد ، رضى الله عنه ، إلى نصارى حِمْص حين أجلاه الروم عنها ، وقال ما معناه : إنما أخذناها لحمايتكم وقد عَجَزنا عنها.(1) نقول بينما الإسلام يعامل المؤمنين بالله على هذا الأساس ، إذا به يفرق بينهم وبين المشركين ويعامل هؤلاء معاملة أخرى فيها عدم اعتراف بكرامتهم، ولو أنه يفي لهم أيضا بما لهم من عهود ومواثيق مع المسلمين بشرط ألا تصادم حقا أو تدفع إلى ظلم ، كما حصل في حلف النبي لخزاعة وصلح الحديبية كما سيأتي. إذ العداوة معهم دائمة لوجه الله وصالح البشريــة ، حتى يكون الدين كله لله .

الشرك سبب لإهدار كرامة المشرك وشخصيته

ومن ناحية أخرى نجد الإسلام يُدْخِل الكتابية في الأسرة المحمدية

---

(١) وعلى رواية أخرى ان الذي ردها هو أمير الجيش ابو عبيدة عامربن الجراح.

فيُبِيحُ مُصاهرة أهل الكتاب ويجعلهم خُؤُولة للمسلمين ، وهو لا يقبل مثل هذا النَّسَب مع المشركين ، ويأبي أن يعترف لهم بهذه الميزة « ولا تَنْكِحُوا المشركات حتى يؤمِنَّ ولَأَمَةٌ مُؤْمِنةٌ خير من مُشْرِكة ولو أعجبتكم . ولا تُنْكِحُوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبدٌ مؤمن خير من مشرك ولو أعجَبَكم » بل يصل الأمر أن يجعلهم نجاسة « إنما المشرِكُون نَجَسٌ فلا يَقْرَبُوا المسجدَ الحَرامَ بَعْدَ عَامِهِم هذا » .

كل هذه الشدة مع الوَثَنِيِّين والمشركين ليست تعصُّبًا أعمى ولا إفراطا في العصبية الإسلامية ، فلو كانت كذلك لساوَتْ الدعوة في المعاملة بين أهل الأديان الأخرى جميعا ، وقد لَقِي الإسلام من العَنَتِ والأذَى من أهل الكتاب كثيرا ، ولكن ذلك لم يُخْرِج الدعوة عن التّمييز بينهم وبين المشركين . ذلك كلُّه لأن عقيدة التوحيد هي غاية الحياة الإنسانية وسبيل الإصلاح المنشود . فمتى آمَنَ العبد بأنه أَثَرٌ للبارئ الأعظم ، كان بينَه وبين خالقه ما بين الصانع والمَصنُوع من الصّلة ، وكان بينه وبين المصنوعات جميعا ما بين الآثار المتعددة للمُنْشِئِ الواحد ، وكان هذا الارتباط المعترَفُ بـه اعترافَ إيمانٍ بين الخلق والخالق رِباطًا لا يَنفصِم ، يستمر بـه . العُمران والإصلاح والخير على وَتيرَةٍ واحدة مصدرُها الإذعان لإرادة واحدة ، وكان بذلك وجودُنا جميعا في هذا الكون متّصل المبدأ متّحد الغاية . ومتى امتلات النفوس بذلك سهل كل شيء . أخوة عامة في الله

فلو تصورْنا الناسَ على إيمان كاملٍ كهذا ، يؤدُّون ما عليهم وَفْقَ هذا الإيمان ، لأمكن أن نتصور أقدرَ المخلوقات على الفساد ، وهو الإنسان ، أصلحَهـا ، إذ هو حينئذ لا يحتاج لوازعٍ ولا هادٍ إلا من إيمانه ، بل لأمكننا أن نتصور هذا العالَم ولا حُكْمَ ولا حكومة فيه إلا لِوِجْدانِ المؤمنين .

لذلك كان الإيمان بالله لا شريك له الشغلَ الشاغلَ لصاحب الدعوة ، وكان في الحقيقة سببَ نجاحها واستقامتها .

فإزالة الشِّرك يتبعُها هدم مفاسده ، وإقامةُ التوحيد يتبعها قيام فضائله .

* * *

تُقَرِّر الدعوة المحمدية أن الناس كانوا على الفطرة يعبدون الله وحده ، ثم ضلّوا ، فإذا عادُوا لها استقاموا .

الشرك طارئ على الفطرة

وإذا نظرنا في تاريخ أديان البشر وجدنـا الشِّرك في الغالب نتيجة لبِدَعٍ أحدثها الناس ، فعدّدُوا الآلهة ونوّعوها ، وأقام المبتدعون والمفسدون أنفسهم قُوَّامًا على الآلهة وسَدَنَةً وحُرّاسا ، بل وكلاءَ ونُوَّابًا ، واتخذوا سلطان هذه الآلهة سلطانا لهم ، ثم تآمر ذَوُو الأغراض فتساندوا على تضليل العامّة ، وانتهَوْا بوضعهم في أَسْر مجموعة من الخُرافات والسَّخافات ، وكأن الكهنة وأَضْرابَهم من القُوّام والوكلاء والمرشدين خزنة الأسرار الدينية هم في الواقع الآلهـةُ المتصرّفون في المجموعات البشرية المأسورة .

وكر الخرافات والأباطيل

باعث الظلم والاستبداد

فأول أثر يبدو للشرك في تاريخ البشر ، هو أن العُبُودِيَّة للصنم انقلبت إلى عبودية للشخص أو الأشخاص القائمين على هذا الصنم ، وقامت عهود من الاستبداد دامت في مصر والعراق آلاف السنين ، ولم يَخْلُ منها ركن من أركان العالم من فجر التاريخ إلى اليوم . ومهما تغيرت الأوضاع والأشكال ؛ فإن الشِّرك والاستبداد حليفان متلازمان .

أما التوحيد فيتبعه الإنصاف ويلازمه كالظل للشواخص ، لأن الإله الذي دعا إليه الأنبياءُ ومحمدُ صلى الله عليهم وسلم منزه عن الهوى والغرَض ، لا يريد من خلقه رزقا ولا طعاما ، وليس له وكلاء ولا نوابٌ ولا وُسَطاء . يقول « ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لكم » وهو أقرب إليهم من حبل الوريد ، هو الرحمن الرحيم ، هو الغنيّ القدير ، هو البَارئ المُصوِّر ، هو العَفُوّ الغفور ، هو المُعْطِي المانع ، هو الحَكَم العَدْلُ ، هو المنتقم الجبّار ، هو العليم الخبير ، هو المسيطر فوق عباده ، العزيز الحكيم .

كلّ هذه الصفات وما معها من تَنْزِيهِ عن الشَّبِيهِ والمَثِيل جعل الأُلُوهِيّة في وضع يعلو بها عن الاستغلال السّيئ ، وجعل الخلق تحتها متساوين في حكمها ، أكرمُهم عند الله أتقاهم ، وأقربهم أبرُّهم بالعباد .

وكما أن الظلم والأَثَرة ملازمان للشركَ كان الإنصاف والعدل والمساواة ملازمةً للتوحيد .

لذلك كانت غاية الدعوة المحمّدية الإيمان بالله وحده ، وهو

عندها فوقَ كلٍّ شيء . ويقول القرآن الكريم « إن الله لا يَغْفِرُ أن يُشْرَك به ويغفِرُ ما دُونَ ذلك لِمَنْ يشاء » .

آثار التوحيد في تزكية النفس

والإيمان الخالص من الشوائب ، الصادرُ من القلب ، تتبعه حتما جميع الفضائل المتعارَفِ عليها ؛ لأن المؤمن من يجد حسابه مع الله مباشرة فيرفعه إليه وحده ؛ فهو لا يرتكب الكبيرة ولا الصغيرة عن عمد وقصد . ومتى وجد هذا الإِنسان فقد وجد الإنسان الكامل .

فلو أن مجتمعنا تكوّن من مثل هذا الإنسان لقام على الرحمة والمحبة ؛ إذ من وصايا الإسلام « لا يؤمنُ أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه » « الراحمون يُرْحَمُهم الرحمن » « ارحمُوا من في الأرض يرحمْكم من في السماء » فهو إذن المجتمع السعيد .

وليس غريبا ما دعا إليه بعض الخوارج في عهد الفتنة بين « علي » و « معاوية » من إلغاء الحكومة البشريـة تماما، إذ قالوا « لا حُكْمَ إلا لله » . ولو تحققت الحكومـة الإلٰهية لكان مَلِكها الوجدان ، وقانونُها الإنصاف ، وزاجرُها العُرْف العام .

التوحيد سر حكومة الوجدان

لكن الدعوة المحمدية لما فيها من صدق نظر ومطابَقَةٍ لطبائع الناس عوَّلت في الإصلاح على الإيمان والشَّرْعِ الذي ينظم ما قصدت إليه من إحسان ، وجعلت الوازع من يختاره المؤمنون لينفذ ما شَرَعتْ ، فضَمِنت بذلك استقامة الأمور . وهيهات أن تصل البشرية إلى حكومة الوِجدان التي توحيها عقيدة التوحيد !

قلنا إن الإيمان بالله يتبعه حتما تَغَلُّبُ جميع الفضائل في نفس المؤمن. فهو لا يعيش لنفسه بل لإخوانه من مخلوقات الله جميعًا، ويكاد يَمَّحِي في النفس المؤمنة الشر بجميع أنواعه، وأولُ ما ينمو فيها هو الإيثار والفداء والتضحية في سبيل الخير العام.

فالمؤمن لا يكون ظالما، لأنه يعارِض بالظلم صفة من صفات الله وهي العدل؛ ولا يكون غليظا قاسيا، وسيدُه هو الرحمن الرحيم. ولا يكون كاذبا ولا مُخادعا ولا منافقا؛ لأن حِسابه مع الله العليم الخبير الذي «يَعْلَم خائِنَةَ الأَعْيُن وما تُخْفِي الصُّدُورُ»، ولا يكون ذليلا أو جبانا، لأنه يعلم أن ذلك لا يفيدُه ما دام الأمر بيد الله.

وهكذا إذا استرسلنا في تَعْداد النقائص نجد أنه حِيلَ بينَها وبين الموحِّد بِحجَاب الإيمان، ونجد الصفات الساميَة جميعا محبّبَة إلى النفس المؤمنة المطمَئِنّة التي دخلت في عباد الله ودخلت في رحمته حين لبّت نداءه: «يا أيتها النَّفْسُ المُطْمَئِنّة اِرْجِعِي إلى ربّكِ راضيةً مَرْضِيَّةً، فادْخُلِي في عِبادِي وادْخُلِي جَنَّتِي».

هذه النفس المطمئنة بالإيمان تَحْيَا في سعادة لا يتذوقها إلا الموحِّدون. ويمكن لأمثالنا ممن يعيش على هامش الإيمان ويسأل الله الهدى، أن يتصوّر النفس المؤمنة تكون في الجنة فِعْلًا في هذه الدنيا؛ لأن السعادة الروحية التي تتذوقها هي أطيب ما في الجنة من متاع.

* * *

التلازم بين التوحيد وصلاح الفكر والحياة

هذا الإيمانُ بالله وَحْدَه الذي قلنا إن الفضائل تتبعه حتما ، وإنه يطهّر النفوس من الشر والرذيلة ، يسمو كذلك بالعقل البشري ؛ فالوثنية والشرك يَشْغَلانِ الذّهن بالمحسوسات ويحصرانه في نِطاقِ الأباطيل الصادرة عن دَعَوات السَّحَرة والكَهَنة وطوائف القائمين على الآلهة المجسَّمَة ، أو على الآلهة المُقسَّمة الموزعة السُّلْطات والمتنافسةِ عليها ، فَتَطبعُ في أذهان الناس صُوَرًا مما هم فيه أو ما يهبطون إليه من الخُرافات ، بينما يفعل التوحيد والتنزيه عكس ذلك ، فهو يدعو للتفكير والنظر وتحكيم العقل ؛ فالإله الذي دعا إليه الإسلام يجمع السّلطان والفضائل ، وهو مع الناس أينما كانوا ، لا وَسيط له ، ولا يَنالُونه بِحِسٍّ ، فلا بد لهم من التفكير فيه والاستدلال عليه بآثاره ، مما يدعو إلى تعلّقِ العقل بمصنوعاته .

وقد كانت عناية الدعوة المحمدية في هذا بادِيةً في أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأعماله ، كما ردَّدَت آيات الكتاب الكريم الدعوة إلى النظر والتعقّل ، فاستهزأت بالمقلّدِين والمكابرين والجاحدين والجامدين بكلمات لاذعةٍ قارصة ، وامتدحت المفكّرين والباحثين والذين يُحسنون استخدام مَلَكَاتَهم في النظر في الكون واستنباط الحقائق من مقدّماتها وآثارها .

ومن العجيبِ أن الشّرك الذي صرعتْه الدعوة المحمدية في جزيرة العرب في أيام الرسول وفي غيرها من بعده ، وترتّب على هَزيمته ظهورُ

الفضائل التي أشرنا إليها ملازمةً للإيمان بالله لا شريك له ، لم يكن سهلا هيِّنًا كما يُظَنّ ، بل كان شرّا مُستطِيرا وبلاءً مستأصِلا .

يقول الله تعالى « وعَجِبُوا أَنْ جاءهم مُنْذِرٌ منهم وقال الكافرون هذا ساحرٌ كذّابٌ . أَجَعَلَ الآلِهَةَ إلهًا واحدًا إنَّ هذا لَشَيءٌ عُجَابٌ ! وانطلَقَ المَلَأُ منهم أن امْشُوا واصبِروا على آلِهتِكم ، إنّ هذا لَشَيءٌ يُرادُ. ما سَمِعْنَا بهذا في المِلَّةِ الآخرة إنْ هذا إلا اختلاقٌ » .

أثر التوحيد في تحرير العقل وسمو الحضارة

فالدعوة المحمدية بانتصارها على الشّرك قد أزالت العَقَبة الأولى في سبيل السُموّ بالنفس البشرية كما بينا ، ورفعت الحَجْرَ عن عقول تحجّرت ، فانطلقت للنظر والتبصّر ، وبدَتْ آثار ذلك مُسرِعة ، حتى كادت الدعوة المحمدية أن تكون في ذاتها مُعجِزة ، فقد اتفق العلماء والباحثون على أن نجاح محمد صلى الله عليه وسلم في دعوته مقطوعُ النظير ؛ فلا يُعْرَف في تاريخ البشر نجاح كالذي لَقِيه .

ومن المتَّفَق عليه أيضا أن دعوته كانت غريبة مُنْكَرَةً في نظر القوم مُبْتَدَعة غير مُمَهَّدٍ لها ، وقد لَقِيت من العِناد والاستهزاء والاستنكار ما تَفِيضُ به حوادث السنوات العشرين التي قَضَاها صلى الله عليه وسلم وهو يَجْهَر بها بعد أن أخفاها في بادئ أمرها .

وكما كانت الدعوة إلى التوحيد غريبة فإن أثرها في النفوس وما ترتب عليه في تكييف الحياة وتغيير وجه الأرض كان أكثر غَرابة .

فالأَعراب الذين وأَدوا بناتِهم واعتزُّوا بسَفْك الدماء والنَّهْب ،

صاروا الخُشع الرُّكَّع الذين يبتغون فضلا من الله ورضوانا .

والأسرة التي كان يَرِثُ فيها الرجلُ زوجاتِ أبيه ، صارت الأسرةَ المُطَهَّرَة . والقبيلة التي كانت لا تعرف حقا إلا لعَصبيَّتها ، ولا تَرْعَى ذِمَّة إلا لمن هو منها ، صار فيها من يَرُدُّ إلى نصارى « حمص » أموالَهم ، لأنه عجز عن رعاية ذِمَّتهم .

والسادة الذين استعبدوا الناس صاروا يخشون الله ولا يخشَون في الحق لَوْمة لائم .

ومن الجُفَاة القُسَاة صار الخليفة الذي تردُّه امرأة في مَجْمَع الْخَلْق فيقول « أصابت امرأة وأخطأ عمر ! » ويكتب إلى أكبر وُلاَتِه الفاتحين متهكّمًا « متى استعبدتم الناسَ وقد ولدتهم أمهاتهم أحرار ! » لأن ابن ذلك الوالي أساء إلى مسيحيٍّ من قوم مغلوبين . وكان ذلك في مصر .

لا احتجاج بالواقع السيء

فإذا قال قائلٍ : وما بال فساد الحال ضاربًا أطنَابه على الدنيا اليوم ، والمؤمنون مِلْءُ الأرض ؟

قلنا ما قاله الله « وما يُؤْمِنُ أكثَرُهُمْ بالله إلا وهم مُشْرِكون » وما قاله الرسول « واللهِ لا يُؤْمِن ! واللهِ لا يؤمن ! واللهِ لا يؤمن ! قيل : مَنْ يا رسول اللهِ ؟ قال : الذي لا يأمَنُ جارُه بَوَائِقَه » .

فهل أَمِنَ أحدٌ من أهل الكتاب في الغرب أو الشرق بوائِقَ جارِه ؟ وهل أحبَّ مُسلمٌ لأخيه ما يحبّ لنفسه ؟

ولا تزال الإنسانية في هذا البلاء ، وهذه الحروب ، وهذه الفُرْقَة بين الأمم ، وبين الطبقات في الأمم حتى تملأً مبادئُ عقيدة التوحيد قلوب الناس .

* * *

الإحسان

ردیف الإيمان – تنظيم دقيق لقواعد الحياة وأساليبها – أثر سريع لتطبيق نظم الإحسان – الرحمة والإخاء أساس الإحسان – دفاع لا بد منه عن الأتراك العثمانيين – أثرهم في زوال عهد الإقطاع من الملداف والبولونيين – موقف عظيم لشيخ الإسلام في عهد السلطان سليم – رحمة الحيوان – وقائع وحكايات عن الرحمة

الآنَ ننتقل إلى الدِّعامة الثانية للإِسلام وهي الإحسان . والإحسان في نظري هو العمل الصالح ، وقد جاء في الآيات رَدِيفَ الإِيمان . بل يكادُ يلازمُه في كل آية .

ردیف الايمان

والشَّرِيعة الإسلاميّة كلُّها ما هي إلا بيانٌ بالامْر أو النَّهْي أو الإباحة للأمور التي بها يكون العمل صالحا . وهي فَرِيدةٌ بين الأديان في وضع الأصُول والفروع لهذا الإنسان . ففي جميع علاقات الإنسانِ بالله ومخلوقات الله رسَمت الشريعة بشيءٍ من التّفصيل قواعدَ الحياة وأساليبَها للمسلم . وهذه القواعدُ منها ما يختصّ بالعلاقة بين العبد وربِّه من صلاة وصوْم وحجٍّ مما يَتْبع الإيمانَ وما يقتضيه من عبادات .

تنظيم دقيق لقواعد الحياة وأساليبها

وكلُّ ما نحتاج أن نُشِير إليه منها في مثل هذه الأحاديث هو أن هذه العباداتِ مع تَزْكِيَتِها للنفس وتطهيرِها للبدَن ، مما يعُودُ أثرُه على المسلم في شخصه ، هي كذلك مجموعَةُ نُظُمٍ تُعِين على حُسن العَلاقات

بين الفرد والجماعة ، وتُيسِّر بما فيها من تدريب وتهذيب سبيل التكافُل الذي لا بُدّ منه للجماعة الصالحة ، بل تُحَرِّض في كل لحظة على التعاون البشري الذي هو أساس العُمران .

وليس أدلَّ على ذلك من الأثَر الذي أحدثتْه هذه العبادات في نفوس قوم من الأعْراب وأَضْرابهم من الأمم المتبدّية هم أبعد النّاس عن الألْفَة والتعاون وأدناهم للأَنانيَّة والشرّ .

أثر سريع لتطبيق نظم الإحسان

ففي بِضْع سنين أصبح الجُفَاةُ النافرون ، وقد عبدوا الله على الكَيْفِيَّةَ التي سنَّها صاحب الدعوة ، أهلَ نظام وتَقْوَى ، يركعون ويَسجُدُون لله ويأْتَمُّونَ برَجل منهم ، ويؤَدُّون ذلك باطِّرَادٍ في أوقات محدَّدة ، فتعوَّدُوا النظام والطاعة والتكافل ، وأصبحوا إخوانا يَسْعى بِذمَّتهم أدناهم .

وقد دَهِشَ فعْلًا أولادُ عمومتهم الذين استمرُّوا على الشِّرك حين الْتَقَوْا بهم في « بدر » فرأوهم لأول مرة في كتائبَ مرصوصة لا عهد للعرب بها . لا يتنادوْن بعصبيَّة مع أنهم من شَتَات العرب ، بل شَتَاتِ الأعراب والعبيد والأحرار والبيض والسُّود ، رابِطَتُهم في الله وأُخُوَّتهم في الإنسانية .

فالعبادات على الكَيْفيَّات المختارة في الإسلام لها بلا شكٍّ ، غيرَ الرابطة التي تقوّيها بين المخلوق والخالق ، آثارٌ عِدَّة في نفس الإنسان وحياتِه وعَلاقته بالناس ؛ ولذلك كلِّه كانت عنايةُ صاحبِ الدعوة صلى الله عليه وسلم بها عظيمة .

وفقهاء المسلمين حين عَلِموا أن الإسلام بُني على خمسة أركان ، للعبادات ثلاثةٌ منها ، قد أدركوا عِظَمَ هذه الأركان الثلاثة : الصلاة والصوم والحج في بناء الدِّين . وقد أفاضُوا في فضْل العِبادات المختلفة ، بل في فضل كل صَلاة ورَكْعة ، مما لا حاجةَ معه لجديد ، ومما يَعْرِفه كل مسلم إن لم يكن تفصيلا فإجمالًا . ولكنّ أكثرَ المسلمين ، مع شديد الأسف ، لا يعرفون عن دِينهم أكثرَ من ذلك . فلهذا أظنّ أن العناية في هذه الفصول بالنواحي الأخرى للأحسان والعمل الصالح أجدرُ وأنفع .

* * *

كان الرجل يأتي من أَقْصى البادِيَة فيجلسُ إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يتلقَّى دعوته ، فيقوم من بين يَدَيْه وهو أعلمُ بها ممن دَرَجوا اليومَ في أحضان الإسلام ، ونشأوا في بيوت الدين . وليس ذلك لميزات الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وبَرَكتِه وتأثير شَخْصِيّته فحَسْب . ولا لِأَنَّ هؤلاءِ الأعرابَ كانوا يختلفون عن أبنائهم عربِ اليوم ، وإنما لأن الدعوة كانت بسيطة مُركَّزةً في مبادِئَ عامّة مفهومة للكافّة ، سَهْلة ، تُلْقَى إليهم ليعمَلوا بها وليسيروا على نَهْجها ويَنْسِجُوا على مِنْوالها ، لا ليتحدّثوا عنها ثم يشتغلوا بالقشور إذ « نَسُوا اللهَ فأنْسَاهم أنْفُسَهم » ، ورَضُوا بالطاهر ففقدوا اللُّبَّ والجوهر .

وعبارة القرآن في هذا المعنى تدل على سهولة تَلَقِّي الدعوة ونَشْرِها :

يقول الله تعالى « فلولا نَفَرَ من كلِّ فِرْقَةٍ منهم طائفةٌ ليتفقَّهُوا في الدِّين ولِيُنْذِرُوا قومَهم إذا رَجَعُوا إليهم » .

فالدعوة بَسِيطة ، أساسُها الإيمان والإحسان . وهذا الإحسان هو العمل الصالح كما قلنا . وهذا العملُ الصالح هو مبادئُ عامّـةٌ وعبادات تُلَقَّنُ كَيْفِيّاتُها في لَحَظات .

الرحمة والإخاء أساس الإحسان

أما المبادئُ فأصلُها جميعًا في الرحمة والإخاء . والرحمة صفةُ الله وقد كان المسلمون في أول عَهد الدعوة يسمُّون الله « الرحمن » حتى قال العامّة ، إن محمدا يَعْبُد إلٰهًا اسمُه الرحمن . والمسلمون يَسْتَفْتِحُون كلَّ عمل وحركة باسم الرحمن الرحيم ، ويُحَيِّي بعضُهم بعضا بالسلام والرحمة فيقولون « السلام عليكم ورحمة الله » .

وآيات الكتاب شاهدةٌ على أنها أحبُّ الصفات إلى صاحب الدعوة « محمدٌ رسولُ الله . والذين معه أَشِدَّاءُ على الكُفّار ، رُحَمَاءُ بَيْنَهُم » .

« واخْفِضْ جَنَاحَك للمؤمنين . وقل إنّي أنا النذير المُبِين » .

« ونُنَزِّلُ من القرآن ما هو شِفاءٌ ورحمةٌ للمُؤمنين » .

« فَبِماَ رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُم » .

« عَزِيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عليكم ، بالمؤمنين رَؤُفٌ رحيم » .

والأَحاديث النبوية في معنى الرحمة مستفيضة .

« الراحمون يرحمُهم الرحمٰن » « اِرْحَمُوا مَنْ في الأرض يَرْحَمْكم

من في السماء » .

أساس العمران

هذه الرحمة التي هي أصلٌ من أصول التشريع في الدعوة المحمدية « وما أَرْسَلْناك إلا رحمةً للعالَمِين » هي أساس العُمران . وما نُزِعت من قلب إنسان إلا صار خَرِبا ، ولا من قومٍ إلا كانوا وَبَاءً على الأرض . والتاريخ يحدّثنا عن طُغيان أقوام نُزِعت الرحمة من صدورهم ، فتركوا آثارًا فظيعة من الخَراب استمرَّت بعدهم قرونا .

فمثلا مَوْجات المُغُول مع « جنكيزخان » ومَنْ بَعْدَه لا تزال رغمَ مرور سبعة قرون باديةً آثارُها للعِيَان في أواسط آسيا وغربها ، وقد شَهِدتُها بنفسي في الأفغان وإيران والعراق ، وستبقى أجيالا كثيرة .

وجاء مِن بَعدهم أقوام مثلُهم من المسلمين ومن الأعراب المسلمين نُزعت الرحمة من صدورهم فعَاثُوا في الأرض الفسادَ ، ولا تزال آثار الخراب الذي أحدثه بعض هؤلاءِ القساةِ من الأعراب مشهودةً في شمال إفريقية ، وقد شهدتُها كذلك بنفسي بعد مرور مئات من السنين .

فالرحمة أساسُ العُمران ، جاء بها موسى وعيسى ومحمد . بل هي رسالة أنبياء الله والمصلحين جميعًا . ولم يَعْظمْ شأنُ دولة من الدول إلّا والرحمة صفةٌ من صفات القائمين عليها .

* * *

دفاع لا بد منه عن رحمة الأتراك العثمانيين

وقد يظنُّ بعض الناس بما يتناقلُونَ من أحاديثَ أو فكاهات عن بعض العهود الأخيرة للدولة العُثمانية أنها كانت دولةً لم تكن

صفةُ الرحمة من مميزّاتها . وهو خطأٌ شائع لا يقف أمام البحث والتدقيق . فالعُثمانيُّون في أيام عِزِّهم ورثُوا الرحمة التي نزعها الله من قلوب العرب المتأخرِّين ، فورِثُوا الدولة ، وسادُوهم كما سادُوا الأوربيين .

أمثال شعبية تشهد لهم

وقد سمعت بنفسي حديث هذه الرحمة في «بَسَرابْيا» من رومانيا على نهر «الدنيستر» ، وقيل لي إن أمثلة الفلّاحين في هذه الأطراف النائية للمُلْك العثماني لا تزالُ تعبرِّ عن رحمة التركي وعَدْله. ومنها ما يشير إلى أن العدل يُنْزَعُ مع الأتراك من الأرض. وقد لفَتَ نَظرِي في بولونيا ورومانيا وفي بلاد البلقان في رِحْلاتي المتعددة أمثلةٌ وأساطِيرُ لا تزال تشير إلى ما استقرّ في نفوس هذه الأمم المسيحيةِ من احترام التركيِّ المسلم كرحيم عادل.

وفي سنة ١٩١٧ كنت في ڤينا فرُوِي لي أن البولونيين مستبشرون بوصول العساكر العثمانيّة إلى جاليسيا مَدَدًا للنمساويين وقتئذ ، فسألت عن السبب ، فقيل لي إن عندهم نُبُوءة يعتقدونها عن بعض قِدِّيسِيهم بأن علامة عزِّهم وظهورِ دولتهم مرةً أخرى هي أن تعود العساكر الإسلامية إلى الظهور شمال الدانوب.

ومن العجيب أن هذه العساكر ولو أنها جاءت مَدَدًا لغاصبي بولندا ومقتسميها فإنه لم يَمْض سنة على عُبورها «الدانوبَ» حتى استقلت بولندا حقيقةً مرة أخرى وعادت دولة مُوَحَّدَة.

هذه الأسطورة وغيرُها من الأمثال في لُغَات الأمم البلقانية جعلتني

أتوسَّع في قراءة التاريخ الإسلاميّ في البلقان ، وقد خرجتُ من قراءتي ومُشاهداتي بأن العدل والرحمة الإسلامية هما اللذان مكَّنا للعثمانيين في أوربا .

وبالعدل والرحمة خرجت هذه الأمم من غَيْبوبَتها وهَمَجيّتها وقسوتها ، وعرفت المساواة والإنصاف. ويكفي أن تعلم أن اسْتِرْقاق الطوائف بأشنعِ صورة كان نظامًا دوليًا متعاهَدًا عليه في أوربا الوسطى والجنوبية إلى أن قضَى عليه العثمانيُّون.

أثرهم في زوال عهد الإقطاع من أرض الملداف والبولونيين

وكانت هناك عهود دولية بين المُلْداف والبولونيين والمَجَر لتسليم كل فلاح يرحلُ من مَزرعة سيّده من « البويار » إلى أحد هذه الأوطان ، وكانت المزارِع تُباعُ بما عليها من الحيوانات والفلاحين.

جاء العثمانيّون إلى أورُبا يحمِلُون بين صدورهم عاطفة الرحمة كما أرادها صاحبُ الدعوة ، صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن الأتراك أكثرَ عُدَّة ولا عَدَدًا من أيّةِ أمّة من الأمم التي سادُوها ، فوَصلُوا على رؤوسهم جميعًا إلى ڤينا ، تمهّد لهم الرحمة صعابَ الجبال والبحار والوِهاد ، كما مهدت للعرب قبلَهم إفريقيّة وآسيا .

وكان للأتراك مَلِك شديد ، هو السلطان سليم ، عُرِف بالقسوة وذَبَحَ كثيرًا من آل بيته ، ويلقِّبُه الأتراك أنفُسهم بسليم القاسي . فخَطَر له

موقف عظيم لشيخ الإسلام في عهد السلطان سليم

أن يوحّد دينَ الدولة ولغتَها فأبَى عليه شيخُ الإسلام ، فامتنع حُرْمةً لوصايا الإسلام باحترام حقوق المسيحيين والرحمة بهم . وذلك من أثر

الرحمة التي أودعها الله قلب صاحب الدعوة وأتباعه، والتي هي ركن الإسلام المتين وصفة الله التي إذا نُزعت من الصدور دالَتْ الدولة، وعم الخراب حتى يَسْتَخْلِفَ اللهُ أهلَ الرحمة.

انظروا إلى العالم اليوم، وقد نُزِعت الرحمة من الصدور؛ أَلَمْ ينقلب الإنسان شرًّا من الوحش الضّارِي؟ ألم يسبق المتحضرون في القسوة جنكيزخان؟. أليست الغارات الجوّيّة على المَدَنيِّين أسوأَ ما بلغه الناس من التوحّش؟. ثم أليست هذه مقدماتِ الخراب العامّ؟.

رحمة الحيوان

هذه الرحمةُ التي أرسل اللهُ محمدًا من أجْلها، ليست خاصّة بالإنسان. وليعلم القارئ مكانتها من الإسلام، نَقُصُّ بعضَ أحكام الشريعة في الرِّفق بالحيوان، ليتبين مَدَى عناية صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم، ببث الرحمة في دعوته.

قال صلى الله عليه وسلم «بَيْنَا رجلٌ يمشِي بطريقٍ اشتدَّ عليه العطَشُ، فوجد بئرًا فنزلَ فيها فشَرِب ثم خَرَج، وإذا كلبٌ يَلْهثُ، يأكُلُ الثَّرَى من العطش. فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلبَ من العطش مثلُ الذي كانَ بَلغ مني. فنزل البئر فملأَ خُفَّه ماءً ثم أَمْسكه بفِيه حتى رَقِيَ، فسَقَى الكلبَ، فشكر الله تعالى له فغفر له». فقالوا يا رسول الله «وإنَّ لَنَا في البهائم لأجْرًا؟» فقال: «في كلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجْرٌ».

وقال أيضًا «دخلتْ امرأةٌ النارَ في هِرّة ربطتها فلم تطعمها ولم تَدَعْها تأكلُ من خَشَاشِ الأرض».

وقد جاء الإسلام بالنَّهْيِ عن كثير مما كان يأتيه العربُ. وكان من عادة العربيّ أن يعذب الحيوان كشقِّ آذانِ الدوابّ، وربط الناقة بجوار قبر صاحبها إذا مات لتموت معه، وغير ذلك.

وحرَّمت الشريعة رَمْيَ الطيْر للتلهّي، وعَبَث الأولاد بالطيور، والتحرِيشَ بين الحيوانات كما يفعل الأسبانيون مع الثيران، وبعضُ الأمم بين الديوك والكلاب، ومنعت إثْقالَ الحِمْل على الدابّة، وأوجبت حُسنَ رِعايتِها وسِقَايتِها، وإلا فللقاضي نزعُها من صاحبها.

حكايات عن الرحمة

وقد كان لهذه التعاليم أثر بالغ في البدْو والمتوحشين؛ فقد رُوِي أن عَدِيًّا ابنَ حاتم، وقد مَلك الاسلامُ قلبَه، كان يَفُتُّ الخبزَ للنمل، ويقول: إنهن جارَاتٌ ولهنّ حق.

ورُوِي عن الشيخ أبي إسحق الشيرازي أنه كان يمشي في طريق يرافقه بعض أصحابه، فعَرَض له كلب، فزجره رفيق الأستاذ، فنهاه وقال: أما علمتَ أن الطريق مشترك بيننا وبينه... !

وفي الحديث «إذا رأيتم ثلاثةً على دابّة فارجُمُوهم حتى يَنزِل أحدهم».

وكُتب الفقه تَفِيضُ بأحكام الرِّفق بالحيوان، مما يُشير إلى مقدار ما قصدت إليه الشريعة من الرحمة بمخلوقات الله.

فالرحمة من أسس الدعوة المحمدية وأصولها، بل هي المقصودة من إقامة الدولة. وخيرٌ للناس أن يَلْهُوا بغير صلاة وصوم وحج، وخير لهم

أن يعيشوا بغير مساجدَ وبِيَعٍ وكنائسَ إذا نُزعت الرحمة من صدورهم. فالدين والدولة بلا رحمة ينقلبان إلى خداع وظلم.

فاللهم أَنزِل الرحمة في الصدور حتى يُصْرَف البلاء عن العالم!

* * *

الإخاء

آية هي دستور الإخاء والمساواة – تصوير عجيب لوقع البر لدى الله – آيات في تهديد ذوي القسوة والبخل – قدامى العرب وفهم الإخاء والمساواة – إخاء شامل بين المسلمين وأهل الكتاب – بقايا الإخاء في العالم الإسلامي ذكرى أخوّة في ألبانيا – الإخاء في العالم الاسلامي

نبسط الحديثَ في هذا الفصل عن الأساس الثاني للإحسان، وهو الإخاءُ الذي صار دعوة عالمية محببة لدى أهل هذا العصر جميعًا.

كان المُجْتَمعُ العربيّ قد قسَّمته العصَبِيَّات القَبَلِيَّة والقسوة الفردية، وكان المُجْتَمع الإنساني قد سادته كذلك العصبيّة والجنسيّة والفخر بالأنساب حين جَهَر الرسول بالدعوة إلى الإخاء صادِعًا بنداء الله:

آية هي دستور الإخاء البشري

«يا أيُّها الناسُ إنَّا خَلَقْنَاكم من ذَكَرٍ وأُنْثَى وجعلناكم شُعُوبًا وقبائِلَ لِتَعارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُمْ عِندَ الله أَتْقَاكم». وقد نادى بالإخاء قَسيمًا وَقَرينًا للرحمة، وقرر أن بهما تُقْتَحَمُ العَقَبة ويسعد الناس ويدخلون الجنة «فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَة. وما أدْرَاكَ مَا الْعَقَبة! فَكُّ رَقَبة، أو إطْعَامٌ في يومٍ ذِي مَسْغَبَة، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبة، أو مِسْكينًا ذَا مَتْرَبة ثُمَّ كان مِنَ الذين آمَنُوا وتَوَاصَوْا بالصبر وتَوَاصَوْا بالمَرْحَمَة».

وآيات الكتاب الكريم، والأحاديثُ في الترغيب في الإخاء والرحمة مستفيضة.

وفي حديث قُدْسِيٍّ: إن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول يوم القيامة «يا ابْنَ آدم مَرِضْتُ فلم تَعُدْني! فيقولُ ابن آدم: يا ربّ كيف أعُودُك، وأنت ربُّ العالمين؟! فيقولُ اللهُ: أمَا عَلمتَ أن عَبْدِي فلانًا مَرِضَ فلم تَعُدْه؟ أمَا إنَّكَ لو عُدْتَه لوجَدْتَني عنده! يا ابنَ آدم. استَطعَمْتُك فلم تُطْعِمْني! فيقول: يا ربِّ كيف أطْعِمُكَ وأنت ربُّ العالمين؟! فيقول الله: أما عَلِمْتَ أنّ عبدي فلانًا استطعَمك فلم تُطْعِمْه؟ أمَا إنَّك لو أطعمتَه لوجدتَ ذلك عندي. يا ابن آدم اسْتَسْقَيْتُكَ فلم تَسْقِنِي. فيقول كيف أَسْقِيك وأنت ربّ العالمين! فيقولُ استسقاك عبدي فلانٌ فلم تَسْقِه، أما إنك لو سَقَيْتَه لوجدتَ ذلك عندي».

تصوير عجيب لموقع البر لدى الله

انظر إلى هذا المعنى السّامي في هذا الحديث الجليل؛ فإن الله مَع عباده في كل لَحْظةٍ وحالة وإن البرّ بالناس برٌّ بالله. وما هو في حاجة لبِرّ، ولكنه لا يَرْضَى إلّا أن يكون كأنما البرُّ لذاته. ولذلك لا أظنُّ أن منازعًا يستطيع أن ينازِعَنا في أن الإخاء والرحمة هما الأصل بالنسبة لمبادئ الإحسان في الدعوة المحمدية، كما أنهما الغاية منها، فهي لم تترك سبيلًا من الترغيب والترهيب إلّا سلكته لتَنْطَويَ النفوس على الإخاء والرحمة، وتَنفِر القلوب من الاثَرة والأنانيّة. انظروا إلى هذه الآية فهي حتى في عبارتها تصْعَقُ بهَوْلِها غِلاظ القلوب:

«كلّا بل لَا تُكرِمُون اليتيم. ولا تَحَاضُّونَ على طعام المِسكين. وتأكلون التُّراثَ أكلًا لَمًّا. وتُحِبّون المالَ حُبًّا جَمًّا. كلا إذا دُكَّتِ

تهديد شديد لذوي القسوة والبخل

الأرضُ دَكًّا دَكًّا. وجاء ربُّك والمَلَكُ صَفًّا صَفًّا. وجِيءَ يومَئِذٍ بجهنَّمَ يومَئذٍ يتذكَّر الإنسانُ وأَنَّى له الذِّكْرَى. يقولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لحياتي. فيومَئذٍ لا يُعَذِّب عَذَابَه أحدٌ. ولا يُوثِقُ وَثَاقَه أحد».

قدماء العرب وفهم الإخاء والمساواة

كانت الدعوة إلى الإخاء غريبةً كالدعوة إلى التوحيد والدعوة إلى البعث، فأنكرها العرب الذين لا يعتزُّون بغير العصَبيَّة، ولا ينزلون للإخاء مع من هم أدنى، كالأرقاء والضعفاء. وكان لا بدّ من حملهم عليه لأنه أساسيٌّ في نجاح الدعوة. ولكن كيف يتم ذلك وهم المستهزئون بجماعة «محمد» من المُسْتَضْعَفِين والعَبيد وقد تآخَوْا في الله مع السادة والأشراف إخاءً جميلًا، حتى حُكِيَ عن المتكبرين أنهم قالوا مثل قول نوح «ما نَراك اتَّبَعَك إلَّا الذين هُمْ أَرَاذِلُنا».

وقد أكد القرآن هذا المبدأ السامي ووسَّعه حتى شَمِل أُخوّة البشر جميعًا فقال: «يا أيها الرُّسُل كُلُوا مِن الطَّيِّبات واعْمَلُوا صالحًا إنِّي بِما تَعْملون عَلِيمٌ. وإن هذه أُمَّتُكُمْ أمّةً واحدة وأنا ربكم فاتقون».

ولما تَمَكّنتْ دعوةُ الإخاء، في النفوس مَنَّ الله بها على المؤمنين كأكبر نعمةٍ فقال «واذكرُوا نعمةَ الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّفَ بين قلوبكم فأصبَحْتم بنعمته إخوانًا». ولم تكن الدعوة إلى الإخاء قاصرةً على المهاجرين والأنصار، ولكنها كانت عامة. «قُلْ يا أهلَ الكتاب تعالَوْا إلى كلمةٍ سَوَاءٍ بيننَا وبينكم أَلَّا نعبدَ إلا اللهَ ولا نُشْرِكَ به شيئًا ولا يتخِذَ بعضُنا بعضًا أَرْبابًا من دونِ الله» «شَرَعَ لكمْ من الدِّين ما

إخاء شامل بين المسلمين وأهل الكتاب

وَصَّى به نُوحًا والّذي أوْحَيْنَا إليك وما وصَّينا به ابراهيمَ وموسى وعيسى أن أقيمُوا الدِّين ولا تَتَفَرَّقُوا فيه». «قولوا آمَـنَّا بالله وما أُنْزِل إلينا وما أُنْزِل إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأَسْباطِ وما أُوتِيَ موسى وعيسى، وما أُوتِيَ النَّبِيُّون من رَبِّهمْ. لا نُفَرِّقُ بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون».

فالدعوة المحمدية قد قامت إذًا على رسالة للناس كافَّة لعبادة الله وحدَه وليكون الناس أمةً واحدة. والأخوّة فيها هي أُخُوّة العقيدة، لا تفرق بين الشعوب والقبائل، والأبيض والأسود والأصفر، ولا الغالب والمغلوب، ولا الأراضي والأوطان، بل تدعو إلى أخوّة حدودها البشرية، تحرّم الاعتداء، وتدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسَنة، حتى في حالة النّزاع مع المعتدين ورَدّهم عن عُدْوانهم بالحرب، فإن فكرة الأخوّة البشريّة تُتَّخذ أيضًا نِبْراسًا يَهْتدِي به المؤمنون في ظلامِ الحرب، فهم لا يحاربون للفتح، ولا للسلب ولا للقهر وإذلال الناس، وإنما لحرية العقيدَة. «لا إكراه في الدين قد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ من الغَيِّ» «وإن جَنَحُوا للسَّلْمِ فاجْنَحْ لها وتوكَّل على الله».

حتى في حالة الحرب مع الوثنيّين، يعتبر الإسلام الأخوّة أصلًا في النزاع؛ فالمؤمن الذي يَعتقد أن الوثنيَة هي أسوأ ما يصاب به الإنسان في رُوحه وعقله ومصيره، إنما يريد للوثنيّ أن ينجوَ مما هو فيه، وما هو مُعَرَّضٌ له من غَضب الله، فإذا قَسَا عليه لِيَرُدَّه عن كفره، فإنما

يريد بذلك رَحْمته وهو معترِف بأخوّته كما قيل:

فقَسَا ليزْدَجِرُوا ومَن يكُ حازما   فَلْيَقْسُ أحيانًا على مَنْ يَرْحَمُ

وهذا الوثني الذي يحاربه المُؤْمِن متى كان مُعْتَديًا، يستحِقّ من المؤمن جميع الحقوق بمجرّد تسليمه لله، ويصبحُ مساويًا له تمامَ المساواة؛ فهو إذًا لا ينازعه لنكران أخوّته، أو لعدم الرغبة في رحمته، بل لتمام هذه الرحمة أو هذه الأخوّة.

فنستطيع إذًا أن نقولَ: إن الرحمة والإخاء أصلان من أصول الدعوة الإسلامية مقصودان لذاتهما ولأثرهما، حتى في أشد حالات النزاع والخلاف والحرب، وإن الأخوة العامة هي مقصد أسمى للرسالة المحمدية، لا كما يدَّعي بعضُ الأجانب، ولا كما يظن بعض الحَمْقَى من أن الإسلام دين حرب وقسوة وقهر.

وعليه فالإحسان أو العمل الصالح، أن نسعى إلى الإخاء العام وأن تكون الرحمة شعارنا وهَدْينا في كل زمان ومكان.

* * *

الإخاء معجزة الإسلام

وقد كان للدعوة المحمديّة أثرها العظيم في هذا، بل كان أكبر معجزاتها ما أحدثته من أخوّة بين طوائفَ من البشر كانت أشدَّ الأقوام تَدَابُرًا وتناكُرًا وشِقاقًا. ولو قلبنا صفحاتِ التاريخ قبل الإسلام، ونظرْنا فيها إلى حال الأُمم التي دَانَتْ بالدعوة المحمديّة فيما بَعد، ما بين جبال الهِملَايا وجبال البَرانِس، في طول الدنيا شرقًا وغربًا، لأدركنا الأثر

الهائل الذي أحدثته الدعوة إلى الأخوّة والتَّراحُم في نفوس مئاتِ الملايين من البشر على مَمَرّ هذه القرون.

بقايا الإخاء في العالم الإسلامي

ولا تزالُ هذه الأُخوّة التي دعا إليها محمد صلى الله عليه وسلم أحسن ما بَقِي في نفوس مُسلِمي اليوم، رغم ما هم عليه من بُعْدٍ عن رُوح الإسلام، فهي متجلية فيهم لمن يرحلون في أطراف الأرض الإسلامية كما تَجلَّتْ لابن بَطوطة قبل سبعة قرون، ولمن قبله ومن بعده.

ذكرى إخاء في ألبانيا

وقد شَعَرتُ بها لأوّلِ مرة في شبابي في جبال الأرنؤوط بألبانيا؛ فقد دخلت تلك البلادَ ولا عَهْد لي بها ولا معرفةَ بأحدٍ من أهلها. وكان طريقي إليها من بحر الأدريانيك، فنزلت «بكاترو» وذهبت إلى «ستنجه» عاصمة الجبل الأسود وقتئذٍ، وكان أهل الجبل في حالة حربٍ مع الدولة العثمانية، وكنت مُتنَكِّرًا بصفة مراسل لجريدة إنجليزية، أقصِد التَّطوُّع مع المدافعين عن «أشقودره» من الترك والألبان، فلَمَحْت في المدينة اسما إسلاميا على دكان، فقدَّمتُ نفسي إلى صاحبه، وكأنما كُنَّا على موعد! رغم أن حديثنا كان بالإشارة. وما لَبِث أن جاء لي بفَقِيهٍ يعرف قليلا من العربية، فتفاهمْنا، وتولّى الرجل بعد ذلك أمري كلَّه حتى وصلت إلى أشقودره، وتنقلت في بلاد الأرنؤوط من الشمال إلى الجنوب، يوصي بعضُهم بعضًا بي. ولو كنتُ بين أهلي ما وجدت منهم حبًّا أكثر مما أوجَدَتْهُ لي الأخوّة الإسلامية في تلك الأيام العصيبة، أيام حرب البلقان. بل إنِّي لا أزالُ أذكر أنهم

أوجدُوا لي في كل بلد مَن يَعرف العربية ومن يُلازِمني لخدمتي ومعاونَتي .

وهذه الروح ذاتها هي التي وجدتُها في شمال إفريقيّة أثناء الحرب العالمية الأُولى . وهي التي لمستها في الهند حينما كان الناس يَحُفُّون يَحُفُّون بي ويستبشرون ، ولما علموا أن مصر صارَت دولةً مستقلّة ، وأنني رسولُها إلى الأفغان فَرِحوا كأنما أيامُ عِزّهم قد أقبلت !

هذه الرُّوح التي خلقتْها الدعوة المحمّدية إلى الأخوَّة ، هي التي شهدتُها كذلك في إيران والأفغان وتركيا والعراق والشام والحجاز وغيرها ، وفي كل جَوْلَة من جَوْلاتي في بلد لا تزال للإسلام أو بقيَ فيها مسلمون ، وهي التي يَخْرج بها مُعْتزًّا الأفغانيُّ من المشرق أو الفلّاتي من أقصى إفريقية الغربية فَيَطْوي آلاف الأميال سَيْرًا إلى مكة ، متوكلا ؛ لأنه يَمْشي من أهل إلى أهل ، ومن إخوانٍ إلى إخوان ، حتى يَرِدَ المكانَ الذي جَهَرَ فيه محمد بالدعوة إلى هذه الأخوَّة العامّة .

كنتُ مرة قاصدًا من الرِّيَاض عاصمة نجد إلى مكة ، وكان بينهما سَفَرُ خمسة أيام بالسيارة في ذلك الوقت . وفي اليوم الثاني لاحَ لي رَجُلانِ يمشيان ، فوجَّهت السائق ناحيتَهما ، وسألتُهما أصْلَهُما وقَصْدَهُما ، فلم يفهما لعُجْمتهما ، إذ أنهما كانا من «قندهار» بالأفغان ، وكان موسم الحج مُقْبِلاً ! فأدركتُ أنهما يريدان الحجَّ فشَقَّ عَلَيَّ أن أتْرُكَهُمَا وحَمَلتهما معي إلى مكة . وفي الليالي التي قضيناها بالطريق ، رَغْمَ جهل بعضنا لغةَ بعض ،

كانت رُوح الأُخُوَّة ناطقة بكل حاسَّةٍ . ولولا هذه الأخوَّة لما طَوَى هذان الرجلانِ الأرضَ ، لا يَمْلِكان شيئا من الدّنيا إلا أنَّ الدعوة المحمدية قد آختْ بينهما وبين البلوش والفُرْس والعَرب ممن تنقلوا في أوطانهم .

نعم إن هذه الأخوة تَضْعُفُ في أقطار المسلمين بضعف التديّن وقيام النَّعَراتِ الجنسيّة . وأعظم من ذلك بسيطرة المادّة على النفوس ، فهي تكاد تَقْضِي على الأخوّة في البيت والأسرة الواحدة .

وقد كان أثر الدعوة المحمدية إلى الإخاء والرحمة أعظمَ ظهورا في تاريخ المسلمين من أية دعوة مُمَاثِلَةٍ في التاريخ البشري . وإذا اعترض معترض بما بين اليهود من تعاوُنٍ ، فإن هذه حالةٌ شاذّة سبَبُها دوامُ اضطهاد جماعتهم وتَشتُّتُها ووجودها في حالة أقلية ، لأن ما بين اليهود هو عصبية عنصرية جنسية مبعثها الدم وليس العقيدة التي تدعو إلى الإخاء الإنساني . أما الأخوّة التي دعا إليها محمد صلى الله عليه وسلم وأقامها الإسلام في النفوس ، فكانت أعزُّ أيّامها أيام العزّ السابق ، وقد حملها العثمانيُّون إلى شَرْقِ أوروبا ، كما حملها العرب من قبلُ إلى غرب أوروبا ومجاهل إفريقيّة وآسيا ، فكان الناس تحت رَايتهمْ سَوَاسِيَةً كأسنان المُشْطِ ، لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ إلا بالتقْوَى والعافية ، ولا سلطان لمسلم على غير مسلم إلا بما تقتضيه حدود الله .

إخاء ليس له نظير

وقد كان أهل الملل الأخرى في الدول الإسلامية أهل ذِمَّة ، لَهُم

ما لِلمسلمين وعليهم ما عليهم ، فلهم ما يقتضيه العدل والرحمة ، وعليهم ما يقتضيه الإخاء .

والآن ، وهذا العالم المضطرب ، يأكل قويُّه ضعيفَه ، والناس في أنكر صور القسوة يَتقَاذَفُون بالهَوْل لِيَجْنُوا مغانِم وأسْلابًا لا شك أنهم في أشد الحاجة إلى التذكير بدعوة الإخاء والرحمة ، ولظهور هذه الدعوة قوية عزيزة ، كما كانت ولله الأمرُ من قَبْلُ ومِن بَعْد .

* * *

٢
فى الإصلاح الاجتماعى

التطهير الخلقي للفرد

نموذج الإنسان الكامل – أثر القدوة العملية – أثر العقيدة في توجيه الخلق للخير العـام – عبد الملك بن مروان وأبو حازم – التاجر الناصح القانع
نظرة عمرية لحقيقة الصلاح

كانت الدعوة الإسلامية ثورة اجتماعية مَهْما قلَّبنا عن شَبِيهٍ لها في الشرق والغرب ، في القديم والحديث ، فلن نجد لها مثيلا .

وأَعظمُ آثارِ هذه الثوْرة هو الانقلابُ الخُلُقيُّ والنَّفْسانِيُّ الذي أحدثه محمد صلى الله عليه وسلم بعملِه ومثُلِهِ وشَخْصِه ، وأحدثَه بمبادئه . فكان نتيجة ملازمةً ومباشرة لدعوته . وهو أساس مَراتِب الإصلاح الاجتماعيّ ؛ لأن صلاح الفرد أساس صلاح الجماعة .

يقول تعالى في وصف محمد صلى الله عليه وسلم « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » ويقول محمد « إنما يُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكارمَ الأخلاق » . ويقول « أدَّبني رَبِّي فأحسَنَ تأديبي » .

وحقًّا تمثَّلَتْ الأخلاقُ الفاضلة في شخصه الكريم ؛ فالصدق والبِرُّ ومعرفةُ الواجِب وأداؤه والحلمُ والحياءُ والصبرُ والشجاعةُ والعِزّة والتواضُع والعِفّة والوفاء كل أولئك كان بعضَ صفاتِه البارزَة التي قرَّبَتْهُ إلى القلوب ، فتعلّقَ الناس به ، وتَركُوا في حبِّه جاهِلِيَّتَهُم وآباءهم وأبناءهم . نموذج الإنسان الكامل

وقد أدرك العلماءُ من غير المسلمين هذه الحقيقة في شخص محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم لم يوفقوا للإيمان به رسولا من الله تعالى ، ولعل ذلك أثر من آثار البيئة فيهم .

وها هي ذي القرونُ تتتابع ، وأخلاقُ محمد صلى الله عليه وسلم من الوُضُوح والقوة بحيثُ لا يستطيع أن ينكرها عليه جاحد برسالته . مِصْدَاقًا لقوله تعالى : « فإنهم لا يُكذِّبُونَك ولكنَّ الظالمين بآياتِ اللهِ يَجْحَدُون » .

أثر القدوة العملية

كان لِمَثَلِه الشخصي أكبرُ الأثرِ في الانقلاب الروحيّ والخلقيّ الذي تم في أيامه وبعد وفاته . وكذلك كان أثَرُ المبادئ التي سنَّها ، والعقيدةِ التي دعا إليها . فمبادئُ المساوة والإخَاءِ والعدالة والحرّيّةِ التي جعلها أجزاءً مُتَمِّمَةً للإيمان قد فَعلتْ فِعْلَها في إصلاح الأخلاق والسموِ الروحيّ للجماعة . وكذلك فعلتْ عقيدة الايمان بالله وحده لا شَريك له ، له الملك ، وله السلطان ، بيده النفع والضر والمنع والعطاء ، تتساوَى الناس في مَلَكُوته وفي العُبوديّة له ، فسَما بالرُّوح البشريّة وحرّرها ووجهها إلى الخير العام وقَصْدِ وَجْهِ الله القدير الذي بيده كلُّ شيء ، وجعل مَنَاط الأعمال النية التي يعلَمُها ويُحِيطُ بها علّام الغُيوب . فهيَّأَ بهذه العقيدةِ السبيلَ إلى الأخلاق الفاضلة .

العقيدة وأثرها في التوجيه للخير

فالذي يَدِينُ بها لا يكذِب ، لأن الكذب لا يخفَى على الله ولا ينفعُ صاحبه ، فصار الصدق من دِعاماتِ الأخلاق في الدّعوة المحمّدية ،

وصار الرِّياء والنِّفَاق يُبْعِد عن الله ، ولا يُكْسِبُ الأعمالَ إلا بَوَارًا ، واستحال بذلك على المسلم المُؤْمنِ أن يكون كاذِبًا أو مُرائِيا .

والمؤمن شجاع الرأي والقلب لا يهاب الموتَ ، لأنّ الذي يَمْلِكُه هو اللهُ وحده ، وبذلك ترتفع نفسهُ إلى العِزَّة والإباء والاستشهاد في الحق ، وترفض الظُّلْم أو التحقير إن وقع عليه أو على إخوانه من عبيد الله .

والمؤمن بهذه العقيدة لا يكون جَبَانا مستسلما ، بل يَحْيَا مُنَاضِلًا ، يدفع شرور الحياة عن نفسه وعن الناس بحياته .

المؤمن يعتقد أنّ اللهَ هو الذي يُعطي ويَمْنع ويَرْزُق من يشاء بغير حساب ، فلا يَبْخَل بما في يده ، بل يَبْذُل إرضاءً لهذا الرازق وطلبًا لبِرِّه وكرَمه ، ويعيش سَخِيًّا كريما سَمْحًا مع إخوانه عِبادِ الله .

كذلك لا يكُونُ المؤمن أنانِيًّا ، فإن عقيدته تمنعُه من أن يَخْتَصَّ نفسَه بالمَتَاع ، وهو يعلمُ أن في ذلك حرمانًا لِعيَال الله من المُشَارَكَةِ في فَضْل الله ، فهو إنسانٌ يكمّل إنسانيته بالشعور بجنسه ، يعيشُ بنفسه وأهلِه وجِيرتِه وأُمَّته والناسِ جميعا .

هو حَسَنُ المعامَلة والعِشْرة وَفِيٌّ وَدُودٌ ، لأن كل ذلك من متممات إيمانه ومُسْتَلْزَمات خضوعه للذّاتِ العَلِيَّة التي رَفَعَتْه واسْتَخْلَفَتْه في الأرض.

* * *

فالعقيدة الإسلامية التي دعا إليها محمد صلى الله عليه وسلم ،

والتي مكَّنها في نفوس أصحابه وأتباعِه هي بذاتِها الدّعامة الكُبْرَى للإِصلاح الاجتماعي ، فقد نَشأ عنها وترتَّب عليها حياةٌ رُوحِيَّةٌ خُلُقِيَّة فاضِلة ، لها المَقَامُ الأوّل في نفسِ المُسلم ، وما بَعْدها من مادَّة إنما يَكْسِبُ قيمته وأهمّيّته بقدر صلاحه لإعزاز هذه الرُّوحِ وتمكينها .

وفي المُجْتَمع الإسلامي الذي تَسُودُه العقيدةُ الصحيحةُ لا يمكن أن تُسَيْطِرَ المادّةُ على الأفكار والأعمال والأخلاق والتصرّفاتِ البَشَرية سيطرةً تشبه في قليل أو كثير ما يُعانِيه العالَمُ اليومَ من سيْطرة المادّة .

سليمان بن عبد الملك وأبو حازم

رُوى أن سليمان بنَ عبدِ المَلِك الخليفة الأُمَوِيَّ قَدِم المدينةَ للزيارة ، وبَعث إلى أبي حازم ، فلما دخلَ عليه قال : تكلمْ يا أبا حازم قال : نعم أتكلم يا أمير المؤمنين : لا تأخذْ الأشياءَ إلا من مَحِلِّهَا ، ولا تَضَعْها إلا في أهلها . قال : ومن يَقْوَى على ذلك ؟ قال من قَلَّدَه اللهُ من أمْرِ الرَّعِيَّة ما قلَّدك . قال : عِظْني يا أبا حازم . قال : اعلمْ أن هذا الأمرَ لم يَصِلْ إليك إلا بموت مَنْ كان قَبْلَكَ ، وهو خارجٌ من يديك بمِثْلِ ما سار إليك . قال : مالَكَ لا تَجِيءُ إلينا ؟ قال وما أَصْنَعُ بالمجيء إليك يا أمير المؤمنين ؟ إن أَدْنَيْتَني فَتَنْتَني ، وإن أقْصَيْتَني أَخْزَيْتَني ، وليس عِندك ما أرجُوك له ، ولا عِندي ما أخافُك عليه . قال : فارفَعْ إلينا حاجتك . قال أبو حازم : قد رفعتُها إلى مَنْ هو أقدرُ منك عليها ، فما أعطاني منها قَبلتُ ، وما مَنعني رَضِيتُ .

ذلك هو أَثَرُ الدعوة المحمّدية في أخلاق الرجال ، ترفعُها وتطهّرها .

وتاريخ الصَّحَابة والتابعين ، بل تاريخُ المسلمين في جميع الأقطار يَفيضُ بصفَحاتٍ من الأمْثلة العالية في الوَرَع وحُسْن المُعاملة والبُعد عن الفُحْش والإخلاص في النُّصْح لعباد الله .

التاجر الناصح الزاهد

يُرْوَى أنه كان عند يونس بن عُبَيد حُلَلٌ مختلفة الأثمان ، ضَرْبٌ قِيمةُ كلِّ حُلّةٍ منه أربَعُمائة ، وضَربٌ كلُّ حُلَّةٍ قيمتُها مائتان ، فمرّ إلى الصلاة وخلَّف ابنَ أخيه في الدُّكان ، فجاء أعرابيٌّ وطلب حُلَّةً بأربعمائة ، فعرَضَ عليه من حُللِ المائتين فاستحسنها ورَضيها واشتراها ثم مَضَى بها ، وهي على يديْه فاستقبله يونس فعرف حُلَّتَهُ . فقال للأعرابي بكم اشتريتَ ؟ فقال الاعرابي : بأربعمائة . فقال يونس : لا تساوي أكثر من مائتين ، فارجع حتى تردَّها . فقال الاعرابي : هذه تُساوي في بَلَدنا خَمْسَمائة وأنا أَرْتَضِيها . فقال له يونس : انصرف فإن النُّصْح في الدِّين خيرٌ من الدنيا بما فيها ، ثم ردَّه إلى الدُّكان ، وردَّ عليه مائتيْ درهَم وخاصم ابنَ أخيه في ذلك وقال له : أما اسْتَحْيَيْتَ ؟ ! أما اتَّقَيْتَ اللهَ ؟ ! تربحُ مثل الثَّمَن وتترُك النُّصْح للمسلمين ! . فقال ابن أخيه واللهِ ما أخذها إلا وهو راضٍ بها . قال يونس : فهلَّا رَضيتَ له بمَا تَرْضاه لنفسك ؟ !

ورُوى عن محمد ابن المُنْكَدِر أن غُلامه باع لأعرابيّ في غَيْبَتِه شُقّةً من الخَمْسِيَّات بعشْرة ، فلم يَزَلْ يطلبُ ذلك الأعرابيَّ طُولَ النهارِ حتى وَجَده . فقال له : إن الغلام قد غَلِط فباعَك ما يساوي

خمسةً بعشْرة . فقال يا هذا قد رَضِيتُ . فقال وإن رَضيتَ فإنَّا لا نَرْضَى لك إلَّا ما نَرْضاه لأنفُسِنا ، ورَدَّ عليه خَمسة .

تلك أخلاقُ من تمكّنتْ الدعوةُ المحمدية من نفسه ، فعَمِل بقوله صلى الله عليه وسلم « لا يُؤمن أحدُكم حتى يُحِبَ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه » .

فالمسلم لا يَخْدَعُ وَلاَ يُغشُّ ولا يَغْبُنُ .

قيل لعبد الرحمن بن عَوْف رضى الله عنه : ما سببُ غِناك ؟ قال : ثلاثٌ: ما رَدَدْتُ رِبْحًا قَطّ ، ولا طُلِبَ مني حَيَوانٌ فأخّرْتُ بَيْعه ، ولا بِعْتُ بِنَسِيئَة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رَحِم الله أمرأً سَهْلَ البَيْعِ ، سَهلَ الشِّراء ، سَهلَ القَضاء ، سَهل الاقْتضاء » .

وكذلك كان أثرُ الدعوة المحمّدية حاسما فيمن اهتدوا بهَدْيها ، وكان الدينُ المعاملةَ ، فلم يكن تَنَطُّعًا ولا تكلُّفًا ولا تظاهُرًا ، بل إيمانًا وعَمَلًا ظاهرا وباطِنا ، لإن الله أحقُّ أن يَخْشَاه الناسُ من خَشْية بعضهم بَعْضًا .

نظرة عمرية لحقيقة الصلاح

شَهِد عند عُمرَ رضى الله عنه ، شاهدٌ . فقال له عمر : ائْتني بمن يَعْرِفك . فأتاه برجل ، أثنى عليه خَيْرًا . فقال عُمر للرجل : أنت جارُه الأَدْنى الذي يَعرف مَدْخلَه ومَخْرجه ؟ قال : لا . قال كنتَ رفيقَه في السفر الذي يُسْتَدَلُّ به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا . قال : فعاملتَه بالدينارِ والدرهم الذي يستبين به وَرَعُ الرجل ؟

قال : لا . قال : أظنُّك رأيتَه قائما في المسجد يُهَمْهِمُ بالقرآن ، يخفِضُ رأسه تَارَةً ويرفعُها أخرى ؟ قال : نعم . فقال له عمر : اذهبْ فلستَ تعرِفه ! ثم قَال عمر للشاهد اذهبْ فأتِني بمن يعرِفك...

* * *

التكافل

أمة واحدة – جماعة المسلمين تقوم على التكافل – مسئولية الفرد ومسئولية الجماعة – إيقاظ ضمير الفرد وضمير الجماعة – حراسة الرأي العام – عزائم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – العلاج بالتشريع – مرد الإصلاح عامة إلى الإحسان – تكافل المهاجرين والأنصار – مثل من التكافل في قبائل الطوارق

أمة واحدة

يقول تعالى « إنَّ هذه أمتكم أمّةً واحدةً وأنا ربكم فاعْبدُون » ويقول صلى الله عليه وسلم « مَثَلُ المؤمنين في تَوَادِّهِم وتَراحُمِهم وتَعَاطُفِهم مَثَلُ الجسدِ إذا اشتكى منه عضوٌ تداعَى له سائرُ الجَسد بالسَّهَر والحُمَّى » .

جماعة المسلمين تقوم على التكافل

والفرْقُ بين الإسلام وأكثرِ الملل الأخرى أَنه لم يكتفِ بتنظيم العبادات وترْك ما وراءَ ذلك لقَيْصرٍ أو لغيره من الناس ، بل نظّم المعاملات والعَلاقات والحقوق والواجبات بين أفراد الأُسْرة ، وأفراد الأمّة ، وبين الأمم المختلفة ، وجعل هدَفه الأوّل المجتمعَ وصلاحَه ، حتى إن العبادات نفسَها قد تكون من وسائلِ هذا الإصلاح . والأمة الإسلاميّة في المجتمع البَشَري وَحْدةٌ مُوَثَّقة العُرَى ، متسانِدَة متكافِلة متعاوِنة تدفع ما يتطرَّق إليها من الفساد بوحَدَاتها ومجموعها .

هذا التكافل الاجتماعي واضح في جميع نواحي الدعوة المحمدية .

وأظننا لو قلبنا تاريخ البشر لا نجد حالةً ظَهَر فيها التكافُل والتعاون والتراحم بين جماعةٍ ما ظهورَه في جماعة المسلمين في العصور الأولى ، بل في كل عصر من العصور قبل أن تَلْتَاثَ العقول وتفسُد القلوب ويفتَتِن الناس بالحضارَة الأوربية الحديثة .

مسئولية الفرد والجماعة

إن مسئولية الفرد في المُجتمَع الإسلاميّ عن الجماعة ، ومسئوليةَ الجماعةِ عن الفرد ، مسئولية عُظْمىٰ هي أمانةُ الحياة ومَنَاطُ تكليفاتها . ولذلك كرِه الإسلام للفرد ان يتوحد ويعتزل ويشرد عن المجتمع وينكر الصلة بينه وبين غيره ، حتى لقد كره الاسلام ذلك في العبادة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إنّ هذا الدِّينَ مَتِين فأَوْغِلْ فيه برِفْق فإن المُنْبَتَّ لا أَرْضًا قَطَع ولا ظَهْرًا أَبْقىٰ » كما كَرِه للجماعة أن تهْمِل العناية بالفرد وأوجب عليها أن تصُونَ مَصالحه ، وتحترم حقوقه وحريته ، وتوفق بين المصالح المختلفة ، وفضل الصلاة في جماعة على صلاة الفرد وحده بسبع وعشرين درجة .

فالفرد في المجتمَع الإسلاميّ جزءٌ في كُلٍّ ، يكمّله ويكْتمِل به ، ويُعطيه ويأخذ منه ، ويَحْميه ويحتمي فيه .

إيقاظ ضمير الفرد وضمير الجماعة

هذه المسئوليّة الفَردية عن الجماعة ، وهذه المسئولية الجَماعيّة عن الفرد . هُمَا أُولىٰ وسائل الإسلام في الإصلاح والتكافل الاجتماعيّ والعدالة الاجتماعية وقد أكّد الإسلام معاني هاتين المسئوليتين في ضمير الفرد وضمير الجماعة ، ليضمن للمسلمين حياةَ الجسم الواحد الصحيح القَوِيّ السعيد

المنتج ، فقال للفرد . « أنت على ثِغْرَة من ثِغَرِ الإِسلام فلا يُؤْتَيَنَّ من قِبَلِك » الحديث .

«كُلُّكُم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رَعِيته ، والأمير رَاعٍ والرجلُ راعٍ على أهل بيته ، والمرأة راعيةٌ على بيت زوجها وَوَلَدِه ، فكلّكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته » الحديث .

« أُوحِيّ إليَّ أن تَواضَعُوا حتى لا يَفْخَر أحدٌ على أَحدٍ » الحديث .

« أرأيتَ الذي يُكَذِّبُ بالدّين . فذَلِك الذي يَدُعُّ اليتيم . ولا يَحُضُّ على طعام المسكين » الآية « ويُؤْثِرُون على أَنْفُسِهم ولَوْ كان بهم خَصَاصَة » .

وجعل في دعاء الفرد قولَه : « ولا تَجْعَلْ في قلوبنا غِلًّا للذِين آمَنُوا » إلى آخر النصوص التي توجّه قلب الفرد للجماعة وتُدْمِجُه فيها إدماجا تامًّا .

وقال للجماعة . « إنما المؤمنون إخْوَةٌ فأَصْلِحُوا بين أَخَوَيْكُم » الآية « المسلمون تَتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذِمَّتِهم أدناهم ، وهُمْ يَدٌ على مَنْ سِواهم » الحديث « انصُرْ أخاك ظالما أو مظلوما » فقال رجل : أَنْصُره إذا كان مظلوما ، أَرَأَيتَ إنْ كان ظالما كيف أَنصرُه ! ؟ قال : « تمنْعُه من الظلم ، فإن ذلك نصْرُه » الحديث .

وضرب مَثَلا رائعا لوصاية الجماعة على الفرد ومسئوليتها إزاء جناياته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنَّ قومًا رَكِبوا سفينة فاقْتَسَمُوا ، فصار لكلٍّ منهم موضع ، فنَقَر رجلٌ منهم مَوْضعه بفأس ، فقالوا له :

ما تصنع ! ؟ قال : هو مكاني أَصْنَعُ فيه ما أشاء . فإن أخَذُوا على يده نجا ونَجَوْا ، وإن تركُوه هَلَك وهَلَـكُوا » .

* * *

هذا التقابُل بين الفرد والجماعة في المسئوليّة العامّة عن المصالح هو أساس مقاومة الظلم الاجتماعي . وجميع وسائل الإصلاح لا تُنتِجُ نتائجها إذا لم تكنْ قبلها هذه الوسيلة .

وخلافة الإنسان عن الله في الأرض ووصايته على مقدَّرَاتِها ، لا تتحققان إلا بهذا التكافل الاجتماعي .

فعلى الذين يريدون مقاومة المساوىء الاجتماعية أن يُوقِظوا أولًا ضمير الفرد للجماعة وضميرَ الجماعة للفرد ، وأن يؤكّدوا معانيَ المسئوليَّتين السابقتين ، حتى يُحِسَّ الفرد إحساس البُنوّة والبرِّ بالجماعة ، وتُحِسَّ الجماعة إحساس الأمُومة والرِّعاية للفرد .

حراسة الرأي العام

ينشأ من إدراك المسئوليتين السابقتين والاضطلاع بهما ، ما يسمى حديثا « الرأي العام » ذلك الحارس اليقظ لِكيان الأمة إذا كان مبنيًّا على بصيرةٍ ووَحْدةٍ في القصد والهدَف ، وهو السلطة الرَّهيبة التي تقوّم الحكَّام والأفراد ، وبه تهتزّ الأمة وينتفض جسمها انتفاضةَ الغضب إذا أصابه سوء أو فساد ، كما يهتز جسم الفرد وينتفض لِمَا يُصيبه من مكروه ، وهو أمضى سلاحٍ للقضاء على السوءات الاجتماعية . يفعلُ ما لا تفعلُ القوانين . وهـو العين الساهرة على تنفيذ القوانين ،

واحترام القواعد الأدبية ، والسنن الصالحة التي أقرَّها المجتمع .

عزائم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ولذلك عُنِيَ الإسلام بتكوينه كرقيبٍ يهذِّب من شذوذ الفرد ، ويَحُدُّ من غُلُوِّ الجماعة ، فجعلَ الأمرَ بِالمعروف والنَّهْيَ عن المُنْكر من أكبر عزائم الإسلام وأعظم أسس الحياة الاجتماعية الصالحة .

قال القرآن « والمؤمنون والمؤمناتُ بعضُهم أولياءُ بعض ، يأمرون بالمعروف وينْهَوْنَ عن المنْكر » وقال « ولْتكُنْ منكم أمّةٌ يدْعُون إلى الخَيْر ، ويأمرُون بالمعروف ، وينهَوْنَ عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » وفي الحديث النبوي الشريف « لمّا وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتْهُم علماؤهم فلم يَنْتَهُوا ، فجالسُوهم في مجالسهم ووَاكلُوهُم وشَارَبُوهم ، فضرَبَ اللهُ قلوبَ بعضِهم ببعضٍ ، ولعنهم على لسانِ داودَ وعيسى بنِ مريم ؛ ذلك بمـا عَصَوْا وكانوا يَعتدُون » . ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مُتَّكِئًا ، وقال « لا والذي نفسي بيده ! حتى تأْطِرُوهم على الحق أَطْرًا » أي تَعطِفُوهم وتُميلوهم .

فكل ما هو من حق الله أو حق الجماعة ينبغي ألا يجامَل فيه إذا اعتدَى عليه مُعْتَدٍ كائنا من كان .

وأكبر آفاتنا الاجتماعية ناشيٌّ من أن الرأي العام الصالح لم يَتكَوَّن. فكثيرًا ما نرى أفرادًا يجاهرون بالاعتداء على حُرُمات الدِّين والدولة والحقوق العامّة ، ومع ذلك لا يحرّك الجمهور ساكنا للإنكار أو الاعتراض ، ذلك لأن الجماعة هنا تعيش في ذُهُولٍ عن نفسها وحقوقها

وواجباتها ؛ إذ هي جماعة مُوَزَّعَةٌ مشتَّتَةُ الأهواء غيرُ متجانسةِ التربية والتعليم ، التربية والثقافة فيها غير مطبوعتين بطابعٍ واحد ، قد صبَّتْ فيهما جداولُ مختلفة بَلْبَلَتْ أخلاق الأمة وتفكيرَها وإيمانها ، وجعلت الشيءَ الواحد حَسَنًا وقبيحا لديها في آن واحد : حسنًا لدَى جماعةٍ وقبيحًا لَدى أُخرى .

فتقدير المسئولية الفردية ومسئولية الجماعة ، وإيجاد الرأي العام الصالح لا يكون إلا بالدعوة والإقناع ، ومتى أدرك الكلّ الحقوقَ والواجبات إدراكًا صحيحا ظهر الرأي العامّ مُوَحَّدًا وقويا ، فيُقَوِّمُ المعوجَّ ويُصْلح الفاسد .

فالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة التي تصل إلى أعماق النفوس فتبذر بُذورَ الخير وحبَّ الحق وتَجْتَثُّ أصول الشرّ وأسبابَ الآفات ، هي الفاتحةُ التي لا بد منها .

ومفتاح كلّ أمر من أمور الإصلاح هو الوصول إلى النفس أولا . وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فقال « إنّ اللهَ لا يُغيِّرُ ما بقومٍ حتى يُغيِّرُوا ما بأنفسهم » .

وقد كان الإرشاد الاجتماعيّ المبنيّ على الإقناع أحدَ الأسلحة القويّة التي لجأ إليها الإسلام للإصلاح الاجتماعي ؛ فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يَقْرَعُ الآذانَ بالقرآن والحديث ليصل إلى القلوب والعقول ، حتى تعرِف الحقَّ وتدرك الرُّشْد ، وتقوم عليها الحجة ويسقُطَ

عُذرها أمام نفسها وأمام الله ؛ ولذلك سبق عهدُ الدعوة عهدَ التشريع والإلزام . ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس ثلاثَ عشْرةَ سنة ، حتى تسرّبتْ دعوته إلى قلوب القوم واشتغلت بها أنديتهم فتساءلوا عن نَبَئِها العظيم .

العلاج بالتشريع

فلما انتشرت الدعوة ، ووُجد الرأي العامّ لها في المدينة ، ابتدأت مرحلة التشريع والإلزام .

كذلك عالج الإسلام آفاتِ المجتمع العربيّ وقتئذ بالدعوة ثم بالتشريع . واليومَ ، على الذين يريدون علاجها أن يَسْلُكُوا هذه السبيل ، فيجب أن تُتَّخَذ الدعوة أساسا للإصلاح قبل التشريع ، ويجب أن يُلْحَظَ التدرّجُ في التشريع وتركُ الطَّفْرة ، حتى يتهيأ الجوّ الصالح وتستعد أعصاب الجماعة لقبول ما يلْقَى عليها من الأوامر والإلزامات .

وقصة تحريم الخمر في الإسلام بالدعوة أولا ، وبالتدرّج في التشريع ثانيا ، تبيّن لنا أسلوب الإسلام في التوصل إلى أغراضه خطوةً خطوةً .

* * *

مرد الإصلاح عامة إلى الإحسان

قلنا إن الإسلامَ اتّخذ الدعوة وسيلة للإصلاح الاجتماعيّ ، ثم لَجَأ إلى التشريع لحماية مقاصدِ هذه الدعوة . وقد جعل الحياةَ كلَّها ترمي إلى الإيمان والإحسان في العمل فهو يحدِّدُ للفرد والجماعة الحقوق والواجبات على أساس هذا الإحسان . فكلُّ تكليف وكل حق ينشأ

في المُجْتَمع الإسلاميّ إنما ينشأ بسبب واحد هو الإحسان للفرد أو للجماعة . وأيُّ عملٍ مِنْ شَأنِه أن يُبَاعِدَ من الخير أو يقرِّبَ من الشر ، سواءٌ أعاد هذا العمل على صاحبه أم على غيره ، فهو مُحَرَّم .

لذلك نجِدُ الإسلام قد تناولَ جميع نواحِي الحياة ، وحدَّدَ فيها المسئوليَّةَ لتحقيقِ قصدِه ، وهو الحياة السعيدة التي يريدها للناس في هذه الدنيا ، والتي جعلها وسيلتهم لحياة أرقي وأسعد في الآخرة .

فمثلا يقول نبيُّ الإسلام «كلكم راعٍ وكُلُّكم مسئول عن رَعِيَّتِه» إلى آخر الحديث السابق . فلم يُخْلِ أحدًا من مسئوليته عن الآخر ، فأميرُ المؤمنين مسئولٌ عن المؤمنين ، ووكلاؤه وأمناؤه مسئولون عما بين أيديهم من سُلْطته ، وربُّ الأسرة مسئول عن أسرته ، والمرأة مسئولة عن بيتها ، والفرد مسئول عن نفسه وجاره ، وكل فرد في المجتمع الإسلاميّ مسئولٌ عَن حُسْنِ قيامِ المجتمع كلِّه ؛ لأنه مكلف كما قلنا بالعمل والدعوة لصلاح هذا المجتمع ، وبالتواصِي بالحق والتعاون على البر والتّقْوىٰ .

وهو مكلف بكل أولئك لغرض واحد ، هو الإحسان قاعدة الإسلام الثانية بعد الإيمان. وليس أَنْجَعَ لمقاومة الشرّ وآفاتِ المجتمع من التربية الإسلامية التي جعلت هذه المسئولية تهبط من الأسمىٰ إلى الأدنىٰ ، وتصعد من الأدنىٰ إلى الأعلىٰ ، فهي التي تشدّ البِناء الإسلاميَّ وتُمْسِكُه من الخَلَل .

تكافل المهاجرين والأنصار

اتخذت الدعوة الإسلامية لتدعيم التضامن والتكافل بين المسلمين وسائل شتَّى ، حتى آخَى الرسولُ بين المهاجرين والأنصار في المدينة ذلك الإخاءَ الذي حل محل النَّسَب والقُرْبى .

ونشأت بالدعوة المحمدية جماعةٌ متضامنة موحدة هي مَصْدرُ السُّلْطات جميعًا ، رأيُها شَرْعٌ ، وقولُها فَصْلٌ ، وأصبحت هذه الجماعة تكفل أفرادَها كما أصبح أفرادها قُوًى حيَّةً مسئولة لا يَتِمُّ إيمانها ، ولا يكْمُلُ دينها إلا بالإخلاص للجماعة والتفاني فيها ، والفَنَاءِ في سبيلها . «ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُوا في سبيل الله أموَاتاً بل أَحْياءٌ عند ربهم يُرْزَقُون» .

وقد شَهِدتُ في بعض الجماعات الإسلامية التي احتفظت بتقاليد المسلمين تضامنًا وتكافلًا لا نظير له ، لا يتمنى المصلحُ الاجتماعيُّ أحسن منه لأية جماعة بشرية .

مثل من التكافل في قبائل الطوارق

رأيت بعض قبائل «الطوارق» في شمال إفريقية يحْيَوْنَ حياةَ هذا التكافل السعيد ، فليس فيهم من يعيش لنفسه ، وإنما لجماعته . وأعظم ما يَفْخَرُ به ويعتزُّ ، هو ما يصنع لهذه الجماعة . وأول ما لفت نظري لحالتهم هذه أن رجلًا من أهل الحَضَر هاجر من الفرنسيين ونزل بينهم في فَزَّان ، فجاورهم وعاش بفضلهم ، ثم خرج يطلب الرزق ويريد أن يردَّ الجميل ، وترك أسرته في جوار هذه الجماعة الإسلامية . غير أن النَّحْس لازمه ولم يستطع كَسْبا ، فجاءنا في «مصراته» يستمدّنا فأعنّاه ليعودَ إلى أهله ، ولكنه عاد إليّ بعد نحو سنة مرة أخرى فظننت أنه

رجع من أهله، فقال لا، وإنما الآن أستطيع الرجوع إلى أهلي، فقلت وكيف ذلك؟ قال: بعد لقائنا الأخير اتَّجَرْتُ بما حَصَلْتُ عليه وأصبح الآن في يدي ما أعود به إلى جماعة الطوارق. فقلت: إلى أولادك أم إلى جماعة الطوارق؟ قال: إلى الطوارق أولًا، فهم آوَوْا أولادي في غَيْبَتي، وأنا سأكفل أولاد من أجده غائبًا منهم، وأُقسِّم ما أَعْطَى اللهُ بين أولادي وأولاد جيراني.

فقلت: هل تعيش جماعتكُم كلُّها كما تعيش أنت مع جيرانك؟

قال: كلُّنا في الخير والشرّ سواءٌ، والفضلُ لصاحب الفضل، والواحد من جماعتنا يستحيي أن يعود إلى النَّجع خاليًا، لا حياءً من أهل بيته، بل حياءً من جيرانه الذين ينتظرون عودته كأهْل بيته سواءً بسواء.

ليست جماعةُ الطوارق هذه أو أضرابُها من أهل البادية وسكان القَفْر مختصة بهذه الروح الجماعيّة ولا هي من مستلزَمات عَصَبيّتِها، وإنما هي الروح الإسلاميّة أكثر ظهورًا في هؤلاء الذين لا يزالون بمعْزِلٍ مِن الحياة الحديثة المادية. وقد وجدت هذه الروح في الدّسَاكِر والقُرى الإسلامية التي لا تزال مطبوعة بالطابع الإسلاميّ، سواء أكان أهلها عَرَبًا أم عَجَمًا، بيضًا أم سُودًا، في المشرق أم في المغرب. فقد رايتُ جماعة المسلمين في كثير منها لا يزالون يَحْيَوْن حياة الخير والتضامن والتكافل والتعاون على البر.

لا يزالون أقربَ إلى المجتمع الصالح كما أراده صاحب الدعوة من

عشرات الملايين الذين فُتِنُوا بالحضارة الغربية المادية، فهم يعيشون لأنفسهم ولو انقرَضَتْ جماعتهمُ، ويُؤْثِرُون شهواتِهم على البرّ بأهلهم، فضلًا عن جيرانهم.

البِـرّ

كلمة جامعة – نظرة الإسلام إلى مشكلة الفقر – الفقر لعلة والفقر لفقد الوسيلة – العمل هو الأصل – مطاردة الترف والبؤس – القانون والضمير – اشتراكية أبي ذر – محاربة الترف والاكتناز والربا – سلطة واسعة لولي الأمر – المواساة بشعور المساواة – المساواة عقيدة وشعور ونظام – الأشكال والمظاهر ليست غاية في الحكم – حق الفقير حق الله – البرّ بغير المسلمين – فلننظم البر على طريقة الإسلام

البِرُّ رُكْنٌ من أركان الدعوة ، وسبيلٌ واضحة للإصلاح الاجتماعي. كلمة جامعة

وقد وردت كلمة البِرِّ في القرآن على معانٍ شتَّى تحدِّدها القرينة ، فهو الصدق والخير والإحسان على أوسع معانيه ، وطاعة الله.

ونقصِد بالبِرِّ في هذا الفصل معنى الإحسان والمُوَاساة للفقراء والمساكين ومن تخلَّف من إخواننا في المجتمع عن السَّيْر معنا إلى حياة مَرْضِيّة مستغنِية ، لِعجزٍ به أو يُتْمٍ أو مرض أو مُصَابٍ أو جهل ، أو غيرِ ذلك مما يَعْرِض من أسباب الضعف والفقر.

وقد سبقت الدعوة المحمّدية جميع الدعَوات الصالحة في تحديد البر وتنظيمه ، وفي تعيين واجبات الأفراد والأمة والدولة في هذا الشأن. وهي من هذه الناحية ذاتُ نظامٍ اجتماعيٍّ شامل يستحق من أهل الرأي والنظر في جميع الملل عِنايةً ودرْسًا.

وهذه الحرب التي قامت بين النُظُم الفاشيّة والشُّيوعيّة والديمقراطية، داعيةٌ إلى المسارَعَة في بيان القواعد الإسلامية، والسنن المحمديّة، لعلَّ في ذلك هُدًى ومَخْرجًا مما اختلف الناس فيه.

وقد بينا كيف حارب الإسلامُ الفساد الاجتماعيَّ بالدعوة والرأي العامّ، وكيف يجعل من التكافُل والروح الجَماعيّة أساسًا دِينِيًّا لا تستقيم السبيل إلى الله إلا به، ولا يَتِمُّ إيمان الفرد، ولا تؤدِّي الأمةُ واجبها، والدولة أمانتها إلا بالعمل المتواصل على تمكينه في النفوس، وجعلهِ نظامًا من نُظُم الحياة.

نظرة الاسلام إلى مشكلة الفقر

ولْنَنظُر الآن كيف عالج الإسلام مشكلةَ الفقر وهي أعظم آفاتِ المجتمع البشريّ.

لم يجعل الإسلام الفقر سببًا لازدراءِ صاحبه، بل جعل أقربَ الناس إلى الله أتقاهم؛ فالفقير على حاجته قد يكون في نظر الإسلام أعلىٰ من أيّ رجلٍ آخر مَهما كان مالُه وجاهُه، وبهذا ابتدأ المواساةَ الأولىٰ للفقير.

ثم نظر في حال الفقير؛ فإما أن يكون هذا الفقير عاجِزًا عن الكَسْب لعِلَّةٍ به، وإمَّا أن يكون عاجزًا عن الكسب لفقد الوسيلة إلى العمل.

الفقر لعلة والفقر لفقد الوسيلة

فأما الذي يَعْجز لعِلَّةٍ لا علاج لها فقد جعل مواساتَه حقًّا على المجتمع لا تبرُّعًا وتطَوُّعًا. قال الله تعالى «والذين في أموالِهم حَقٌّ معلومٌ

للسائِل والمَحْروم» فصان بذلك كرامتَه الإنسانيّة.

وأما الذي يَعْجِز لفقد الوسيلة إلى العمل فقد أوجب على الدولة إيجادَ الوسيلةِ لتَكَسُّبِه. وقد قَبَّحَ الإسلام السؤالَ ودعا المسلمَ للترفُّع عنه؛ فاليدُ العُليا خير من اليدِ السُّفلى. وقد أعطى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سائلًا دِرْهمًا وأمره أن يشتريَ به فأسًا وحَبْلًا ويحطب، ولا يَتعرض لذُلِّ السؤال.

العمل هو الأصل

والأصل في الإسلام هو العملُ والتكسُّب، وقد حضَّ عليه بجميع الوسائل، حتى لقد فضّله على الانقطاع لعبادةِ الله.

«إن الذين آمنُوا وعمِلُوا الصالحاتِ وأقاموا الصلاةَ وآتَوْا الزّكاةَ لهُم أجرُهُم عندَ ربِّهم»

«إن الذين آمنُوا وعمِلوا الصالحاتِ إنا لا نُضيعُ أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عمَلًا»

«فالذين آمَنُوا وعمِلوا الصّالحاتِ لهُم مغْفِرةٌ ورزْقٌ كَريم»

«فأمَّا الذين آمَنُوا وعَمِلوا الصّالحاتِ فيُوفِّيهم أجُورَهُمْ»

«إن الذين آمنُوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ أولئك هُم خَيْرُ البَرِيَّة»

«مَن عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وهو مؤمِنٌ فلنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبة»

«وامّا من آمَنَ وعمِلَ صَالِحًا فلهُ جَزَاءً الحُسْنَى»

والعمل الصالح هو العمل الذي يتحقق به صالح الفرد والجماعة ويعود بالخير عليهما معا. وللاسلام فلسفته الانسانية ومبادئه المتكاملة في العمل. فيعتبر العمل الذي يتحقق فيه الخير والمصلحة لفاعله وللغير

معا أفضل من العمل الذي يتحقق فيه الخير والمصلحة لفاعله فقط .

ونلاحظ أن العمل الصالح قد قرن في هذه الآيات بالايمان تأكيدا على أنه يليه في درجته . وقد جاء في القرآن الكريم ما يقرب من ثمانين آية يقترن فيها العمل الصالح بالايمان . وفي الآية الأولى التي ذكرناها نجد العمل الصالح قد جاء قبل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

والحديث يطول في الاستشهاد بما جاء في القرآن الكريم وأحاديث الرسول ومواقفه صلى الله عليه وسلم بالنسبة للعمل والحض عليه . فنجد في القرآن الكريم أيضا :

« إنّا لا نُضيعُ أجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا »

« إنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُم مِنْ ذَكَرٍ أوْ أُنْثى »

« وقل اعْمَلوا ، فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكم وَرَسولُه والمؤمنون »

« فاذا قُضِيَتِ الصّلاةُ فانتشروا في الأرضِ وابتغوا مِنْ فَضْلِ الله »

ونجد من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم :

« ما أكَلَ أَحدٌ طعامًا خيْرًا من أن يأكلَ من عملِ يدهِ »

« من أمْسَى كالاًّ من عمل يدهِ أمْسَى مغفوراً له »

« إذا قامت الساعةُ وفي يَدِ أَحدِكم فسيلةٌ فاستطاع أن يَغرسَها قبلَ أن تقوم الساعةُ فليغرسْها »

« ما من مسلمٍ يغرِسُ غرْسًا أو يزرعُ زرْعًا فيأكلُ منه إنسانٌ أو طيرٌ أو بهيمةٌ إلا كان لهُ به صدقة »

وكما أمر الاسلام الفرد بالعمل والتكسّب وحضّه عليه، فانه كذلك ألزم الدولة أن تعين على إيجاد العمل لمن لا يجده وأن تحمي من يعجز عنه. ولفقهاء المسلمين في هذا الأمر بحوث وآراء مستفيضة.

مطاردة الترف والبؤس

وقد أراد الإسلام أن يجعل مستويَ المعيشة متناسقًا ومتقاربًا بين أتباعه، فحارب الترف في أعلى المجتمع، وطارد البؤس في أسفله، واتخذ لذلك وسيلتين: وسيلةَ الضمير وهي أقواهما، ووسيلةَ القانون؛ فجعل الحياة السعيدة الخالدة لا تُنال إلا بالإنفاق على المستحقين من الأهل والأقربين والمساكين، ولا ينَال متاعَها المسرفون الذين جعلوا شهواتِهم في هذه الحياة أهدافهم.

القانون والضمير

جعل ضميرَ المسلم لا يستريح إذا طَعِم ولَبِس وتمتّع، وجارُه ومَنْ حَوْله قد عجزوا عن القُوت، وحضَّه حضًّا قويًّا على البذل والقناعة والحدِّ من شهواته في سبيل إغاثة المَلْهوفِين والمحتاجين، حتى لقد أمر أن يُطْعِم السيدُ الخادمَ مما يَطْعَم، ويَكْسُوَه مما يَكْتسِي.

اشتراكية أبي ذر

قال المعرور بنُ سُوَيْد: «رأيت أبا ذَرٍّ رضى الله عنه عليه حُلَّةٌ وعلى غلامه مِثْلُها، فسألتُه عن ذلك فقال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «هم إخوانُكم وخَوَلُكم، جعلهم اللهُ تحت أيدِيكم، فمن كان أخوه تحتَ يدِه فلْيُطْعِمْه مما يأكل ولْيُلْبِسْه مما يَلْبَس، ولا تكلِّفوهم من العملِ ما يَغْلِبُهم فإن كلَّفتموهم فأعِينُوهم عليه».

ولم يكتفِ الإسلام بإيقاظ الضمير لهذا، بل جعل للدولة أن

تقتضي من فَضْلة مالِ الفرد مقاديرَ لا يستهان بها لتكفُل بوسائلها هي أيضًا حاجاتِ الفقراء والمساكين.

محاربة الترف والاكتناز والربا

وفي الحقيقة حين يحارب الإسلامُ الترف والاكتناز والرّبا، ويقول: «والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفِضة ولا يُنفقونها في سبيل الله فبَشِّرْهم بعذاب أليم. يومَ يُحْمَى عليها في نارِ جهنم فتُكْوَى بها جِبَاهُهم وجُنُوبُهم وظُهُورهم. هذا ما كَنَزْتُم لأنفسكم فذُوقُوا ما كنتم تَكْنِزون» وحين يقول: «الذين يأكلون الرِّبا لا يقومون إلّا كما يقومُ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشيطانُ مِنَ المَسِّ» وحين يقول: «يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا ويُرْبِي الصَّدَقَاتِ» وحين يقتضي الزكاةَ على الأموال المكنوزة ويُحَرِّم الربا، إنما يريد بذلك كلِّه أن يرفع مستَوَى الطبقات الفقيرة، ويَخْفِضَ من مستوى المُتْرَفين؛ ليجعل حياة الجميع سعيدةً متناسِقة.

فتحريم التَّرفِ يوجّه الأموال إلى إنتاجٍ أكثرَ فائدةً للجميع، وتحريم كنزِها يوجِب تداوُلهَا، وتداولُها من غير رِبا يؤدي إلى المشاركة فيها. وإذا لم يجد الناس في الترف لذَّتَهم وجَاهَهم، وجدوهما في الإحسان والبر. وإذا لم يجدوا في الكنز ضمانًا لهم، وجدوه فى ضمانة المجتمع الإسلامي المتكافل الذي لم يُهْمِلْ أحدًا ولم يحتقِرْ أحدًا، وإذا لم يجدوه في الرِّبا وجدوه في لذة الكَسْب والمشاركة مع إخوانهم الذين يعملون في أموالهم.

* * *

هذا الإِسلام الذي حارب آفة الفقر بإيقاظ الضمير وبالتشريع ، جعل العمل أُسَّ المقاصِد . فأمر بالسعي وفضَّله على الانقطاع للعبادة ، وأمر بالجِدِّ والإِتقان . وذلك لا شك أفضلُ الوسائل لمحاربة الفقر . ولم يجعل جزاء العمل مقصورًا على هذه الحياة ، بل وعد به أيضا في الآخرة .

والإسلام يدفع الفقر بالدعوة إلى الأخلاق الفاضلة ، ويقاوم بالحُجَّة والحدود الشرورَ والرذائل . فلو أن وسائله استُخْدِمت في رَدْعِ أرباب الشرور والآثام ، وفي الدعوة للفضيلة والخير ، لتماسكت الأُسْرة الإِسلاميّة وأدرك كل عضو فيها واجبه ، وكَبَح من نَزَعاته ، وكان ذلك من أَمْضَى الأسلحة في مقاومة الفقر ؛ إذ أن أعظم أسباب الفقر هي الإِسراف في الشهوات ، وارتكاب الآثام كتعاطي الخمور والمخدِّرات ، وإهمال صحة البدن والأوامرِ الدينية التي من شأنها تقويمُ الأرواح والأبدان . ولو اتخذنا وسائل الإِسلام في التراحم والتعاطف ، ومبادئَه في الأُخُوّة والتعاون ، وأيقظنا ضمير الأمّة الديني في هذه الناحية ، لَطَعَنَّا الفقر طعنةً تُعْجِزُه عن أن يَدْخُل أكثر البيوت .

ولو قامت الدولة بواجبها في كفالة المتخلّفين من إخواننا لِمَا يُصِيبُهم في أنفسهم أو أبدانهم ، أو لِمَا يصيبُهم من انقطاع السُّبُل بهم مع رغبتهم في العمل ، وذلك بأن تكون سياستها قائمةً على أساس التكافُل الذي جاء به الإسلام في قول رسوله : « المؤمن للمؤمن كالبُنيان يَشُدُّ بعضُه بَعْضًا » فوزّعَتْ الصدَقَةَ على مَنْ لا سبيلَ له غيرُ الصدقة ، ووَزَّعَتْ

العملَ على الناس بقصد الخير العام ، ولو على سبيل الإجبار على عمل معيّن للقادر عليه ، لقاتلت هي أيضًا الفقر بوسائِلها الفعّالة .

سلطات واسعة لولي الأمر

وقد جعل الإسلام في هذا سُلْطاتٍ واسعةً لولِيّ الأمر ، فله في سبيل الإصلاح العامّ أن يُحْدِثَ أَقْضِيَةً بقَدْرِ ما يَحْدُثُ من المشكلات ، وله أن يكيِّفَ الأحوال لتسير وَفْقَ الغرضِ الأساسيِّ للإسلام ، وهو الإحسان .

المساواة عقيدة وخلق ونظام

وقد قرر الإسلام في وضوح وعزمٍ مبدأَ المساواة ، وهو أعظمُ المبادِيءُ في مقاومة الشرور الاجتماعية وأَخصُّها الفقر ، وجعل هذه المساواة مستقِرَّةً في ضمير المسلم ، ومالكةً زِمام تصرفاته في العبادة والمعاملة والأدب .

ومن فضل الدعوة المحمدية على البشر أنها تُبَغِّض في الاستعلاء والترفُّع على الناس ، حتى لَيكادُ المسلم أن يَفِرَّ من مُجرَّدِ الخاطرِ الذي يخطُر بذِهنه بأنه أفضلُ من غيره . والمسلم الصادق لا يضمِرُ في نفسه أنه خير من خادِمِه مع سَيْطرته عليه .

والله تعالى يشتدُّ على الرسول نفسه ويعاتبهُ بالقرآن ، لأنه تصدّى لقوم من رؤوس العرب يرجو من وراء إيمانهم إيمان أقوام يتبعونهم ، وتلهّى بهم عن رجل فقير ضعيف جاء راغبا في الإيمان فقال :

« عَبَسَ وتولَّىٰٓ أن جاءه الأعمى ، وما يُدْريك لعلَّهُ يَزَّكَّى ، أو يذَّكَّر فتنفعَه الذكرى . أمَّا مَنْ استغنى فأنت له تَصَدَّى . وما عليك

ألّا يَزَّكّى . وأمَّا مَنْ جاءك يَسْعَى . وهو يَخْشَى فأنت عنه تَلَهّى » .

ولست تجد في أي تشريع احتفالا بالفقراء واعتناء بشأنهم مثل ما جاءت به الدعوة المحمدية،إذ تَحُضُّ المسلمين على رياضة أنفسهم على احترام الغَيْر وتقديره : « يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قَوْمٍ عسى أن يكونُوا خَيْرًا منهم ، ولا نساءٌ من نِساءٍ ، عسى أن يَكُنَّ خَيْرًا منهن ، ولا تَلْمِزُوا أنْفُسَكم ، ولا تَنَابَزُوا بالأَلْقاب ، بئس الاسمُ الفسوقُ بَعْدَ الإيمان » .

ومتى رَسَخ هذا المعنى في أذهان الملوك والأُمَراء والحُكَّامِ والعامَّة والفقراء والأغنياءِ والمّلاك والعمّال كما أرادته الدعوة المحمدية ، استحالت الفُرْقةُ الاجتماعية وما يثيرها من حسد وبغض ، وما يترتب عليها من خلافٍ وشرّ ثم قتالٍ وحربٍ ، وما يكونُ من تَسَلُّطِ الأقوياء على المستضعفين ، أو ما يكونُ من ظهورِ المُسْتَضْعفين واستذلالهم لمن كانوا أقوياء .

نعم قد يقال : إن مبدأ المساواة شائعٌ الآن في أوربا وأمريكا ، ومؤيدٌ بشرائع وقوانين ، ولكنه لم يمنع من القتال والحرب والفساد . وهو قول ظاهِرُه فيه الحق ، وباطِنُه من قِبَله الباطل ؛ فإن الأنانيّة والماديّة لم تبلُغا في عهد مِن العهود ما بلغتْه في عهد المساواة القائمة على القوانين الحديثة في الغرب ، ولم تصل القطيعةُ والأَثَرة حتى في العهد الإقطاعيّ إلى ما وصلت إليه اليومَ ، ولم تسيطر روحُ الشرّ بما

فيها من غِلٍّ وحسدٍ سيطرتها في السنوات المائة الأخيرة ، مع شيوع حق المساواة في التصويت لانتخاب الهيئات المحلية والعامَّة ، ولم ينتظم الناس في مجموعات الطوائف والحِرَف لينازِعوا غيرَهم من الطوائف كما انتظموا في القرن الحالي ، والكل يتحدث بحقّ المساواة .

والسبب في ذلك ، أن التسليم بحقّ المساواة في الدعوة المحمّدية مقرون بالعقيدة والإيمان ، فهو في صميم قلب المؤمن ، وهو المسيطر على ضميره ، فلا خِداع فيه ولا نِفاق .

« إن المنافِقِين في الدَّرْكِ الأسفل من النار ! » .

هذا فضلا عن أن النظام الاجتماعيّ الإسلاميّ ليس قائما على تنازُع السُّلطات ، ولا على استقرار الأمر كنتيجة لهذا النزاع ، ولا على توازُن القُوى حتى يَفْسُدَ باختلال هذا التوازن ، وإنما يقوم على التكافل بين أهل المِلّة ، وعلى الرُّوح الجَمَاعِيّة وعلى المقصد الأسمى للوجود ، وهو الكمال الرُّوحيُّ للفرد والأمّة ، وعلى أن جميع الأعمالِ عِمادُها النية وقَصْدُها رضاءُ الله .

فالنظام الاجتماعي في الدعوة المُحَمّديّة يجعلُ كفالَة الحقِّ في ضمير الفرد وضمير الجماعة وسلطة الدولة ، ويلعن الجماعةَ كلَّها إذا ضاع الحق بينها .

ولا يُخْلِي أحدًا فيها من مسئولية الأمر بالمعروف والنَّهْيِ عن المُنْكر .

والأشكال والمظاهِرُ في النظام المحمدي لا قيمة لها إلا بقَدر ما

الأشكال والمظاهر ليست غاية في الحكم

تُصْلِحُ من العمل وتؤكِّد من حسن النيّة في ذلك العمل .

فلم يُعْنَ المسلمون بطرائقِ الحُكم ولا بكَوْنِه مَلَكِيًّا أو جمهوريا أو أوتوقراطِيًّا أو ديمقراطيا ، وإنما عُنُوا كلَّ العناية بتحقيق الغاية من الحكم ، وهي التكافل الاجتماعي ، وأن يكون الناس سواسِية ، لا فضل لأحدهم ولا لأجناسهم إلا بالتُّقَى والعمل الصالح ، ولا خير في أحدهم ولا خير فيهم جميعا إن لم تكن الغاية من حياتهم هي الخير العام .

وكلُّ نظام يحقق الغايةَ من الدعوة المحمّدية ، وهي مصلحة الكافّةِ وضمان حقوق الأفراد ، فهو نظام إسلاميٌّ .

فإذا كانت المساواة على النظام الغربيّ لا تَحُدُّ من الأَثَرة والمادّية والشهوات والهوى ، ولا تمنع نزاعَ الطبَقات ، ولا حربَ الأجناس ، فإنها صورةٌ لا حقيقة ؛ والإسلام يريدُ الحقائق لا الصّور « إن الله لا ينظر إلى صُوَرِكم ولكنْ ينظرُ إلى قلوبكم » .

* * *

ظاهرٌ إذًا أن مبدأ المساواة بالمعنى الإسلاميّ هو من أكبرِ دِعاماتِ البر وأفتَكِ الأسلحة بآفة الفقر .

وقد دعا الإسلام إلى البِرّ بكل وسيلة ، ودعا إليه بالترغيب والترهيب ، ودعا إليه بقوة القانون والدولة ، فقال تعالى : « يَمْحَقُ الله الرِّبَا ويُرْبِي الصَّدَقات » وقال : « لن تَنَالُوا البِرَّ حتى تُنفِقوا مما تُحِبُّون » وقال : « أرأيتَ الذي يُكَذِّبُ بالدِّين . فَذلك الذي يَدُعُّ اليتيم ، ولا يَحُضُّ

على طعامِ المِسكَين » وقال : « كلا بل لا تُكرِمون اليتيم ولا تَحَاضُّون على طعامِ المسكين » .

حق الفقير حق الله

وكتاب الله وحياةُ رسوله يفيضان بفضل الإنفاق في سبيل الله ، واتخاذ الدنيا مَطِيَّةً للآخرة . ولم يكتف صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم بأن تكون دعوته مُوَجَّهةً بكل قوتها للبر بالفقراء والمساكين والضعفاء والمصابين والمُعْوزين ، بل جعل البِرَّ بهم حقا مفروضا لا سبيل إلى المُمَاطَلَةِ فيه ؛ حتى إن العرب لما ارتدَّتْ عن دفع الزكاة عَقِبَ وفاة الرسول ، ونُصِحَ الخليفةُ الأوّل بأن يداريهم ، وقد تفاقَمَ الشرُّ ، قال رضي الله عنه : « والله لو مَنَعُوني عِقَالَ بَعيرٍ كانوا يؤدُّونَه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتُهْم عليه » . أي أنه يوجه كل قوى الدولة لقتال قوم يَمْنَعُونَ حقَّ الفقيرِ فيما قِيمَتُه قيمةُ حبلٍ يُعْقَلُ به بَعير !

فحقوق الفقراء في الدولة الإسلامية مَصُونة ، وليس لأحدٍ أن يَمُنَّ بها ، فهي حقُّ الله في ماله وكَسْبِه ومِلْكه . وقد بينت الشريعة الزكاة وأنواعَها وكَيْفيّة أدائِها ، كما بينت مستحقّيها وما لهم وما عليهم بتفصيل دقيق .

وتاريخ المسلمين في كل أوطانهم يفيض بالبر والعطف والرحمة بالبؤساء والغُرَباء ، وما الكَرَمُ الذي كان به فَخْرُ البيوت والأُسَر والشعوب إلا أثرٌ من آثار روح البر والإحسان الإسلامي .

البر بغير المسلمين

ولم يكن البر في الدعوة المحمدية خاصًّا بأهل الجِنس أو الدِّين ،

ولكنه كان عامًّا للمساكين من البَشر، فما منع اختلافٌ في الدين دُون البر قال تعالى: «لاينهاكم اللهُ عن الذين لم يُقاتلُوكم في الدين ولم يُخرِجُوكم من دِيارِكم أن تَبَرُّوهْم وتُقْسِطوا إليهم، إن اللهَ يحبُّ المُقسطين»، «إنما الصّدقات للفقراءِ والمساكينِ والعاملين عليها والمؤَلَّفَةِ قلوبُهم وفي الرِّقابِ والغارمين وفي سبيل الله وابنِ السبيل».

فلنتنظم البر على أسس الإسلام

وتنظيم البرِّ في العصر الحاضر يجب أن يقوم على نفس الأُسس والوسائل التي جاءت بها الدعوة المحمدية، لأنها أفعلُ وأَدْومُ. ولكن يَجبُ كذلك أن نتصرَّف ونجتَهد كي نحقق المَقْصد والغاية، وأن ننظر في عصرنا، وموارِدِ الثَّرْوَةِ فيه، ومصادرِ الغنى، وحالات الناس لنكفل الخير للجماعة ونُرْضِيَ الله سبحانه وتعالى، حتى يعودَ للظهور بيننا من كانوا يأبَوْن أن يتعرَّضوا لوجوب أداء الزكاة عليهم بإنفاق أموالهم كلِّها، حتى قيل لبعضهم: كم يجبُ من الزكاة في مائتي درهم؟ فقال: أما على العوامِّ بحكم الشرع فخمسةُ دراهم، وأمّا نحن فيجب علينا بذلُ الجميع.

لهذا المعنى تصدق أبو بكر رضى الله عنه بجميع ماله، وعمرُ رضى الله عنه بشِطْر ماله.

ولا عجب فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

ورُوحُ الدعوة المحمَّدية واضحةٌ في أن الزكاةَ وَحْدَها لا تُبْرِئُ أموالَ المسلمين من حقوق المحتاجين فيها، فما دام هناك محلٌّ للبرِّ والصَّدقة

فهي واجبةٌ ، وحق المسلم على المسلم لا ينتهي بأداء الزكاة.

يجب إذًا أن نستلهم من شريعة الإسلام الهُدَى ، وأن نستوحي من رُوحِ الدَّعْوة المحمّديّة نظامًا للبِرِّ تقوم عليه الدَّوْلة ، لتوازنِ بين الثَّروَات والحاجات ، وتقيم التكافل الاجتماعي ، ونقضي على حرب الطبقات «فمن يعمل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيرًا يَرَهُ. ومن يَعْمَلْ مِثقال ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهْ».

* * *

العدالة والحرية

صور جاهلية – العالم بين الفرس والرومان – تحطيم القيود وإزالة الفوارق – مبادئ في السياسة وعقائد في الدين – خليفة يبيع في الأسواق – خليفة يلبس المرقع – فجر العدالة الدولية – ميزان الخليقة – ميزان الشريعة – كفالة الحريات جميعها – الدفاع عن الحريات

نتحدث في هذا الفصل عن مبدأين أساسيين لا بد منهما لصلاح حال المجتمع وتوجيه الحياة في طريق الخير العام، وهما: الحرية والعدالة.

صور جاهلية

وكان الناس قبل الإسلام يعيشون إمّا على نظام القبيلة، كالحال في بلاد العرب، وإما رعايا لدول أو أمراء، كما كان الأمر حول شبه الجزيرة العربية في مُلك الرومان والفرس والأحباش. وقد كان لكل أرض حالٌ ونظام حسبَ ظروفها لا تنظّمه مبادئ جامعة، وأصول ثابتة مسلم بها. ففي البلاد العربية تسُودُ مبادئ القوة، وتتجلّى الأَثَرة والأنانيّة، ويعتز الناس بالفَتْك والسلب، ويفتخر كثير منهم باستباحة حقوق الغير والتسلط على ما في أيديهم، ينكرون الإخاء البشري والقومي والجنسي، ويرفضون المساواة خارجَ القبيلة مع المَوَالي وغيرهم من العرب، ويَسخَرُون من العدل الذي لا يقوم على ما تبيحه القوة، ويحبون الحرية المطلقة ويتعشقونها، بل يموتون موتًا كريمًا في سبيل التمتع بها، على أنها حرية خاصة بهم لا يمتّعون أحدًا بها.

العالم بين الفرس والرومان

وكان الفرس والرومان البيزنطيون جيرانُ العرب ، يحقِّرون العرب ، ولا يعترفون بحق لهم في مساواتهم أو عدلهم. وكان مُلْك الفرس يقوم على رجل له كل الحقوق هو كسرى ، وعلى جماعة لهم من هذه الحقوق ما يمنع كسرى أو يُعطى . إذ يُسخَّرُ له ما في الأرض جميعًا ليكون مَلِكَ الناس جميعًا ، وحوله أعوانٌ وأمراءُ وجند يَسْنِدون العرش ، ويحظَوْن ببعض المتاع. إلّا أنهم عُرْضة في كل لحظة لإباحة أرواحهم وأموالهم وابنائهم. نعم كانت الإمبراطورية الفارسية ثابتة القواعد ، دائمة الملك ، فقد عاش حكم آل ساسان أربعة قرون ، ولكنه عاش على نظام عسكري ، وحكم عُرْفي ، لا على مبادئ العدل والحرية والمساواة والإخاء. وكذلك عاشت «بيزنطة» ألف سنة ولم تكن عقليتها بأحسن حالًا عن عقلية «المدائن» ، فكان قيصر إمبراطور المغرب ، بل على دعواه إمبراطور العالم ، وكان كسرى خصيمه في المشرق. وما كان لعِبادة النار أثرٌ يذكر في هذه ، ولا للمسيحية أثر في الأخرى. بل كانت مسيحية بيزنطة مما لا يشرِّف المسيحيين ، بعيدة كل البعد عما جاء به سيدنا عيسى عليه السلام من إخاء وسِلْم ورحمة. وبلغ الغرور بسلاطين بيزنطة أنهم كانوا لا يعترفون لدولة بالوجود المستقل ، فسيادتهم عالمية في نظرهم ، والناس إما مُعْتَرِف بذلك ، وإما جاهل لا يدري أنه في نطاق هذه السيادة.

ومن أظرف ما يُرْوَى أن سفير شارلمان في القرن التاسع كان في

حضرة الإمبراطور في بيزنطة ، فذكر له أن سيده شارلمان مشغول بحرب السكسون وأن هؤلاء السكسون برابرة دائمو الشغب. فقاطعه الإمبراطور قائلًا : مَنْ هؤلاء الهَمَج الذين لم أسمع باسمهم ، ولا قيمة لهم ليتعبوا سيدَك كل هذا التعب؟ ! إني قد وهبتك إياهم ، وبذلك أرحت سيدك منهم. فلما رجع سفير شارلمان حدث سيده بما وَهَبه الإمبراطور ، فقال شارلمان : لو وهبك حذاءً بدل السكسون لأعانك به على سفرك الشاقّ الطويل !

كذلك كان العالمُ في تصور قيصر وكسرى ، وفي مخالب الفوضى القَبَليّة حين جاءت الدعوة المحمدية تذكر الناس بأنهم من آدم وآدم من تراب «يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارَفُوا إن أكرمَكم عند الله أتقاكم».

تحطيم القيود وإزالة الفوارق

وكذلك كان العالم لما بَعث «عمر» مقوِّضُ مُلْك قيصر وكسرى إلى واليه يوبّخه لاستكبار ابنه على قبطي مسيحي ويقول له «يا عمرو متى استعبدتم الناس وقدولدتهم أمهاتهم أحرارًا».

جاءت الدعوة المحمدية بالطريف الغريب من الدعوة إلى العدل والمساواة والحرية.

فأصبحت الشريعة ينبوع الحريات والحقائق ، تحدد الحقوق والواجبات للأفراد والجماعات. فقام المستضعَفون وسَخِر الطغاة المتجبّرون وقالوا ما قال أسلاف لهم من قبل «إن نراك اتّبَعَك إلا الذين هم أراذِلُنا

بَادِى الرَّأْيِ » وما دَرَوْا أن الله أراد أن يقوِّض عالَم الأَثَرة والأنانيّة والظلم والاستبداد وأن يُحِقّ الحق ، ويُبْطِل الباطل. وأن الشريعة مبادئُ واضحة كريمة تنظّم ما بين الناس ، أَوْحى بها العليم الخبير إلى أفضلِ رجلٍ عرفه البشر في تاريخهم الطويل ، هي المبادئ التي أقرّت العدالة والحرية في ضمائر المؤمنين وجعلتها جزءًا لا يتجزأ من عقيدتهم وصَمِيم نفوسهم .

مبادئ في السياسة وعقائد في الدين

جعل الإسلام هذه المبادئ جزءًا من العقيدة لا ينفصم منها وبذلك ثبتها وخلّدها وصانها من عبث التحايل والرياء والتظاهر والدعاوى المغرضة أو الموقوتة .

فالمسلم لا يكون مسلمًا إذا شك في أن أقلَّ إخوانه وأعجزهم يعادله في الحقوق ، فهما في حضرة الله فى الدنيا والآخرة عَبْدانِ ، أكرمهما أتقاهما .

هذه العدالة التي جعلت الصَّدَقة على من يستحقها ، حقًّا في أموال من يقدِرُ عليها لا مِنَّةً في رقبة مستحقِّيها .

خليفة يبيع في الأسواق

وكانت هذه العدالة والمساواة واضحة في العهد الإسلامي الأول ، وقت سيادة العقيدة وتملّكها النفوس ؛ فهي التي جعلت من أبي بكر ، وقد انْتُخِب للخلافة. جلًا يَخْرُج إلى السوق عَقِب البَيْعة له ليعمل كما يعمل أيُّ فرد من الناس فيها لكسب قُوتِه وقوت عياله . فلما كُلِّمَ في ذلك ، تشاور المسلمون في الأمر واعتبروه أجيرًا لعملهم ، ومنعوه

من العمل ، ورَتَّبُوا له راتبًا حدّدوه بالحاجة ، وكانت في عرفهم بِضْع دريهمات ، لبيت الخليفة لا تجعله في زِيّه ومطعمه أكثر حُظْوة من سواد رعيته .

خليفة يلبس المرقع

وجاء بعده عمر والعقيدة الإسلامية في أعزّ أيامها ، وأمْكَن سلطانها ، فكان خليفةً مختارًا من الشعب ، غلب الفرس والرومان وهو يرقّع ثوبه بيده ويَخْصِف حذاءه بنَفسه ، ولم يَخْطُر بباله ولا ببال المسلمين أن الخلافة تميّزه عنهم بشيءٍ غير ما أعطته من حق الأمر وألزمتهم من حق الطاعة ما دام وليًا للأمر .

كانت العدالة والمساواة عقيدة لا تصنعًا يتكلفها الناس أو يُلْزَمُونها بقانون رادع ، فكانت حقيقةً نفسية تعمل في الظاهر والخَفَاء لإقامة مجتمع صالح مستقر . وفي هذا المعنى قال أحمد شوقي رحمه الله في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

أنصفتَ أهل الفقر من أهلِ الغنى ... فالكلُّ في حق الحياة سَواءُ
فلو أنَّ إنسانًا تخيَّر ملةً ... ما اختار إلا دِينَك الفقراء
الإشتراكيون أنتَ إمامُهم ... لولا دَعَاوَى القومِ والغُلَوَاءُ
داويْتَ مُتَّئِدًا وداوَوْا طَفْرةً ... وأخفُّ من بعضِ الدواء الداءُ
والبرّ عندك ذمةٌ وفريضةٌ ... لا منةٌ ممنونة وجِباء

وقد قدمنا أن الشريعة قررت أنّ المؤمن أخو المؤمن ، وأنه في مَشرق الأرض أو مَغربِها له من الحقّ ما لا سبيل لنُكرانه . له البِرّ ، وله النصرة

والحماية، وله الوَلاءُ والإخلاص والنُّصْح. له هذا كله بمقتضى العقيدة والشريعة لا نزاع ولا جدال. فله النَصَفَةُ غاب الحاكم أم قام، وُجِد القانون أم اختفي؛ لأنها حق يؤدِّيه من ضميره بمقتضى إيمانه. هذا العدل قضى على القومية والعصبيَّة والوطنية، وجعل المساواة فوق كل اعتبار، فللمسلم ما للمسلم في كل زمان ومكان.

وقد سبق الإسلام كل نُظُم العدالة الحديثة. حين قال: «إن اللهَ يأمُرُ بالعدْل والإحسان» وقال «يا أيها الذين آمنوا كُونوا قوَّامِين بالقِسْط شُهَدَاء الله، ولو على أنفُسِكم أو الوَالِدَين والأقربين» وقال: «ولا يَجْرِمَنَّكُم شَنَآنُ قومٍ على أَلَّا تَعْدِلُوا. اعْدِلُوا هو أقربُ للتقوى».

فجر العدالة الدولية

وقال «وإذا حَكَمْتُم بينَ الناسِ أن تحكُموا بالعَدل».

وقال «وإذا قُلْتُمْ فاعدِلُوا ولو كان ذَا قُرْبَى».

وفي الحديث القدسي «يا عِبادِي إني حَرَّمْتُ الظُّلمَ على نَفْسِي وجعلتُه بينكم مُحَرَّمًا فلا تظَّالَمُوا».

ميزان الخليقة

بل جعل العدلَ أساس نظام الخليقة كلِّها فقال: «والسماءَ رَفَعَها ووضَعَ الميزان. أَلَّا تَطْغَوْا في المِيزان. وأَقِيمُوا الوَزْنَ بالقِسْطِ ولا تُخْسِرُوا المِيزان».

فالإسلام قد جعل العدل فوق كلِّ شيء، فهو يَزِنُ بالقِسْطَاس المستقيم بين الكافر والمسلم، والعدُوّ والمُوَالِي والمُعَاهَد، فهم جميعًا في نظرِه أمام العَدالة سواء.

«ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قومٍ على ألّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هو أقرب للتقوى».

والشريعةُ الإسلامية في هذا الباب تستحق من جميع الناس، آمَنُوا بها أمْ لم يؤمنوا، نظرةً صادقة؛ فإنها لا تزالُ سابقةً في زمننا على ما به من تقدم في هذا الشأن.

ميزان الشريعة

انظر إلى أقوال بعض أئمة المسلمين قبل مئات السنين. يقول ابن القيّم: «إن الله سبحانه وتعالى أرسل رسله وانزل كتبه ليقُومَ الناسُ بالقِسط وهو العدل الذي قامت به الأرضُ والسموات، فإذا ظهرت أمارات العَدْل وأسْفر وَجْهُه بأيّ طريق كان فَثَمَّ شَرْعُ الله ودينُه». ويقول الإمام الشاطِبيّ «إن أحكام الشريعة ما شُرِعَتْ إلا لمَصْلحةِ الناس، وحيْثُما وُجِدَتْ المصلحة فثَمَّ شَرْعُ الله».

فأئمة المسلمين متفقون على أن العدل هو غاية الشريعة، وإنما تقيَّدُ الأحكام بالعدل الذي يريدُه الله قبل أن تقيَّدَ بشيء آخر.

* * *

كفالة الحريات

وأما الحرية في الإسلام فهي من أقدس الحقوق: الحرّيّة السياسية، والحرية الفكرية، والحرية الدينية، والحرية المدنية، كُلُّها كفلَها الإسلام، وخطَا بها خُطُواتٍ لا تزال الحضارة الحديثة متخلفة عنها.

ولا يزال التاريخ يحدّثنا بأمثلة منها وقعت في مجالس الخلفاء والأمراء حتى بعد أن صار الحكم في الإسلام مُلْكًا عَضُوضًا. فكان

الناس في أيام عُمَر بن عبد العزيز يناقشون في حضرتـه استحقاق بيته للملك والخلافة. وكذلك رُوِي عن مجالس المأمون ما كانَ يَجْرِي فيها من نِقَاشٍ حول بيت الخلافة وأحقيته بها.

وهذا دِعْبلُ بن عَلِيّ الخُزَاعي الشاعر، هجا جماعة من الخلفاء العَباسيّينَ واحدًا بعد آخر وهم في عنفوان سلطانهم، وانتصر لخصومهم العَلَويّين دون أن تُصَادَرَ حريتُه أو ينالَه أحد. ولما بويع لإبراهيم بن المهدي في العراق وخلع المأمون في غيبته قال دعبل:

نَعَقَ ابنُ شَكْلَةَ بالعِـراق وأهلِه ... فهفَا إليــه كلُّ أَخْرقَ مائِـقِ
أَنَّى يكون! ولا يكونُ ولم يكن ... يَرِثُ الخِلافة فاسقٌ عن فاسقِ

وما أظن أن مثل هذه الحرية سُمِح بها في عهد ملك من الملوك في زمن من الأزمان الحاضرة أو الماضية. وتقديس الإسلام للحرية هو الذي جعل من المسلمين في أحسن أيامهم، وخصوصًا العهدَ العربيَّ لقُرْبه من ظهور الدعوة، قومًا يَسعُون في مُلْكهم بين المشرق والمغرب من الصين إلى الأندلس جميع الملل والنحل تعيش في جوارهم وأمْنهم.

بل أقام الإسلام بشرعه من المسلمين حُماةً لأرباب العقائد المخالفة لهم، وألزم أهله أن يقاتِلُوا لصيانة حريّة العقيدة وقُدْسية أماكنِ العبادة لمن دَخَلُوا في عهدهم وجوارهم من مخالفين في الدين.

تشبعت نفوس المسلمين بمعنى الحرية، فلم يَضْطهِدُوا بمقتضى شريعتهم، ولا إرضاءً لعقيدتهم رجلًا نظر في الكَوْن واستنبط لنفسه الدفاع عن الحريات

نظرية من النظريات، أو ادَّعى رأيًا من الآراء. فكانت الحرية العلمية مكفولة للصّابِئِ والمَجُوسِيّ والنصرانيّ واليهوديّ، يقول ويكتب ما يشاء. كذلك كان المسلمون أحرارًا في هذا لا تعترضهم شريعتُهم. ولا أعرِف أن حرية الرأي والعقيدة والعلم قد اعترضها معترض في الدولة الإسلامية، إلا خشية الفتنة، أو حيث كانت سببًا في فتنة أو عرَّضت سلامة الدولة لخطر.

وكان أمراء المسلمين وحكامهم على وجه العموم لا يَعْبأون في سياستهم بالنظر إلى الأفكار والآراء والمعتقدات والأبحاث العلمية إلا بقدر أثرها المباشر السريع على سلطانهم؛ فخاض المسلمون وغيرُ المسلمين في الكلام، وفي نظريات علمية ودينية في العصور الوسطى بحريّة لم تتسع لها صدور الأوربيين والأمريكيين إلى يومنا هذا.

تلك المبادئ العامة المتفق على ضرورتها وفضلها، والتي بها يَصْلُح المجتمع، أقامها الإسلام في ضمائر الناس، وناضل عنها وحَماها بسلطانه، لأنه يعلم آثارها الصالحة في إقامة مجتمع صالح.

* * *

٣

فى العلاقات الدّولية

الدّولة الاسلامية الأولى وعلاقاتها

من تاريخ علاقات المسلمين بالمناهضين للإسلام – أول معاهدة «دولية» بين المسلمين واليهود والوثنيين – نموذج قديم للأمم المتحدة – الإذن بالحرب الدفاعية – حرب للأغراض السامية – تنظيم علاقات الشر خير !

من تاريخ علاقات المسلمين بالمناهضين للإسلام

ابتدأتْ الدعوة إلى الإسلام سرًّا ، فلما جُهِر بها اشتدت الخصومة ، وترتب على ذلك اضطهاد المسلمين اضطهادا تمثّلت فيه جميع أنواع الأذى . فأشار الرسول على أنصاره المستضعَفِين بالهِجرة إلى الحبشة فهاجروا إليها . وبهذه الهجرة ابتدأت أولىٰ الصِّلاتِ الدولية ، وبَقِيَ هو بمكة في مَنَعةٍ من قومه ، يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعِظة الحسنة . فلم تستطع قريش صبرًا على دعواه ضدَّ آلهتها ، بل ضد حياتها الاجتماعية والاقتصادية . فتشاورت في قتله ، وفاوضت بني هاشمٍ في ذلك على أن تدفع إليهم ما يرضيهم دِيّةً له فأبَوْا . فتحالف أهل مكة على قطيعة بني هاشمٍ ، وكتبوا بذلك صحيفة علّقوها في الكعبة . فلجأ بنو هاشم ومعهم بنو المُطَّلِب إلى شِعْبٍ من شِعاب مكةَ واعتصموا فيه ضد أصحاب الصحيفة الذين تعاهدوا على أن يقاطِعُوا محمدا ومن يمنعه منهم ، فلا يزوِّجوهم ولا يعامِلوهُم ولا يُؤَّا كلوهم . واشتد الكربُ بمن دافعوا عن الرسول ممن آمنوا به أو نصروه عصبيةً

وأَنَفةً ، ودام هذا الحال سنين . فلما خرجوا من الشِّعْب ذهب الرسول إلى « الطائف » مستنجِدا طالبا حماية بعض زعمائها ، ليمضي في دعوته،فرجع مَهِيضَ الجَناح ، وقد رُدَّ على أشنعِ صورة ، يتبعه الصِّغار ، وهو يَمْشِي دامِيَ القدمين ، يقيمُونه كلما قعد ، فلا يستريح إلى ظل ولا يأوِي إلى كهف ، حتى دخل مكة في حماية أحدِ المشركين ، يسخَرُ منه أهلُها ويبكي لحالة أتباعُه المستضعَفُون .

وجاءت فترةٌ من الهدوء ظن فيها المهاجِرُون المستضعَفون من الرجال والنساء والوِلْدَان أن مكة تُؤْويهم فرجعوا ، فاشتد الكرب مرة أخرى . وأمرهم الرسول بالهجرة الثانية إلى الحبشة ، ولَقُوا بلاءً شديدا حتى في مَهْجَرِهم . فقد أوفدتْ قريش رُسُلَها ، وعلى رأسهم عمرو بن العاص « فاتح مصر فيما بعد » يحمل الهدايا إلى النجَاشيّ وأهلِ الحبشة ليُغْرُوهم على تسليم المهاجرين إليهم . فدافع المسلمون عن أنفسهم بالحجّة وتمسّكوا بحق الجوار للملتجئ ، وأسسوا بذلك أول علاقة دولية بين الأمة المحمدية والدولة الحبشية .

واستمرّت قريش تكِيدُ للمستضعفين في مكة حتى استقر رأيها على قتل محمد وتوزيع مسئولية قتله على بطونها ، فتعْجز بنو هاشم عن المطالبة بثأره .

وفي الليلة التي تمَّ فيها التآمر على قتل النبي خَرَج من مكة ومعه رفيقُه أبو بكر ، فلما أحسَّ القوم بذلك تبعوهما ، وكانا مختفيين بغار

ثور ، فضلّوا ثم خابوا في إدراكها .

أول معاهدة دولية بين المسلمين واليهود والمشركين

ووصَلَ المدينة فوجد فيها من سبقه من المهاجرين ومَن بايعوه من الأنصار ، وما لَبِث أن عقد أوّلَ معاهدة دوليةٍ بين المسلمين واليهود والمشركين . وهي من أنفس العقود الدولية وأمْتعِها وأحقها بالنظر والتقدير من الناس كافّة ، وأولاها بأن تكون نِبْراسا للمسلمين في أُصُول العلاقات الدولية بينهم وبين مخالفيهم من أهل الأديان الأخرى . هذا فضلا عن أن عَقْدَها ابتدأت به الدولة الإسلامية حياتَها ، وابتدأ الاعتراف بالمسلمين كدولة .

هذه الوثيقة هي عقدُ حسنِ جِوارٍ وتحالُفٍ دفاعيٍّ ، وتعاون ضدَّ العدوان ، قُصدَ بها صيانةُ مجموعة من دُوَيْلاتٍ ، كل منها يتمتّع في نِطاق الميثاق بسيادته الخاصَّة على قومه ، وبحريّة الدعوة لدينه .

ويتكافل الموقعون عليها على نُصْرة بعضِهم بعضًا ، وحمايةِ عقائدهم ممن يريد أوطانَهم أو جماعتهم بسوء . وهم بذلك يكفلون حريةَ العقيدة وحريةَ الدعوة لأعضاء الميثاق على تباين معتقداتهم . وإليكم الميثاق[1] :

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) هذا كتاب من محمد النبي [رسول الله] بين المؤمنين والمسلمين من قريش و [أهل] يثرب ومَن تبِعهم فلحِق بهم وجاهد معهم .

---

(١) نقلًا عن كتاب «الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة» للدكتور محمد حميد الله الحيدري أبادي أستاذ الحقوق الدولية بالجامعة العثمانية بحيدر أباد دكن.

(٢) أنهم أمّة واحدة مِن دون الناس .

(٣) المهاجرون من قريش على رَبعتهم[١] يتعاقلون[٢] بينهم وهم يَفدُون عانِيَهم[٣] بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٤) وبنو عَوف على ربعتهم ، يتعاقلـــون ، معاقلَهم الأولى ، وكل طائفة تَفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٥) وبنو الحارث [من الخَزرَج] على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٦) وبنو ساعِدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٧) وبنو جُشَم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٨) وبنو النَجّار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٩) وبنو عَمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(١٠) وبنو النَبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

---

(١) أمرهم الذي كانوا عليه.

(٢) يأخذون ديات القتلى ويعطونها. وأصله من العقل وهو ربط إبل الدية لدفعها لأهل القتيل.

(٣) أسيرهم.

(١١) وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(١٢) وأنّ المؤمنين لا يتركون مُفرَحًا [(١)] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

(١٢ ب) وأن لا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

(١٣) وأنّ المؤمنين المتقين [أيديهم] على [كل] مَن بغى منهم أو ابتغى دَسيعةَ [(٢)] ظلمٍ أو إثمًا أو عدوانًا أو فسادًا بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولدَ أحدهم .

(١٤) ولا يقتل مؤمنٌ مؤمنًا في كافر ولا ينصر كافرًا على مؤمن .

(١٥) وأنّ ذمّة الله واحدة يُجير عليهم أدناهم ، وأنّ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

(١٦) وأنه مَن تبعنا من يهود فإنّ له النصرَ والأُسوةَ غير مظلومين ولا مُتناصَرٍ عليهم .

(١٧) وأنّ سِلم المؤمنين واحدةٌ لا يُسالِم مؤمن دون مؤمنٍ في قتال في سبيل الله إلا على سواءٍ وعدل بينهم .

(١٨) وأنّ كل غازية غزَت معنا يعقب [(٣)] بعضها بعضًا .

---

(١) هو من أثقله الدَّيْن والغرم فأزال فرحه.

(٢) الدسع الدفع . والمعنى : طلب دفعًا على سبيل الظلم أو ابتغى عطية على سبيل الظلم .

(٣) أي يكون الغزو بينهم نوبًا يعقب بعضهم بعضًا فيه.

(١٩) وأنَّ المؤمنين يُبِيءُ[١] بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله .

(٢٠) وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدًى وأقومه .

(٢٠ ب) وأنه لا يُجير مشركٌ مالًا لقريش ولا نفسًا ، ولا يحول دونه على مؤمن .

(٢١) وأنه مَن اعتَبط[٢] مؤمنًا قتلًا عن بيّنة فإنه قَوَدٌ[٣] به إلا أن يَرضى وَليُّ المقتول [بالعقل] ، وأنّ المؤمنين عليه كافّةً ولا يحلُّ لهم إلا قيام عليه .

(٢٢) وأنه لا يحلّ لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن يَنصر مُحدِثًا أو يُؤوِيه ، وأنه مَن نصره أو آواه فإنّ عليه لعنةَ الله وغضبَه يوم القيامة ولا يُؤخذ منه صرف ولا عدل .

(٢٣) وأنكم مَهما اختَلفتم فيه مِن شيء فإنّ مردَّه إلى الله وإلى محمد .

(٢٤) وأنّ اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا مُحاربين .

(٢٥) وأنّ يهودَ بني عوف أُمَّة مع المؤمنين لليهود دِينهم وللمسلمين دِينهم مَواليهم وأنفسهم إلا من ظَلَم أو أَثِم فإنه لا يُوتِغ[٤] إلا نفسَه

(١) من أبأت القاتل بالقتيل إذا قتلته به.

(٢) قتله بلا جناية أو جريرة توجب قتله.

(٣) فإن القاتل يقاد به ويقتل. (٤) يُهلك ويُفسد.

وأهلَ بيتِه .

(٢٦) وأنّ ليهودِ بني النَجّار مثل ما ليهود بني عوف .

(٢٧) وأنّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .

(٢٨) وأنّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف .

(٢٩) وأنّ ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف .

(٣٠) وأنّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف .

(٣١) وأنّ ليهود بني ثَعلَبَةَ مثل ما ليهود بني عوف إلا مَن ظَلَم وأثِم فإنّه لا يُوتِغ إلا نفسه وأهلَ بيته .

(٣٢) وأنّ جَفْنَةَ بطنٍ مِن ثعلبة كأنفسهم .

(٣٣) وأنّ لبنى الشُطَيبَة مثل ما ليهود بني عوف وأنّ البِرَّ دون الإثم .

(٣٤) وأنّ موالى ثعلبة كأنفسهم .

(٣٥) وأنّ بطانة يهود كأنفسهم .

(٣٦) وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد .

(٣٦ ب) وأنه لا يَنْحَجِز على ثأرِ جُرحٍ ، وأنه مَن فَتَك فبنفسه وأهل بيته إلا مَن ظَلَم ، وأنّ له على أبَرِّ هذا .

(٣٧) وأنّ على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأنّ بينهم النصر على مَن حاربَ أهل هذه الصحيفة ، وأنّ بينهم النصح والنصيحة والبِرَّ دون الإثم .

(٣٧ ب) وأنه لا يأثم امرؤٌ بحليفه ، وأنّ النصر للمظلوم .

(٣٨) وأنّ اليهود يُنفِقون مع المؤمنين ما داموا مُحاربين .

(٣٩) وأنّ يَثربَ حرامٌ جوفُها لأهل هذه الصحيفة .

(٤٠) وأنّ الجار كالنفس غير مُضَارٍّ ولا آثِم .

(٤١) وأنه لا تُجار حرمةٌ إلا بإِذن أهلها .

(٤٢) وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة مِن حَدث أو اشتجار يُخاف فسادُه فإنّ مَرَدَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله « صلى الله عليه وسلم » ، وأنّ الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبَرِّهِ .

(٤٣) وأنه لا تُجار قريشٌ ولا مَن نَصَرها .

(٤٤) وأنّ بينهم النصر على مَن دَهِم يَثربَ .

(٤٥) وإذا دُعوا إلى صلح يُصالحونه ويلبسونه فإنَّهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دَعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا مَن حاربَ في الدين .

(٤٥ ب) على كل أناس حِصَّتهم مِن جانبهم الذي قِبَلهم .

(٤٦) وأنّ يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البِرِّ المَحض مِن أهل هذه الصحيفة ، وأنّ البِرِّ دون الإثم لا يَكسب كاسب إلا على نفسه وأنّ الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأَبَرِّه .

(٤٧) وأنه لا يحول هذا الكتابُ دون ظالمٍ أو آثم ، وأنه مَن

خرجَ آمِنٌ ومن قعد آمِنٌ بالمدينة إلا مَن ظلم وأثم ، وأنّ الله جارٌ لمن بَرّ وأتّقى ، ومحمد رسول الله « صلى الله عليه وسلم » .

* * *

دستور الدولة المحمدية

في هذا الميثاق وُضِع أساسُ الدولة المحمدية وأصبح المؤمنون والمسلمون رعايَا هذه الدولة على اختلاف أجناسهم وعصبياتهم ، أسيادا أو مَوالي ، أمةً واحدة دون الناس .

نموذج قديم للامم المتحدة

هذه الأمة تتعاقد في هذه الصحيفة مع أُمم أخرى من ديانات أخرى ، فينشأ في أول تعاقد لها ميثاق « الأمم المتحدة » أساسُه النصر للمظلوم والنُّصْح والنصيحة ، والبِرّ دون الإثم ، وحرمة الأوطان المشتركة وحرمة من يدخل في الميثاق ويقبل جواره ، على أن تصان عقائد المتعاقدين وشعائرُهم وحريتهم في الدعوة لدينهم مهما تباينت هذه الأديان . فهو ميثاق من الأمم الاسلامية واليهودية بل والوثنية ، لما في يثرب وقتئذ من الوثنيين الداخلين مع طوائف الميثاق المكوِّنين لأطراف العقد. ولو كان في المدينة حينئذ مسيحيون لنص عليهم الميثاق .

ولقد سبق الإسلامُ بهذا الميثاق عهدَ « عصبة الأمم » ثم « هيئة الأمم المتحدة » بأكثَر من ثلاثةَ عشرَ قرنا . وهذا التحالف ابتدأ به ردُّ الفِعْل لاضطهادٍ وظلمٍ دام أربع عشرةَ سنة ، لم تمنع منه عِظة حسنة ، ولا لِينٌ ولا قُرْبى ولا رَحِمٌ ولا هِجْرة .

سلطت قريش ومَن معها جميع أنواع الأذى والظلم ، فأصابت

المسلمين في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ومزّقتهم وشتتهم في الأرض ، وهم يأبَوْن الردَّ ، ويدعُون إلى تحكيم العقل ، ويناظرون ليتبين الرُّشْد من الغَيِّ ، لا يدفعون قوة بقوة ، ولا يلجأون إلى عنف .

فلما بلغ السيلُ الزُّبَى جاء أمرُ الله وأَذِنَ بالقتال وأُحِلَّت الحربُ للدفاع عن النفس وعن الوطن وعن حرية العقيدة ، ونزل حكم الله في هذه الآية الجليلة .

الإذن بالحرب الدفاعية

« أُذِنَ للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلِمُوا ، وإن الله على نَصْرِهم لَقديرٌ . الذين أُخْرِجُوا من دِيارهم بغير حقٍّ إلاّ أنْ يقولوا ربُّنا الله . ولو لا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهُم ببعض لهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وبِيَعٌ وصَلَوَاتٌ ومساجدُ يُذْكَرُ فيها اسمُ الله كثيرا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَن يَنْصُره إن اللهَ لَقَوِيٌّ عزيز . الذين إن مَكَّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ وأمرُوا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر » .

وضع الرسول الأساس المتين للدولة العالمية وللعلاقات الدولية في الميثاق الذي ذكرنا على أساسِ الحريّة للمشتركين فيه والاستقلال .

حرب للأغراض السامية

ثم نزل حكم الله بإباحة الحرب لأغراض سامية محدودة ، منها ما هو سَلْبِيٌّ ، وهو دَفْع العادِيَة ومنعُ الظلم ، ومنها ما هو إيجابيٌّ وهو الخير العامُّ أو الصالح العام فقال تعالى :

« الذين إن مَكَّنّاهُم في الأرض أقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاةَ وأَمَرُوا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر » .

فتبيَّن الواجب بعد النصر ، وحُدِّد المقصود منه . فليس توسُّعًا في المُلك كما تفعل الدول المستعمِرة ، وليس تعجيزًا للآخرين وإنهاكًا لهم ليضعُفُوا عن المُزاحمة في العيش ، ويُطرَدوا من الأسواق وميادين التجارة ، ولا لوضع اليد على موارد الثروات وكنوز الأرض وخامات الصناعة ليستأثروا بها ، ولا عُلُوًّا واستكبارًا في الدنيا ، لكي تكون أمّةٌ أَرْبَى من أمة ، وجنسٌ أعلى من جنس ، ولكن لغايةٍ واضحة محددة . هي أن يقيموا الصلاة ويؤْتُوا الزكاة ويأمروا بالمعروف ويَنهَوْا عن المنكر .

ولما حاول الأوروبيون والامريكيون بعد أن أكلَتْهُم الحرب العالمية الأولى أن يبيّنوا الحالاتِ التي تكون الحرب فيها مشرُوعة ، وأن يحددوا أغراضها ، ويسيطروا على شهواتهم ، فعقدوا لذلك المواثيق في عصبة الأمم وفي ميثاق « كيلوج » ، استبشَرْنا وقلنا إن سنن محمد صلى الله عليه وسلم قد أخذت تسود التفكيرَ العالمي . وإنا لنرجو أن تكون الحرب العالمية الأخيرة خاتمة الضلال ، وأن يجد الناس في قواعِد العلاقات الدولية التي سنَّتْها الشريعة المحمدية هدًى ومَخْرَجًا مما هم فيه . فميثاق محمد مع اليهود والمشركين في المدينة هو أولُ عهد دولى في سبيل صِيانة السلم على أساس المنفعة العامّة والحرية للجميع .

تنظيم علاقات الشر خير

ومَشْرُوعِيّةُ الحرب لدفع الظُلم وضمان الحرية ، وتحديدُ الغرض منها بالخير العام ، هما أيضًا الأساسُ الصالح الذي يجب أن تبنٰى عليه العلاقات الدولية في المستقبل .

أتت الشريعة المحمدية قبل ثلاثةَ عشرَ قرنا بنظام كامل من عُهود التحالف والتكافل والتحكيم ، وجعلت الحربَ ضدّ المعتدين زَجْرًا وتأديبا لا مَحْوًا وتعذيبًا « وإن جَنَحُوا للسَّلْم فاجْنَحْ لها وتوكل على الله » « وأنِ احكُمْ بينهم بما أنزل اللهُ » « فقاتِلُوا التي تبغي حتى تَفيءَ إلى أمر الله فإن فاءَتْ فأصلِحُوا بينهما بالعدل وأقْسِطُوا إن الله يحب المُقْسِطِين » .

وسيتبين في الفصول التالية هدى الاسلام في سبيل التنظيم الدولي وإقرار السلم الدائم على أساس العهود المقدسة الصالحة .

* * *

الحرب المشروعة

تحديد أسباب الحرب وأغراضها – الحرب الدفاعية هي المباحة – وصايا وتحميس إذا وقعت الحرب – الإسلام دين عملي – فريضة الجهاد على المسلم والمسلمة – الحرب الهجومية غير مباحة – الحرب لأغراض مادية غير مشروعة – ضرورة تقدر بقدرها – الضعف والـــذل ظـلم للنفس.

أَشرْنا إلى ما كان من اضطهاد وظلم للمسلمين استلزم الإذْنَ بالقتال ، وقد أصبحوا في مَنعةٍ بالهجرة إلى المدينة وبالميثاق الذي عقدوه مع جيرانهم من أهل الملل والنحل الأخرى .

تحديد أسباب الحرب وأغراضها

والآن لِنَنْظُرْ في الحرب من الوجهة الإسلامية : أسبابِها ومُلابَساتِها وأغراضِها ؛ فإن ذلك مما يعين على تصوّر حالة قد يكون فيها العلاج لداء العالم الحاضر ، ويفتح الأذهان إلى الهدى والتبصُّر .

أُذن بالقتال في هذه الأية الكريمة « أُذِن للذين يُقَاتَلُون بأنهم ظُلِموا ، وإن الله على نصرهم لقديرٌ . الذين أُخْرِجُوا من دِيارهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنا الله . ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لَهُدِّمت صوامعُ وبِيَعٌ وصلَواتٌ ومساجدُ يُذْكَرُ فيها اسمُ الله كثيرا . ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ من ينصرهُ إن الله لَقَوِيٌّ عزيز . الذين إنْ مكّنّاهم في الأرض أقاموا

الصلاةَ وآتَوُا الزكاة وأمرُوا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

فالإسلام حين أباح الحربَ قد علل هذه الإباحة ، وحدّد المقاصد والأغراض منها : فهي دفْعُ الظلم ، واحترام حق الإقامة ، والحريةُ في الوطن ، ومَنْعُ الفتنة في الدِّين ، وكفالةُ حرية العقيدة للناس جميعا .

وهذه الحرية للناس جميعا واضحةٌ من تعديد أماكن العبادة لِمَللٍ مختلفة ، من صوامع وبِيَعٍ للنصارى وصَلَوَاتٍ لليهود ، ومساجدَ للمسلمين ؛ فقد أباح الحرب لصِيانتها من عُدْوان المعتدين . كذلك يقول تعالى :

« وقاتِلُوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ لله . فإنْ انتَهَوْا فلا عُدْوَانَ إلا على الظالمين » .

ففي هذه الآية الجليلة تعلو الدعوة المحمّدية على جميع الدعَوات ؛ لتحديدها الغرضَ من الحرب بردِّ الطغيان ، وبإسْقاط مَشْرُوعِيَّة الحرب بمجرَّد أن ينتهيَ المعتدِي من إسرافه وإعْنَاتِه في فتنة الناس . وعندئذ لا يتجدّد القتال وتستمر الحرب إلا على ظالم ، يُصِرُّ على الظلم ، ممن يُكْرِهُون الناس على ترك دينهم . والفتنةُ والإكراه وسلْبُ الناسِ حرّيتَهم في دينهم أبغض إلى الله حتى من إزْهاق النفوس « يسألونك عن الشهرِ الحَرَامِ قِتالٍ فيه . قلْ قتالٌ فيه كبيرٌ ، وصَدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجدِ الحرام ، وإخراجُ أهلهِ منه أكبرُ عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يَزالون يقاتِلُونكم حتى يَرُدُّوكم عن دِينكم إن استطاعوا » .

الحرب الدفاعية هي المباحة

وإذا تقصَّيْنا آيات الكتاب الكريم في القتال، ورجَعنا إلى ظروف التنزيل، وتتبعنا الحوادث في حياة الرسول وحروبه وسراياه، حربًا حربًا وسَرِيَّةً سَرِيَّة ما خالجَنا شك في أن الحرب المشروعة في الإسلام هي الحرب الدفاعية. ولا يسمح المقام باستقصاءٍ وتفصيلٍ للحوادث؛ ففي كتب السُّنَّة والكتاب الكريم وكتب السيرة من البيان والتفصيل ما يُعِين الباحث على الاطمئنان لما ذكرنا من أغراض الحرب المشروعة الإسلامية، ومن التزام الإسلام جانب الدفاع. وما جاء من قتال المشركين حيث وُجدوا، والإغلاظ عليهم، والقعود لهم كلَّ مَرْصَدٍ، والتنكيل بهم من خَلْفِهم، وشَدِّ الوَثَاق، هو ما كُلِّفنا به بعد وقوع الحرب، فهو نتيجة لها لا سببٌ لإعلانها.

فأقواله تعالى:

وصايا وتحميس إذا وقعت الحرب

«يا أيها النبيُّ جاهِد الكفّارَ والمنافقين واغلُظْ عليهم، ومأواهم جهنمُ وبئس المصير». «وقاتِلُوا المشركين كافّة كما يقاتلونكم كافّة». «فقاتلوا أَئِمَّةَ الكُفْر إنهم لا أَيْمانَ لهم لعلهم ينتهون. أَلا تقاتِلون قومًا نَكثُوا أَيْمَانَهم وهَمُّوا بإخراج الرسول، وهمْ بَدءُوكم أولَ مرَّة أَتَخْشَوْنَهُم، فاللهُ أحقُّ أن تَخْشَوْه إن كنتم مؤمنين. قاتِلوهم يُعذِّبْهُم اللهُ بأيديكم ويُخْزِهمْ ويَنْصُرْكم عليهم ويَشْفِ صدورَ قوم مؤمنين، ويُذْهبْ غيظَ قلوبهم ويتوبُ اللهُ على من يشاء، والله عليم حكيم». «وقاتِلُوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ كلُّه لله». «واقْتُلُوهُمْ حيثُ ثَقِفْتُمُوهم وأَخْرِجُوهم من

حيثُ أخْرَجُوكم». «انْفِرُوا خِفَافًا وثِقالًا وجاهدوا بأموالكم وأنفُسِكم في سبيل الله». «يا أيُّها النبيُّ حَرِّضِ المؤمنين على القتال إن يكُنْ منكم عشرون صابرون يغلِبُوا مائتين، وإنْ يكنْ منكم مائةٌ يغلبوا ألفًا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يَفْقَهُون». «وقاتِلُوا المشركين كافّةً كما يُقاتِلُونكم كافّةً واعلمُوا أنّ اللهَ مع المتقين».

هذه الأقوال إنما هي آيات توحي إلى القارئ بنفسها أن حالة الحرب قائمة، وأنّها تحريضٌ على الاستمرار فيها والصبر عليها والترغيب في الوصول بها إلى خاتمة يُطْمَأَنُّ إليها، من الأمن والسلام للمؤمنين، والحصولِ على ثباتٍ واستقرار للدِّين، ومنعٍ من الفتنة والارتداد بضغط المشركين وقهرهم، وأملٍ في أن ينتهيَ المعتدون عما هم عليه.

الإسلام دين عملي

ومن مَزايا الشريعة المحمّدية الجليلة أنها شريعة عَمَلِيّة تواجه الحقائق البشرية والفِطْرية، وتجابِهُ المُعْضِلات بالحلّ العمليّ؛ فما دامت الموعِظَة الحسَنة لا تردُّ الظلم والاعتداء، وما دام أعداء الإسلام لا يرضَوْن حسنَ الجوار والعهدَ القائم على الإنصافِ وحرية العقيدة، وما دام أهل الشر ذَوِي سلطانٍ خَطِرٍ، فإن الحرب واقعة بين الناس. فلم يقِفْ الإسلام أمام هذه الحقائق مكتوفَ اليدين بل واجهها بالحزم والعزم اللذَيْن لازَما الرسول في دعوته طول حياته، فأمر بالاستعدادِ لها: «وأَعِدُّوا لهم ما استطعتم من قُوَّة ومن رِباط الخيل تُرْهِبُون به عدوَّ الله وعدوَّكم» فجعَل العُدَّة نفسَها للإرهاب الذي قد يَمْنَعُ الحرب ويحفظُ السلم.

وحين لم يَبْقَ للمسلمين سبيل إلا الحرب ، وأصبح حقّهم في ذلك واضحًا ، أُبيح القتال وكانت السلم هي المقصد الأسمى له ، لقوله تعالى «فإن انتَهَوْا فلا عُدْوَانَ إلا على الظالمين» ولقوله تعالى «وإنْ جَنَحُوا للسَّلْمِ فاجْنَحْ لها وتَوَكَّلْ على الله» .

وما أَحسنَ قولَ «شوقي» في هذا المعنى :

والحرب في حقٍّ لديك شريعةٌ ومن السُّمُومِ الناجعـاتِ دَواءُ

فريضة الجهاد على المسلم والمسلمة

فإن قامت الحرب الدِّفاعية المشروعة وقد استحكمت أسبابها ، وجبَ القتالُ على الناس كافَّة ، وأصبحت فريضة الجِهاد على كل مسلم ومسلمة تُؤَدَّى من صميم الوِجدان وفقَ أوامرِ القيادة الإسلامية المُمَثَّلَة في شخص وَليّ الأمر . وعندئذ تتجلّى الهِمَم العالية التي يريدها الإسلام ، فيحرَّمُ النُّكُوص والفِرَار ويُطلَبُ الصبر والمصَابرة والفِداء والاستبسال وبذل الأرواح والأموالِ بِسَخاءٍ ، وهجْرُ المنازل والأوطان في حالة استيلاء العدوّ عليها .

«يا أيها الذين آمنوا إذا لَقِيتُمْ الذين كَفَرُوا زَحْفًا فلا تُوَلُّوهم الأَدْبَار . ومَنْ يُوَلِّهِمْ يومَئِذٍ دُبُرَه إلا مُتَحَرِّفًا لقتالٍ أو مُتَحيِّزًا إلى فئة فقد بَاءَ بغضبٍ من الله ومَأْواه جهنمُ وبئس المصير» .

ولا يكلف الإسلام الناسَ بقتال عنيفٍ يستحقون على الفرار منه لعنةَ الله وغضبه وعذابه إلا إذا كان هذا القتال حقًا مشروعًا ، دفاعًا عن أقدسِ ما يَدِينُ له المؤمن . وهو في هذا التكليف يأمر المؤمن ،

بالصبر والثبات وألّا يُولِّي الكفارَ دُبُرَه، حتى وَلو كان يقاتِلُ بنسبة واحدٍ لعشرة! والتكليف بهذا هو التكليف بالمستحيل إن لم يَقْتَنِع المقاتِل تمام الاقتناع بأنه يقاتل عن حقٍّ لا محلّ للشك فيه، هو حقّ الدفاع عن النفس والعقيدة ضدّ من يعتدي عليهما. ولا يمكن في حرب العُدوان أن يُحْمَلَ الناس على الصبر واحدًا لعشرة، وهم يعرفون أنهم هم الذين اعتدَوْا وأضرَمُوا نار الحرب؛ فإنهم عندئذ لا يجدُون من أنفسهم صبرًا؛ إذ لا داعِي للفداء بالنفس والرَّغبة في الموت دون الحياة.

فتلك الآيات الجليلة التي تحرِّض على القتال والاستبسال والاستشهاد والتشديد على العدوّ ومفاجأتِه والغِلْظة عليه والتربُّص له، وسدِّ جميع المَسَالك والمَنافِذ في وجهه، والتي تدعو إلى بذل الأموال وهِبَةِ النفوس وهَجْر الأوطان في سبيل نصر الله، واضحةٌ في أنها تحرّض على حربٍ دِفاعية مَشْروعة بشرْعةِ الإسلام.

الحرب الهجومية لا يبيحها الإسلام

وإذًا يظهر لنا من مجموع آيات الكتاب الكريم الواردة في القتال، ومن عمَل النبيّ نفسه في سُنَنِه، ومن السيرة وتاريخ حروبه، أن الإسلام لا يُبِيح حرب الاعتداء، ولا يُحِلّ الحرب لعَرَضِ الحياة الدّنيا؛ فعند الله مغانمُ كثيرة. أما الغايات الأخرى التي يقاتل من أجلها الناس، كسيادة عُنصر على عنصر، أو شَعب على شعب، أو استعلاء مَلِك على ملك، أو طبقة من الطبقات الاجتماعية على طبقة أخرى، أو توسيع رقعة مملكة، أو أغراض حربية واستراتيجية، أو الأغراضِ

الحرب لأغراض مادية غير مشروعة

الاقتصادية ، أو الاستِئثَار بالموادّ الخَامَةِ والأسواق التجارية ، أو تمدِين المتخلّفين عن الحضارة ، أو غير ذلك مما تتخذه الدول وسيلة لإشعال الحرب ونقْض العَهْد وهدْم السِّلْم الدائمة ، فليس ذلك كله في شيءٍ مما أباح الإسلام القتالَ لأجله ؛ ذلك لأن غاياتِ الإسلام إنسانيةٌ ساميةٌ يعُمُّ نفعُها الناسَ جميعًا ، ونظرته عُلْويّة تقع على البشر جميعًا كأُسْرَة واحدة متكافلة. والله تعالى ليس ربَّ المسلمين وحدهم ، بل ربُّ العَالمين...

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شُعوبًا وقبائِلَ لتَعارَفُوا. إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم » « كلكم من آدَم وآدمُ من تراب » « ولا تقُولوا لِمَنْ ألْقَى إليكم السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمنًا تبتغُون عَرَض الحياةِ الدنيا » « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلُوكم في الدين ، ولم يخرجُوكم من دياركم أن تَبَرُّوهُمْ وتُقْسِطوا إليهم إن الله يُحِبُّ المُقْسِطين. إنما ينهاكم اللهُ عن الذينَ قاتلُوكم في الدِّين واخرجوكم من دياركم وظَاهَروا على إخْراجِكم أن توَلَّوْهم. ومن يَتَوَلَّهُم فأولئك هم الظالمون ». فإن اعتزلوكم فلم يقاتِلُوكم وأَلْقَوا إليكم السَّلَم فما جَعَل اللهُ لكم عليهم سبيلًا ».

ضرورة تقدر بقدرها

فالإسلام على استعداد دائمٍ لعقد اتفاقات منوّعة مع جيرانه والأُمَم الأخرى تكفل دوامَ السلم. ولا تكلف هذه الأمَم أكثَرَ من أن تكون لها رغبة حقيقية في السلم ، ونيةٌ صادقة للوفاء بالعهد. وهو مع هذه الرغبة الأكيدة في دوام السلم لا يستعجل الحربَ ولا يباغِتُ بها ، بل

يقيم حُجَّته ويبسُطُها لمُنَازِعِه ويُنْذِرُه، ويضعُ أمامه المَخَارِجَ من مأزِقه، فإذا عانَد وأبَى إلا قِتالًا وأصرَّ على عُدوانه، كانت الحربُ، وكان ذلك التحريضُ عليها والاستبسال والفتك بمن اعتدى، والصبرُ والمُصابَرَة والبذلُ والتضحية والهجرة وكل ما ينطوي عليه الفِداء بالأموال والأنفُس مما جاءت به الآيات الجليلة التي ذكرنا بعضَها، والتي يتّخِذُها بعض الناس، وخصومُ الإسلام وسيلةً لتصوير الدَّعوة المحمّدية بأنها دعوة دَمَويّة جعلت الحربَ عُنْصُرًا دائماً لقَهْرِ الناس واستباحة أموالهم وأنفسهم.

فالدّعوة المحمّدية واضحةُ النَّهْجِ مستقيمتُه، ابتدأت بتحريم القِتال، فلما ظُلِمَ أهلُها واستحال ظهورها بغير دَفْع القوة بالقوة، أباحَتْه، فلما أَذِنَتْ به أَمرَتْ بأن يكون على أكمل وجه يؤدِّي للنصر، فلما كان لها النصرُ نادَتْ بأنْ «لا إكراهَ في الدِّين قد تبيَّن الرُّشْدُ من الغَيِّ».

وهي دعوة موفَّقَة تُواجِه الحق بالحق وبالصراحة والإخلاص. فما دام أهلُ الشَّرِّ لا يريدون إلا شرًّا فإن من ظُلْم النفس أن يَصْبِر الناس على الضَّيْمِ، وأن يُستَضعَفُوا في الأرض.

الضعف والذل ظلم للنفس

«إن الذين تَوَفَّاهُم الملائكةُ ظالمِي أنفسِهم، قالوا فِيمَ كنتم؟ قالوا كُنَّا مُستضعَفِين في الأرض. قالوا ألم تكنْ أرضُ الله واسعةً فتهاجِرُوا فيها؟ فأولئك مَأْوَاهُم جهنمُ وساءتْ مَصيرًا. إلا المستضعَفِين من الرجال والنساء والوِلدانِ لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدُون سبيلًا. فأولئك عسى اللهُ أن يعفُوَ عنهم».

فكما أن الدعوة المحمّدية بغَّضت أتباعها في العُدوان إذ قال الله تعالى «ولا تعتدوا إن الله لا يحبّ المعتدين»، أمرت كذلك بالهجرة عن الأوطان، بل بالاستشهاد والموتِ دون قَبُول الذُّلّ والهوان.

* * *

الحرب لنصرة المظلوم

مبدأ شريف في الجاهلية والإسلام – قصة حلف الفضول – حلف مرغوب فيه دائماً – لا تحالف في الإثم والعدوان – وصايا قرآنية بالعدالة المثالية – حرب أخرى مشروعة – حلف جاهلي آخر يجدد بروح إسلامية – المسيحية والحرب – اختلاف المسيحيين فيها – الحرب العادلة عند بعض المسيحيين – لجوء المسيحيين إلى شبيه بالنظرية الإسلامية.

مبدأ شريف في الجاهلية والإسلام

مما يشرِّفُ الدعوة المحمّدِيَة أنها أباحت القتال، بل جعلته من الفضائل لردِّ المَظالِم ودفع العدوانِ عن الضعيف، سواءٌ أكان فردًا أم جماعة، رغبةً منها في إقامة صَرْحِ العدل الذي يريده الله على الأرض.

وقد جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لردِّ المظالم، كما جلس لذلك خلفاؤُه من بعدِه، وبيده سلطانُ الدولةِ لقهر المعتدِي ودفعِ الظلم.

قصة حلف الفضول

وأقرّ صلى الله عليه وسلم «حِلْف الفُضُولِ»، وهو ذلك الحلف الذي عقد في الجاهلية لنُصرة المظلوم، وقال لو دُعيتُ إليه في الإسلام لأَجَبْتُ.

وسبب ذلك الحِلْفِ أن رجلًا من اليمن قدِم مكةَ ببضاعةٍ، فاشتراها منه رجل من بني سهم، قيل إنه العاصي بنُ وائلٍ، وامتنع بسلطانه عن أن يدفعَ للرجل ثمنَ بضاعته، أو يردَّ إليه مالَه، فقام الرجُل بجوارِ الكعبةِ وصرخ بأعلى صوته:

يا لَقُصيٍّ لِمظلومٍ بضاعتَه ببطنِ مكةَ نائِي الدارِ والنَفَرِ !

فقام نفر من قريشٍ وردّوا عليه ماله ، ثم اجتمع بنو هاشم والمُطَّلِب وأسدِ بن عبد العُزّى وزُهرَةَ ابنِ كلابٍ وتَيْمٍ بنِ مُرَّةَ في دارِ عبدِ اللهِ بن جُدْعان وتحالفوا على ردّ المظالم وإنصافِ المظلوم من الظالم. وكان النبي صلى الله عليه وسلم معهم ، وسنُّه وقتئذٍ خمسٌ وعشرون سنة ، وكان إذا ذكر حِلفَ الفضولِ يقول « لقد شَهِدتُ في دارِ عبدِ اللهِ بن جُدْعان حِلفَ الفضول ، أَمَا لو دُعيتُ إليه في الإسلام لأَجبتُ ، وما أُحِبُّ أَن لي به حُمْرَ النَّعَم وأَنّي نقضتُه ، وما يَزيدُه الإسلامُ إلا شدة » .

فإذًا قد أقرّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم حِلفًا تعاقد فيه طائفةٌ من الناس على القتال لنصرةِ المظلومِ وقال إنه يفضِّلُه على خير ما في دنياه .

وبذلك أصبحت الدولةُ الإسلامية مكلفةً شرعًا برد المظالم ، بل والقتالِ لنصرةِ المظلوم .

ونستطيعُ إذًا أن نقرر أن الإسلامَ الذي أباح الحربَ للأسباب الواردة في الآية الجليلة : « أُذِنَ للذين يقاتَلُون بأنهم ظُلموا وإن اللهَ على نصرهم لقدير » . وما بعدها – وقد ذكرناها في الفصل السابق – يبيحُ القتال كذلك لنصرة المظلوم فردًا أو جماعةً ، مسلمًا أو غيرَ مسلم ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نَزَّهَهُ اللهُ عن ضلالات الجاهلية منذ صِباه قد اشترك في حِلفِ الفضولِ قبل بعثته ، وأقرَّهُ في الإسلام ، وقال إن الإسلامَ لا يَزِيدُه إلا شدةً .

فكما أن الحربَ تقعُ للدفاع عن النفس من مظلومٍ ضدَّ ظالمِه، فإنها تقعُ كذلك من قَوِيٍّ على قويٍّ لنصرة مظلوم لا يَنتمِي لأحدهما. وإذًا يجوزُ لدولة إسلامية أن تتحالفَ مع دولة أو دولٍ أخرى لدفع الاعتداء والظلم عن المظلومين.

حلف مرغوب فيه دائماً

فارتباطُ مصرَ كدولةٍ إسلاميةٍ في ميثاقِ « هيئة الأمم المتحدة » مثلا لا ضررَ فيه من الناحية الشرعية. ومتى حَسُنَتْ النيةُ وكان الميثاقُ قائما على حب الخيرِ والعدلِ والإنصافِ وحمايةِ المظلومِ ومنعِ الاعتداء بالقوة فإنه يكونُ ميثاقًا مرغوبًا فيه من المسلمين، حكمُه حكمُ حِلْفِ الفضولِ الذي لم يَزِدْه الإسلام إلا توثيقا وشدةً، والذي كان من أحبِّ الأشياءِ إلى قلبِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم.

لا تحالف في الإثم والعدوان

أمّا إذا كانت المواثيقُ للتعاونِ على الظلم ولقهر المغلوبين واستباحةِ المستضعَفِين، فإن الإسلام يَعُدُّها تعاونًا على الإثم والعدوان الذي يَنهَى عنه، وبُعدًا عن التقوى والبر الذي يدعو إليه. قال تعالى « وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تَعاوَنُوا على الإثم والعُدوان ». والأعمال في الإسلام كلُّها مَرْجِعُها النية فهي التي تُصْلِحُها أو تُفسدُها، والعبرةُ فيها بما تَقْصِدُ إليه من خيرٍ، وما تريدُه من العدلِ الذي هو أساسُ نظامِ الخليقةِ كلّها. يقول تعالى « والسماءَ رَفَعها ووضعَ الميزان » ويقول تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسطِ شهداءَ اللهِ ولو على أنفسِكم أو الوالديْنِ والأقرَبين » إلى آخر الآيات التي ذكرناها

في فصل سابق .

فكتابُ اللهِ وسنةُ رسولِه وأئمة المسلمين متفقون على أن العدلَ هو غاية الشريعةِ . وعليه فإن القتال لنصرةِ المظلوم من عبادِ الله هو أمر يستحق ثواب الله ، وللدولة المسلمة أن تُعلنَ الحربَ وهي في حدودِ الشريعةِ ما دام مَقصِدُها الإنصافَ ودفعَ الظلمِ عن الغير .

حرب أخرى مشروعة

وفي نظري أَن هذه هي الحالة الوحيدةُ التي تكون فيها الحرب مشروعة ولو لم تكن دفاعيةً بالنسبةِ لجماعةِ المسلمين الذين هم في مَنَعَةٍ بقوتهم عن أن يُعْتَدَى عليهم .

وعلى هذا الأساس يجوزُ للدولة الإسلامية كما قلنا أن تشترِكَ في ميثاقٍ كميثاقِ « هيئة الأمم المتحـدة » مثلا متى ثبت لها أن ذلك يقيمُ العدلَ بين الناسِ ، كما أن لها أن تدعوَ إلى ميثاقٍ أو حلفٍ لردِّ المظالم وإنصاف المستضعفين .

وليس لها بالطبع أن تقاتلَ أو تشتركَ في قتالٍ تُدعَى إليه ما لم تتبيَنْ بكيفيةٍ لا محلَّ للريب فيها أنها تقاتلُ دفاعا عن النفس ، أو دَفْعًا لظلمٍ بيِّنٍ يقع على مُسْتَصْرِخٍ مستضعَفٍ لا يكونُ العدلُ والإنصافُ إلا بإغاثتِه ونصرتِه ، كالحالةِ التي أشرنا إليها في حلفِ الفُضول .

حلف جاهلي آخر يجدد بروح إسلامية

وثمة حلف آخر عُقِدَ في الجاهليةِ وجُدِّدَ في الإسلام ، وهــو بيِّنٌ في إباحةِ الحرب لنصرةِ المظلوم ، وبيِّنٌ في منع التعاون على الباطل والاعتداء .

في هدنةِ الحُدَيْبِية بين قريشٍ والرسولِ صلى الله عليه وسلم ، كان الشرطُ الرابعُ من شروط الهدنة « أن من دخل في عهدِ قريشٍ دخلَ فيه ، ومن دخل في عهد محمدٍ دخلَ فيه ». وبناءً على هذا الشرط تحالف بنو بكر مع قريش ، وتحالفت خُزاعةُ مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكانت قبيلةُ خزاعة حليفةً في الجاهليةِ لعبدِ المطلب جدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأرادت خزاعة أن يكون ميثاقُها مع الرسول مُجَدّدًا كما كان مع آبائه .

وهذا نص محالفتها مع عبد المطلب « باسمك اللهم . هذا حِلْفُ عبدِ المطلبِ ابن هاشمٍ لخُزاعةَ حِلْفًا جامعًا غيرَ مفرِّقٍ ، الأشياخ على الأشياخ ، والأصاغرُ على الأصاغر ، والشاهدُ على الغائبِ ، وقد تعاهدوا وتعاقدوا أوْكدَ عهد وأوثقَ عقد لا يُنْقَضُ ولا يُنْكَثُ ما قام الأَخْشَبَانِ «جبلان بمكة» واعتمر بمكة إنسان . وإن عَبدَ المطلب ووَلَدَه ورجالَ خُزاعة متضافرون يتعاونون ، وعلى عبدِ المطلب النصرةُ لهم ، وعلى خزاعةَ النصرةُ لعبد المطلب ووَلَدِه على جميعِ العربِ في شرقٍ وغربٍ وحَزْنٍ وسَهْلٍ ، جُعِلَ اللهُ على ذلك شهيدا وكفى به وكيلا » .

فأقر النبي صلى الله عليه وسلم نصوصَ هذه المحالفةِ وجدَّدَ عهدَها غير أنه زاد فيها شرطين : الأول ألاَّ يُعِينَ خُزاعةَ إذا كانوا ظالمين ، والثاني أن ينصرَ خزَاعةَ إذا ظُلِموا ، وبعد أن زاد هذين الشرطين كتبت نسختان من هذه المعاهدةِ تَسَلَّمَ كلُّ طَرَف نسخةً منها .

لم تكن خزاعةُ وقتئذٍ قد أسلمت بل كانت لا تزالُ على شركها ، وكلُّ ما بينها وبينَ الرسولِ هو تلك العَلاقَةُ الجاهليةُ التي كانت مع جده وكان أساسُها تحالفًا على الحق والباطِلِ . فَشَرْطَا الرسولِ صلى الله عليه وسلم في هذه المحالفة يدلاَّن على عدةِ أشياءَ :

أولا – أنه لا يُقِرُّ المحالفةَ على أساس تعاونٍ غير معيَّن قد يجرُّه إلى باطل ، وهو الذي بعثه الله لإقامةِ العدلِ ، بل اشترط فيها صراحةً ألاّ يُعِينَ خزاعةَ حليفَتَهُ إذا كانت ظالمة .

ثانيا – أنه لا يمتنعُ عن نصْرةِ مظلوم ولو كان مشركا .

ثالثا – أنه تعهدَ بنصرةِ هذا المظلومِ ولو أنه مشركٌ مخالفٌ في الدين .

رابعا – أن أساسَ الحربِ المشروعةِ هي الحربُ الدفاعيةُ ، سواء أكانت هذه الحربُ دفاعا عن النفس أم دفاعًا عن طرف ثالث يستحقُ النصرةَ ، وهي مباحةٌ في حالة عدم الالتزام بها وواجبةٌ في الحالة المماثلةِ لحالة خُزُاعةً ، إذا كانت لنصرةِ معاهدٍ مظلوم .

* * *

لقد حاولت بعضُ الأديانِ الأخرى قبل الإسلام أن تخففَ من ويلات الحربِ ، وأن تضعفَ من شرِّها وأن تحدِّد بلاءَها ، حاولت محاولاتٍ صادقةً ولكن مع الأسف قد طغت طبيعةُ الشر .

المسيحية والحرب

جاءت المسيحيةُ بتحريمها الحربَ بتاتًا بقول السيد المسيح عليه

السلام في إنجيل متّى « أما أنا فأقولُ لكم لا تقاوموا الشرَّ بالشر ، بل من لطمك علي خدّك الأيمنِ فحوِّلْ له الآخرَ أيضا ، ومن سخَّرَك مِيلًا واحدا فاذهب معه مِيلَيْن » .

ويستندُ كذلك أنصارُ الرأي القائل بتحريمِ الحربِ تحريما مطلقا إلى قولِ المسيح عليه السلام للقدّيس بطرس « أَعِدْ سيفَك إلى مكانه ؛ لأن كلَّ الذين يأخذون السيفَ بالسيفِ يَهْلِكون » وعلى هذا تكونُ المسيحيةُ تحرّم الحربَ بل التسليحَ أيضا .

اختلاف المسيحيين

ولكن المسيحيين اختلفوا فيما بعد ؛ فبينما كان رجالُ الكنيسة الغربية في القرون الأولى للمسيحية يقاومون بكل سلطانهم الحربَ حتى ولو كانت دفاعًا عن النفس ، فإن رجال الكنيسةِ الشرقية في بيزنطة قد خلطوا بين شخص الإمبراطورِ سيدِ العالم .وبين الرئاسةِ الدينيةِ ، فَجَمَعوا في ذاته سلطانَ اللهِ وسلطانَ الدولةِ ، وسارت بيزنطة في طريقٍ مخالفٍ تمامًا لرأي رجال الكنيسة الغربيةِ ، فلم تكتف بتحليلِ الحربِ التي حرمها المسيحُ ، ولا هي اتخذت طريقا وسَطًا فأحلَّتها للدفاع عن النفس أو نصرةِ المظلومِ كما فعلت الشريعةُ المحمديةُ ، ولكنها رَضِيتْ أن يكونَ حقُّ إعلانِ الحربِ حقًّا مطلقا للامبراطور ، لا يَحُدُّهُ إلا المصلحةُ التي يراها ذلك الإمبراطورُ جامعُ كل السلطات .

لقد كان ظهورُ المسيحيةِ في العصورِ الأولى خيرا وبركةً على البشر ، فقاومت أصولَ الشرِّ في نفوسِ أتباع المسيحِ ، وصانت دماءً غزيرةً

كان يُرِيقُها السلبُ والنهب والعدوان والطغيان . ولا شك أن المسيحيةَ استمرت طويلا تكافحُ إلى أن نسِيَ الناسُ دينَ المسيح ودعوتَه ، وأقاموا من شهواتِهم وأغراضهم ومصالحهم كلَّ الأسبابِ لحروب الطغيانِ التي اكتوى البشرُ بنارها في الشرق والغرب طولَ العصور الوسطى وما بعدها إلى يومنا هذا .

الحرب العادلة عند بعض المسيحيين

ولقد بذل رجالٌ من المسيحيين حياتَهم في سبيل التمسكِ بتحريمِ الحربِ بل تحريمِ صناعةِ الجنديةِ ، وبذَل آخرون جهودًا جبارةً في سبيل التوفيقِ بين نصِّ الإنجيلِ وضرُوراتِ الدولةِ ، فخرجوا بالتفريق بين الحرب المباحة والحرب الممنوعة ، وأثاروا البحثَ فيما هي الحربُ العادلة ؟ فحددوها بأن يعلنَها الأميرُ ، وأن تكونَ عادلةً ، واشترطوا فيمن يعلنُها أن يكونَ سليمَ النيةِ صادقا بلا طمعٍ ولا وحشيةٍ .

والحربُ في نظر هؤلاء المصلحين من المسيحيين تعتبر وسيلة لتنفيذِ حكمٍ عادلٍ قَضَى به قاضٍ ، فلا تَبْعثها الأنانيّة وإنما يَحدُوها العدلُ وتَلبَسُها الرحمة .

ولا يسمحُ المَقامُ بسردِ النظرياتِ المسيحيةِ وتطوّرِها ، فيمكن للراغبين في التفصيل الرجوعُ إليها في مراجعِها .

لجوء المسيحيين إلى شبيه بالنظرية الإسلامية

ولكننا نستخلصُ من ذلك الجدلِ وتلك الأبحاثِ ، بعد أن دامت أكثرَ من ألفِ سنةٍ ، أنها اهتدت إلى مبادئَ هي أشبهُ شيءٍ بالقواعدِ الإسلاميةِ للحربِ المشروعةِ والحربِ العادلةِ التي أشرنا إليها

في هذا الفصل وما قبله .

وفي اعتقادي أن القواعدَ الإسلاميةَ هي الأسسُ الصحيحةُ التي جمعت بين ما يَقتضيه إقامةُ صرحِ العدلِ العالَميّ ، وما تقتضيه الرحمةُ والأخوّةُ البشرية ، وما يقتضيه الإنصاف وكبح أهواء النفوس الشرّيرة ، وما يقتضيه صونُ الدماءِ وإقامةُ السلمِ الدائمة على حرمةٍ مقدسةٍ .

لذلك فإني أدعو ذوي البصيرة والنظر لاستمداد الشريعةِ المحمديةِ في وضعِ نظامٍ للعلاقات الدولية والسلمِ العالميِّ ؛ فعلى ضوءِ المباديءِ الساميةِ العَمَليةِ التي دعا إليها محمدٌ صلى الله عليه وسلم يمكنُ تجديدُ ميثاقِ جامعةِ الأممِ ، ويمكنُ اجتنابُ اتخاذ الحربِ وسيلةً لتحقيقِ الأغراضِ والمطامعِ البشريةِ .

« ولتكنْ منكم أمّةٌ يَدْعُون إلى الخيرِ ويأمرونَ بالمعروف وينهَوْن عن المنكر » .

ولتكن روح هذه الآية الكريمة روحَ الميثاق الدولي :

«وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتَتَلوا فأصلِحُوا بينهما ، فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تَفِيءَ إلى أمر الله ، فإن فاءتْ فأَصْلِحوا بينهما بالعدل وأَقْسِطوا إن الله يحب المقْسطين » .

ولا شك أن هذا النظامَ للمؤمنين يمكنُ أن يكونَ نظامًا للناسِ جَميعًا ، ويمكنُ للدول الإسلامية أن تتعاهدَ عليه ، وأن تقاتِلَ لاحترامه وردِّ من يَنتهكُ حرمتَه .

نصرة المظلوم ضرب من التكافل

« وبعد » فالحربُ لنصرة المظلوم لا يرادُ بها أغراضٌ دنيوية ولا تحقيقُ مطامعَ دوليةٍ ، ولا شفاءُ حسدٍ أو حقدٍ ، وإنما تقعُ لمجرد إحقاقِ الحق ودفعِ الباطل . وهي حالةٌ ظاهرُها التدخلُ بين طرفين آخَرَيْن والاعتداءُ على أحدهما لنصرة الآخرِ ، إلا أن حقيقتَها الدفاعُ ، لأن المقصود منها ردُّ العدوانِ عن مستَضْعَفٍ . وإذا اعتبرنا أن التكافلَ البشريَّ سببُ العُمران ، وأن العدل أساسُه ، فالحَيْلُولَةُ بين المعتدي وبين نقضِ أساس العُمران هي دفاعٌ عن العمران نفسه ، وهو على هذه الصورة دفاعٌ حتى عن المعتدِي بمَنْعِه من شرِّ نفسه . وإذا قيل إن هذا يَأْذَنُ بالتدخل المستمرّ في شئون الغير ، والتدخلُ اعتداءٌ من الدولة الإسلامية ، وقيل إن الدولةَ غرضُها نفسُها ، وليس لها أَن تقيمَ من نفسها شُرَطِيًا عالَمِيا ، قلنا إن هذه هي الحالةُ الوحيدة في نظرنا ، وهي مبرَّرَةٌ ، وإن العالَم يُحِسُّ من أعماق نفسِه الحاجةَ إلى من يُنْصِفُ المستضعَفَ ، وإنّ العالم بعد أكثرَ من ثلاثَةَ عشرَ قرنًا من حِلْفِ الفُضُول وحلفِ خُزاعةَ ، حاول أن يقيم في ميثاق هيئة الأمم المتحدة عهدًا مماثلاً لما أراده الإسلامُ من نُصْرةِ المظلومِ ، فأقر مبدأَ التدخلِ الدولي للسلامة الدولية ، ولإحقاق الحقّ وإزهاق الباطِلِ . والعبرةُ في الأعمالِ بالنيةِ ، فهي التي تُصْلِحُ الأعمال أو تفسدُها . ولا شك في حسنِ نيةِ الدولة الإسلامية ما دام الباعثُ لها على التدخل الذي يَجُرُّ إلى الحرب هو ما يُوصِي به الضميرُ وتستلزِمُه العقيدةُ من غرضٍ سامٍ يُقصَدُ به وجهُ الله وَحْدَه وإحقاقُ الحقِّ .

أدب الحرب

الحرب والرق والقضاء عليهما تدريجيًا – أدب عام وأدب خاص – بين الإنذار والمباغتة – حماية حقوق المستأمن المنتسب للعدو – من سماحة الفقهاء – واصل بن عطاء والخوارج – مسالمة غير المحاربين – الغارات العصرية على الآمنين – فرار إلى وصايا الرحمة في الأديان – التخريب القاسي – حوادث ونصوص – نظرات في أحكام الأسر والاسترقاق – حادثة بني قريظة وغموض بعض ظروفها – لا قتل بسبب الشرك أو الكفر وحده – احترام للنفس البشرية لا يعرف التخصيص – آداب أخرى للحرب

أجازت الدعوة المحمدية الحرب في أضيق نطاق كما تغاضت عن الرِّق لأنه كان أيضا نظاما عالميا ، وعَمِلت تَدْرِيجيًّا على منع الحرب ومنع الرق بأَساليبها المختلفة ، وجعلت القاعدة العامة بالنسبة للأسير الْمَنّ أو الفِداء ، فصار تشريعها العامّ بالنسبة للأسير مانعًا للرِّق . وبالحضّ بجميع الوسائل على تحرير الرقيق ، وتخصيص سهم من الزكاة لفك الرقاب ، وبالإِحسان إليه وفقا لآدابٍ خاصّة تستلزمها الشريعة ويستلزمها الوَرَع ، قاومت الدعوة المحمدية الرِّق مقاومة كانت بالتدريج أفعلَ في تهيئة الضمير البشري للقضاء عليه من المُفَاجَأَةِ بالتحريم الباتّ .

الحرب والرق والقضاء عليهما تدريجيًا

كذلك الحربُ ، جاءت الدعوة المحمدية والقتالُ نظامٌ عام متأصّل في نفوس البشر وفي حياتهم الاجتماعية ، فلم يبدأ الإسلام بتحريمها ،

ولكنه حَصَرَها في دَفْع العدوان ونصرة المظلوم فحدد أغراضها ، ثم أمر بوقفها بمجرد جنوح الخَصْم إلى السلم ، وأنْهَاها بالعهود والمَواثيق التي لها حرمة الإيمان ، حتى جعل حقَّ الميثاق فوق حق صلة الإسلام . فأحاط الحرب بحدود ونُظُم وأسبابٍ وأغراض وعهود وعُرُف في أثناء القتال ، مما يقلل وقوعَها ويخفِّفُ من وَيْلِها . ولو أن المسلمين وُفِّقوا في هذه كما وفقت الدعوة المحمدية في مقاومة الرِّق لشمل العالمَ سلام دائم كما شمله اليومَ النُّفور من الرق . وإنّا لنرجُو أن يستدرك هَدفها وتسود نظريتها ، وقدطغى شر الحرب إلى درجة غير مسبوقة . ولا يزال أمام العالَم مجالٌ إذا اهتدى بهدى الإسلام .

أدب عام وأدب خاص — عرفَت الدعوة المحمدية الحربَ شرًّا واقعا متأصّلا فأحاطتها بأدب عامّ من تعيين غرضِها ، وحَصْرِها في دفع العدوان وحمايةِ حرية العقيدة ، وإنهائها بالعهود المصونة العادلة ، وإحاطتها كذلك بأدبٍ خاصٍّ أثناء الحرب نفسِها ، وفيما يجبُ أن يكون بين المتحاربين من

الإنذار — عُرْفٍ يَرْعَوْنه فمتى وقع بين المُسلمين وغيرهم ما يستوجب الحربَ ، وجب على المسلمين أن يُنْذِرُوا عَدُوَّهم بِنِيَّتهم ، ويُمْهِلوه للردّ والتفاهم إن أراد . وقد قال بعض الفقهاء إن هذه المُهْلة التي تعقب ما يسمى اليوم بالإنذار النهائيّ يجب أن تكون كافية ليُخْبِر العدوُّ بها أطرافَ أهله وَدَوْلته ، وهو أدبٌ يتفق مع القانون الدولي الحديث . ولكن بعض الدول في هذا العصر تختار المُبَاغَتَة بالحرب والهجوم على الخصم من غير

إنذار ، بل قد بلغ من احتياط بعضها لتتمكن من تمام المُفاجأة للدولة الأخرى أن تتظاهر بالرغبة في دوام السلم ، وأكثر من ذلك أن تُخْفِيَ غَضَبَهَا وتُظْهِرَ عدم اهتمامها بالنزاع الذي تنوي الحربَ من أجله !

افْتَنّ أهل الحضارة الحديثة في الخديعة إلى درجةٍ غيرِ مسبوقة في تاريخ الأقوام ، حتى صاروا يعقدون عهودا المقصودُ منها تغفيل المعاهَد وطمأنته ، حتى تكون مباغتته وأخذُه على غِرَّةٍ كاملة .

ذلك أدب جديد ، أو سوءُ أدبٍ جديد في الحروب ، ليس أبغضَ إلى الإسلام منه . والشريعة المحمدية تأباه رُوحًا وفعْلًا ، وتَعُدُّ فاعلَه آثمًا مستحقًّا غضب الله .

حماية حقوق المستأمن المنتسب للعدو

والشريعة الإسلامية بعد أن تُنْذِرَ الخَصْم بالحرب ، وبعد أن تنقطع الحجة ، لا تلجأ إلى مثل ما تلجأ إليه الدول في العهد الحاضر من مفاجأة المستأمَنِين في ديارها من رعايا الدولة أو الجماعة التي أعلنت عليها الحرب ؛ فللمُسْتَأمَن في الشريعة الإسلامية حقوق لا يمكن العدوانُ عليها لمجرّد وقوع الحرب بين قومه والقومِ الذين ينزِلُ ديارَهم ، أو يقع في متناوَلِ سلطانهم ، فلا يجوز الاعتداء عليه بمصادرةِ مالِه ، أو الإضرار بعمله أو شخصه ، وله كفالة كل ذلك حتى تُهَيَّأَ له العودةُ إلى وطنه الأصليّ ويَدْخُلَ في حماية قومِه . عندئذٍ وعندئذٍ فقط يجري عليه ما يَجْرِي على المحاربين ، وذلك بنصِّ القرآن بقوله تعالى «وإن أحدٌ من المشْرِكين استجارَك فأجِرْه حتى يسمَعَ كلامَ الله ثم أَبْلِغْه مأْمَنَه». وقد

بلغ من حرص المسلمين على احترام حقِّ المقيم في ديارهم والنازل بها عن رِضًا منهم قبل الحرب أو حتى أثناء الحرب ، أن قرر فقهاؤهم أنه يجب على الإمام إذا وَقّتَ للمستأمَنِ مدةً ألا يجعل هذه المدة قليلة كالشهر أو الشهرين ، فإن في ذلك إلحاق العُسْرِ به ، خصوصًا إذا كانت له معاملات يحتاج في اقتضائها إلى زمن طويل...

من سماحة الفقهاء

وقد بلغ من إنصافهم هذا الأجنبيَّ المقيم في ديارهم ، والذي يقاتلون أهلَه ودولته ، أن أباحوا له التمتُّع بكامل حُرِّيته ، كأنْ لم تكن بينهم وبين أهلِهِ حربٌ ، ما دام خاضعًا لأحكامهم ، مستقيمًا في سيره وعمله ولم يَرْكَن إلى أذاهم بحال من الأحوال.

أقام الإسلام هذا الأدب مع المستأمَنِ في حالة الحرب على أساس العدل والإنصاف. وما الحروب في جملتها إلا نتائج مباشِرة لفقْدان العدل والإنصاف.

لطيفة بين واصل ابن عطاء والخوارج

ومن أظرف ما قرأتُه مما يدُلُّ على مقدار ما للمستأمَن من حرمة ، ما رُوِي من أن واصل بن عطاء «زعيمَ المعتزلة» وقع هو وبعض أصحابه في أيدِي الخوارج ، وهم كما هو معلوم من أشدِّ المسلمين تَمَسُّكًا بأهداب الدين وتعصبًا في آرائهم . فخشي واصلٌ وأصحابُه شرّهم ، فقال لأصحابه : دَعُوني وإيّاهم ، وكانوا قد أشرفوا على العَطَبِ ، فقالوا : شأنَك ، فخرج إليهم ، فقالوا : ما أنت وأصحابُك؟ قال : مُشْرِكُونَ مُستجيرُون ليَسْمَعوا كلام الله ويعرفوا حدوده. فقالوا : قد أجَرْنَاكم. فجَعلوا يعلّمونه

أحكامهم ، ثم قالُوا : امْضُوا مُصَاحَبِين فإنكم إخواننا . قال واصل : ليس ذلك لكم فإن الله تبارك وتعالى يقول : « وإن أَحَدٌ من المشركين استجارك فأَجِرْه حتى يَسْمَعَ كلامَ اللهِ ثم أبلِغْه مأمَنه » فأبْلِغُونا مأمَنَنا . فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا : ذلك لكم . فساروا بأجمعهم حتى بَلَّغوهم المَأْمَن .

تلك القصة تدل على أن الحُرْمَةَ التي للمستأمَن كانت في نظر بعض أنصار الدعوة المحمدية أعظم من الحُرْمَةَ التي للمسلم على المسلم ، حتى إن أحد علماءِ المسلمين وجد فيها خَلَاصًا لنفسه ومَن معه من يدِ مسلمين أشرارٍ يقطَعُون طريق السابِلة ويعصُون الإمام .

مسالمة غير المحاربين

ومن القواعد الأساسيّة التي بُنِي عليها أدب الحرب في الدعوة المحمدية ذلك المبدأ السامِي ، وهو الامتناع عن محارَبة غير المحارِبين وقصدِهم بالأذى ؛ فهو لا يُجيز قتلَ الشيْخ أو الصبيّ أو المرأة أو العجَزة ، أو من انقطعوا للعبادة أو العلم وامتنعوا بذلك عن أن يشترِكُوا في القتال ، أو العامَّة من الصُّنَّاع والزرّاع والتجار الذين لا يقاتلون ، أو بعبارة أعمّ ، تلك الطبقات التي نطلق عليها اليوم : المدنِيّين .

هؤلاء المَدنيون لا يجوزُ قتلهم ، وقد بلغ من حرص الشريعة على تجنيبهم وَيْلاتِ الحروب وإبعاد شرها عنهم ، وحصر الضرر في القوّاتِ المقاتلة أن الفقهاء قالوا بوقف القتال إذا وقع بين صفوف المقاتِلين من لا يجوز قتله ، وكان هلاكه محققًا بالاستمرار في القتال .

أين هذا الأدبُ ونُبْل الفروسية مما نحن فيه وما صار الناس إليه في الحرب الأخيرة والتي قبلها من إلقاء القنابل على غير هدى، تصيب النساء والأطفال والزرّاع والصنّاع والشيوخ والعجزة فتنسِفُ بهم الأرض نسفًا، أو تحرِقهم وديارَهم حرقًا؟!

أين تلك الحرمةُ للنفوس البشرية؟ وأين تلك النظرةُ للحرب على أنها تحكيم للسيف بين حامِليه وحدهم من هذا الأدب الحديث الذي لا يُشبهه من قرب إلا ما قيل عن المغُول أيام «جنكيزخان» ومن بعده، مما لا يزال مثلًا في الغابرين لأقسى ما وصلت إليه وحشية الهَمَج في قتل غير المحاربين، وتخريب المدن والقرى؟!

ليس لما يأتيه اليومَ المتحضرون بغاراتهم الجوية، أو مدفعياتهم الأرضية شبيهٌ في السُّوء والقسوة إلا ما كان أيام ذلك الطاغية المغولي قبل سبعة قرون، بل إن ما يحدث اليوم من استباحة كاملة لكل الحُرُمات بالغارات الجوية منقطع النظير. والشريعة الإسلامية تحرّمه وتأباه في سلطانها وضعفها غالبةً أو مغلوبةً. وإن أباح الفقهاء الرد على أعمال التخريب والتقتيل غير المباحة بمثلها متى ابتدأ بها الخصم، مستندين على قوله تعالى «فمن اعتدى عليكم فاعتدُوا عليه بِمِثْلِ ما اعتدى عليكم» وقوله «وجزاءُ سيئةٍ سيئةُ مِثلُها فمن عَفَا وأصلحَ فأجره على الله» فهم متفقون على تحريم الابتداء بهذه الأعمال. وواضح من نص الآية ورُوحِها أن المقصود الردُّ بالمثل لإنذار الخَصْم وإقناعه بالعدول عما

اقترف من إثم. وقوله «فمن عفا وأصلح فأجره على الله» هو توكيدٌ كذلك لرغبة الشارِع في ألّا يُجَابَ على أعمال العُدوان المخالِفة للرحمة والأدب إلا إذا قضت الضرورة القصوى.

أين هذا العُرْف الدولي والأدب الحربيُّ الذي تريد تثبيتَه الدعوةُ المحمّدية، فتجعله جزءًا من العقيدة والإيمان مما تفعله الدول اليوم من التعويل على وسائل قتل المدنيين وتخريب العَمار وحرق الناس وأموالهم وثمرات الأرض لتُخْضِع خصومها وتجبرهم على إلقاء السلاح!

الغارات العصرية على الآمنين

بل أين هذا مما فعلته بعض دول الحضارة الحديثة من استخدام الأسلحة الجوية بقنابلها ومدافعها الرشاشة لقتال بَدْو لا يملكون من وسائل الحربَ غيرَ بنادق من بقية القرن الماضي، وتسليط هذه المدافع الرشاشة على بيوت من الشَّعر، وعلى السائمة من الإبل والغنم في مراعيها؟!

فرار إلى أخلاق الرحمة في الأديان

حقًا لقد آن أن يَفْزَع الناس إلى عقائدهم.. إلى ما جاء به موسى وعيسى ومحمد، لتكون للحرب حرماتٌ وآدابٌ تخفف من وَيْلِها، وقد كان الهمج يعرفون بعضها ويَرْعَوْنه.

وأين ما نحن فيه مع شديد الأسف والحزن مما وصلت إليه الدعوة المحمدية من الآداب في الحرب، وتقريرها أن ليس المقصود من الحرب التنكيل والتخريب، بل أن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الله لا تكون إلا حقًا وعدلًا وإنصافًا شاملًا للناس جميعًا؟!

هذا المبدأ مبدأ الرفق والرحمة حَرَّم على المسلمين في حروبهم أن

يلجأوا لقهر عدوهم بتجويع الأمة المحاربة، أو منع أسباب الحياة من قُوتٍ أو دواء أو لباس من الوصول إلى غير المحاربين منها.

التخريب القاسي

ولقد بلغت القسوة في الحروب الحديثة أن الجيوش إذا انسحبت من أرض دمّرت ما بها، ولو كان في ذلك هلاك أهلها فضلًا عن أعدائها. وهو عمل لا تبيحه الشريعة المحمدية بحال من الأحوال. فهي فوق أنها لا يمكنها أن تتصور الاعتداء على ممتلكات أهلها ممن تتركهم الجيوش الإسلامية وراءها، ممنوعةٌ قطعًا بدِينها من أن تحْرِق الزرع أو تقطع الشجر أو تَحْرِم المدنيين المقيمين وسائلَ العيش في الأرض التي صارت ساحةً للجيوش المتقدمة والمتأخرة.

ولا خلاف بين المسلمين في أنه يَجُوزُ في الحرب قتلُ المشركين الذّكران البالغين المقاتلين، وكذلك لا خلاف بينهم في أنه لا يجوزُ قتلُ صبيانهم، ولا قتل نسائهم ما لم تقاتِلْ المرأة أو الصبي (١)، وإن اختلفوا فيما عدا هؤلاءِ. والنَّهْج الواضح هو أنه لا يصِحُّ القصد بأذى لمن ليس شأنه القتال ممن نسمّيهم اليوم المدنيين، ولا تخريبُ العَمار وحرقُ الزرع وقطعُ الشجر.

حوادث ونصوص

رَوَى رَبَاح بنُ ربيعة: أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوةٍ غزاها، فمرّ رسول الله وأصحابه على امرأةٍ مقتولة، فوقف عليها، ثم قال «ما كانت هذه لِتقاتَل!»، ثم نظر في وجوه أصحابِه

(١) نظر بداية المجتهد ونهاية المقتصد للإمام ابن رشد.

وقال لأحدهم «اِلْحَقْ بخالد بن الوليد فلا يَقْتُلَنَّ ذُرِّية ولا عَسيفًا (أَجيرًا) ولا امْرأَة » .

وروَى مالكٌ عن أبي بكر الصديق أنه قال « ستجدُون قومًا زعموا أنهم حَبَسُوا أنفسهم لله ، فدعُوهُم وما حَبَسُوا أنفسَهم له ، ولا تَقْتُلُنَّ امرأَةً ولا صبيًا ولا كبيرًا هَرِمًا » .

وقال زيد بن وهب ، « أتانا كتاب عمرَ رضى الله عنه ، وفيه « لا تَغُلُّوا ولا تَغْدِروا ولا تقتلوا وَليدًا ، واتقوا الله في الفلّاحين » ، وروى كذلك عن عُمرَ أنه قال « لا تقتلوا هَرِمًا ولا امرأَةً ولا وليدًا وتَوَقَّوا قتلَهم إذا التقى الزّحْفان وعند شَنِّ الغارات » . ويقول الإمام ابن رُشْدٍ « إنه ثبت عن أبي بكر رضى الله عنه أنه قال لا تَقْطَعَنَّ شجرًا ، ولا تُخَرِّبَنَّ عامِرًا » . ولا يجوز لأبي بكر أن يخالف رسول الله مع علمه بفعله من قطع نَخْل بني النَّضِير . والفقهاء يفسرون ذلك بأن أبا بكر رضى الله عنه كان يعلمُ أن حادثة بني النضير التي تشير إليها سورة الحشْر كانت خاصّة ببني النضير ، كما أنه لا يُعْرفُ عن رسول الله أنه قتل حيوانًا ، والمسلمون متفقون على تحريم المُثْلة ؛ ولم يذكر الكتاب الكريم حادثة بني النضير في سورة الحَشْر بتفصيلٍ غير الإشارة إليها في سياقِ القِصّة والموعظة ، كما لم يُشِرْ إلى حادثة بني قُرَيْظَة إلا على سبيل العظة كذلك بهذه الآية في سورة الأحزاب : « وأَنْزَلَ الذين ظَاهَرُوهم من أهل الكتاب من صَياصِيهم وقَذَف في قلوبهم الرُّعْبَ فريقًا تقتلون وتأسِرُون فريقًا .

وأَوْرَثكم أرْضَهم ودِيَارَهم وأموالَهم وأرضًا لم تَطَئُوها وكان الله على كل شيء قديرًا ».

نظرات في أحكام الأسر والاسترقاق

وليس في القرآن الكريم نصٌ واحد على قتل الأسير، ولا على استرقاقه، ولم يُرْوَ عن رسول الله أنه استرقّ أسيرًا. والنص الصريح هو تخيير الإمام بين أمرين لا ثالث لهما: المن والفداء. يقول تعالى: «حَتى إذا أَثْخَنْتُمُوهُم فشُدُّوا الوَثَاق، فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وإما فِدَاءً حتى تَضَع الحرب أوزَارَها». ويقول الإمام ابن رشد روايةً عن الحسنِ بن محمد التميمي، إن إجماع الصحابة على أنه لا يجوز قتل الأسير.

فالتشريع العامّ إذًا هو أنه لا يجوز قتل المدنيين، ولا قتل المحاربين بعد تسليمهم؛ وما شَذَّ عن ذلك في الماضِي، أو ما يَشِذُّ عنه في المستقبل من عَمَل الإمام المسلم العادل، إنما يكون لظروفٍ وأسباب خاصّة تقتضي تَخْصِيصًا في الحكْم.

حادثة بني قريظة وغموض بعض ظروفها

وحادثة بني قريظة تحيط بها أسباب معلومة وأسباب نجهلها. أما المعلوم فهو أنهم خانُوا عَهدهم واستغَلُّوا ظروف كربٍ وقع للمسلمين لمّا حَاصَرَت الأحزابُ المدينةَ، وقد زاغَتْ الأبصار وبلغت القلوبُ الْحَناجِرَ، فنقَضُوا عهدهم، وَطَعَنُوا المسلمين من خَلْفهم.

وسببٌ آخرُ، هو أنهم نزلوا على حكم سيّد الأوس سعد بن معاذ، وهم من مَوَاليه فحكمَ فيهم بما حكم؛ فهم سَلّموا على شرط، وكان الشرط عليهم. وقيل كذلك، إن ما حكم به عليهم من القتل جاء

موافقًا لشريعة اليهود، وإن سعدًا حكم عليهم بشريعتهم. والحادث في جملته يُشْعِرُ بغُمُوض يكتنفه، مما يدعونا إلى الظن بوجود أسباب أخرى مجهولة لنا.

لا قتل لعلة الشرك أو الكفر وحدها

وما يبرر به بعض الفقهاء قتلَ المشركين أو مَنْ في حكمهم بعِلّة الكفر أو الشرك وحدها، لا يستقيم في نظرنا مع نصوص الكتاب الكريم وروحه في موضوع القتال، ولا مع عمل النبيّ والمسلمين في فتوحاتهم أربعين سنة من الهجرة إلى نهاية أيام الخلفاء الراشدين.

أدلة العقل

والقول بالقتل لعِلَّة الكفر لا يستقيم في دين يجعلُ لقَتْل رجل مشرك من قوم لهم ميثاقٌ ما للمؤمن من حق. يقول تعالى «وإن كان من قوم بينكم وبينَهم ميثاقٌ فِديَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهله وتحريرُ رقبَةٍ مؤمنة». بل ميّزه على المؤْمِن من قوم ليس لهم ميثاق.

أدلة التاريخ

ولو كان القتل لعلة الكفر أصلًا كما يقول بعض الفقهاء لَقَتَلَ النبيّ مُشْركي مكة أثناء فتحها، ولَقَتَلَ مشركي هَوَازِن بعد «حُنَين»، ولما حالف النبي صلّى الله عليه وسلم خزاعة وهي مشركة، ولكان المسلمون في فتوحاتهم من الهند إلى فرنسا وَباءً على العالم، ما تركوا على ظهر هذه الساحة من الكفار حيًّا. وقد رُوي عن رسول الله حوادثُ كثيرة في العفْو والرحمة مع خصوم أَشِدَّاء ومع قَتَلة أعزّ أصحابه وأهله. ويكفي أن نقرأ في كتب السيرة معاملته بعد فتح مكة لعِكْرِمة بن أبي جهل وصفوان بن أُمَـيَّة، وهما عَدُوّان وابْنا عدوين له، وعَفْوَهُ عن وَحْشِيٍّ

قاتل عمه حمزةَ ، ولم يكن إلا عبدًا حَبَشِيًّا لا في العِير ولا في النفير ، وصفحَه عن أبي سفيانَ بنِ الحارثِ بن عبد المطلب ، بعد أن أسرف في خصومته وهَجْوِه. فهذه أمثلةٌ واضحةٌ على العدل الذي يأبى قتل المدنيين ، أو قتل الأسرى ، أو من جنحوا إلى السلم.

رفع إليه صلى الله عليه وسلم بعد إحدى الوقَعات أن صِبْيَةً قُتِلُوا بين الصُّفوف ، فَحَزِن حُزْنًا شديدًا ، فقال بعضهم : ما يُحْزِنُك يا رسولَ الله وهم صبيةٌ للمشركين؟ ! فغَضِب النبيُّ وقال ما معناه : إن هؤلاء خيرٌ منكم ، إنهم على الفِطرة. أوَ لَستُم أبناء المشركين؟ فإيا كم وقتلَ الأولاد ! إيا كم وقتلَ الأولاد !

ويَرْوِي البخاريُّ عن جابر بن عبد الله قال : مرت بنا جنازة فقام لها النبيّ وقُمْنا ، فقلنا يا رسول الله : إنها جنازة يهودي. فقال «أَوَلَيْست نفْسًا ؟ إذا رأيتم الجنازة فقوموا » .

احترام للنفس البشرية بدون تخصيص

فهذا احترام للنفس البشرية لا يعرف التخصيص ، ولا يمكن أن يُجِيز قتلَ غير المحاربين ، أو قتل الأسرى لعلّة الكفر وحدها.

فنحن مطمئِنون تمامَ الاطمئنان لما ذكرنا من تحريم قتل المدنيّين وتجويعهم ومن تحريم تخريب العَمار والزرْع والشجر ، وقتْل الأسرى ، وتحريم المُثْلة والإجهاز على الجرحى.

ونعتقد أن الوسائل الحديثة من الغارات الجوية وما يترتب عليها ، والرماية بالمدفعية على غير هدى ومن غير إنذار على المدنيين أطفالًا

ونساءً ، شيوخًا ومرضى ، زُرَّاعًا وأُجَرَاءَ ، في البر أو البحر أو الجو ، لا تبيحها الشريعة المحمدية.

آداب أخرى للحرب

وقد جاءت السنّة والعُرْف بآداب أخرى كثيرة للحرب ، من مجاملة رُسُلِ العدو وعدم التعرض لهم بأذى ، ومن الإحسان للأسرى بما جعلهم مستحقين للبر ، مُتساوين في ذلك مع أيتام المسلمين وفقرائهم. يقول تعالى «ويُطْعِمون الطعام على حُبِّهِ مِسْكِينًا ويتيمًا وأسيرًا. إنما نُطْعِمُكم لوجه الله لا نُريد منكم جزاء ولا شُكُورًا».

السّلم الدّائمة

السلم دائمة والحرب طارئة– دفع تهم وأوهام– من أسباب اضطراب السلام–
نصوص في تدعيم حياة السلام– روح سلمية واحدة في مكة والمدينة–
شهادة الأجانب – شهادة التاريخ

السلم دائمة والحرب طارئة

لِننظرْ في أساسِ العلاقاتِ الدولية في نظرِ الدعوة المحمدية ، هل هو قائمٌ على فرضٍ أن الحربَ هي الحالةُ الدائمة بين جماعةِ المسلمين وغيرِهم ؟ أو أنها حالةٌ عارضةٌ والسلم الدائمة هي أساسُ العلاقاتِ الدوليةِ ، يَنْقُضُها العدوان والظلم وحدَه ؟

دفع تهم وأوهام

يظن بعضُ الناسِ ، لِمَا صَحِبَ الدعوةَ المحمدية في العصر الأول من الفتوحات والحروب ، أنها دعوةٌ قامت على السيف وتقوم به ، ويظنون كذلك أن الإسلام بصفته دينًا وبصفتِه دولةً ، في حالةِ نزاع دائم مع مَن يخالفُونَه في ديارِه وخارج ديارِه ، وأنه يُشْبِهُ بعضَ الأديانِ الأخرى في اختصاصه بإلهٍ هو للمسلمين خاصةً ، وهو معهم دون سواهم ، أو كبعض الأديان التي جاءت في أول عهدها برسالةِ السلام على أشملِ معانيها فحرَّمت الحربَ وأيضًا صناعةَ الجندية ، ثم انقلب رؤساؤُها الدينيونَ وانقلبت مؤسساتُها اللاهوتيةُ إلى النقيضِ ، فأباحت الحربَ وباركت الحِرابَ والمدافعَ فضلًا عن الجندِية ، ووصل بها الغلوُّ في عهودٍ

طويلةٍ إلى إهدار دماءِ المخالفين في الدينِ ، بل إهدارِ دماءِ المخالفينَ في بعضِ مظاهر الدين وطقوسه لأهلِ الطائفةِ الواحدة ، بل وصل الحال بهؤلاء الرؤساءِ الدينيينَ أنهم حرموا على الأمراء من دينِهم أن يهادِنُوا مخالِفيهم في المذهب فضلًا عن مخالفيهم في الدين ، فجعلوا لأنفسهم حقَّ فسخِ العقود والمواثيقِ ونقضِ الأَيْمانِ التي يرتبط بها أمير مع أمير أو ملكٌ مع ملك آخر ، أو دولةٌ مع دولةٍ ، وإن كان من شأنِها أن تَصُون الدماءَ وأن تقيم العدلَ بين طوائفَ متناحرة ، فلم تكن للمواثيق والأَيْمَان في نظرها حرمةٌ ، لأن الملحد والكافر ، بل المنشقَّ والمخالفَ في المذهب مهدورُ الحق ، فلا حرمةَ لعهدٍ معه إذا جازت مفاوضتُه ومعاهدتُه .

من أسباب اضطراب السلام

وبذلك اختل نظام الاجتماع كله ، بل استحال قيامُ نظام دوليٍّ ، لأن زعماءَ الأديان كانوا يملكون حَلَّ الناسِ من أَيْمانِهم وعهودِهم ، وكانوا يَفترضُون أن الأصل هو الحرب مع المخالف ، وأن السلمَ عَرَضٌ يُنْقَضُ بمجرد القدرة على نقضِه ، وأنه لا ذمّةَ لكافرٍ أو منشقٍّ على الإطلاقِ .

وذلك كلُّه عكسُ ما جاءت به الدعوةُ المحمديةُ ؛ فهي أولًا تدعو إلى إلٰهٍ هو ربُّ العالمين ، منزه عن الغرضِ والهوى ، خلق الجميعَ على فطرة واحدة ، يهدِي من يشاء ويضِلُّ من يشاءُ ، وهو القاهرُ فوقَ عباده ، لا سلطان لهم مع سلطانِه يقول « ولو شاء رَبُّك لجعل الناس أُمَّةً واحدةً » .

هذه الدعوةُ من شأنها أن تفرضَ أن حالةَ السلمِ بين الناسِ د ئمةٌ ، وأنها هي الأصلُ ، وأن عدوانَ بعضهم على بعض هو وحدَه الذي يُزْعِجُ هذه السلمَ ، ويُضْرِمَ لَظَى الخُصومة ، ولذلك اعْتَبَرَت الحربَ حالة ضرورةٍ يُطْلِقُها من عِقالها العدوانُ والظلم ، ويُبيحها التكافل البشريُّ ، فتقع كذلك لنصرة مستضعَفٍ مظلوم مستصرِخٍ .

وقد بينا فيما سبق كيف كان الإذنُ بالقتالِ ، وما هي أسباب الإذنِ ، كما بينَّا ماهيَّة الحرب المشروعة ، مما يعين على تَفَهُّمِ الدعوة المحمدية ، ومما يبيّنُ أن الحربَ التي أباحتها الشريعة تقعُ استثناءً للقاعدة العامة ، وهي السلمُ الدائمة بين البشر .

نصوص في تدعيم حياة السلام

ونجد أدلّةً أخرى من الكتابِ والسنّةِ ، وما جرى عليه المسلمون . يقول صلى الله عليه وسلم « لا تَتَمَنَّوْا لِقاءَ العدوّ وسَلوا اللهَ العافيةَ » . فهو ينهي عن الرغبةِ في الحربِ وتمّنيها ، حتى مع العدوِّ ويسأَلُ الله أن يديمَ نعمة السلمِ .

وفي البخاريِّ أن رجلًا جاء إلى النبي ، فقال : الرجلُ يقاتِلُ للمَغْنَمِ ، والرجلُ يقاتِلُ للذِّكْرِ ، والرجلُ يقاتل لِيُرَى مكانُه ، فمَنْ في سبيل اللهِ ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « من قاتلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العليا فهو في سبيلِ اللهِ » .

وهذا واضحٌ في نقض معظم أسبابِ الحروبِ التي قاسى العالمُ ويْلاتِها ، وحَصْرِها في الحقّ والعدل الذي يُرِيدُه اللهُ ، وواضحٌ في

أن الأصلَ هو السّلمُ .

وكان صلى الله عليه وسلم يومَ الأحزاب ، والحربُ قائمة ، ينقلُ الترابَ ، وقد وارَى الترابُ بياضَ بطنه ، ويَحْفُرُ مع أنصارِه الخندقَ ويُنْشِدُ .

لاَهُمَّ لولا أنتَ ما اهتديْنَا ولا تَصَدَّقْنَا ولا صَلّيْنَا
فأَنْزِلَنْ سَكِينَةً علينَا وثبِّتِ الأَقْدَام إنْ لاقيْنَا
ان الالَى هُمْ بَغَوا علينَا إذا أرادُوا فتنةً أبيْنَا

ففي هذا النشيد تتجلى روح التقوى والتنزه عن البَغْي الذي يفعله الخصومُ والدفاع عن حقهِ في اختيارِ دينهِ الذي تريدُ الأحزابُ أن تَفْتِنَه فيه وتَرُدَّه عنه .

فلو لا هذا البغيُ لاستمرَّت السلم التي هي الأصلُ .

ثم لننظرِ ونتبصّر في هذه الآيات الجليلة بِرُوحها ونَصِّها .

يقولُ تعالى « يأيها الذين آمَنُوا ادْخُلُوا في السِّلْمِ كافّةً ولاَ تَتّبِعُوا خُطَواتِ الشيطانِ إنهُ لكم عدوٌ مبينٌ » ، ويقول تعالى « وإن جَنَحُوا للسَّلْمِ فاجْنَحْ لها وتَوَكَّلْ على اللهِ إنه هو السميعُ العليمُ . وإن يُرِيدُوا أن يَخْدَعُوكَ فإنَ حسْبَك اللهُ » ، ويقولُ تعالى « ولا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إليكم السلامَ لستَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحياةِ الدُّنْيَا » .

---

(١) بمعنى اللهم .

ويقول « لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عن الذينَ لم يقاتِلُوكُمْ في الدين ولم يُخرِجُوكم من ديارِكم أن تَبَرُّوهم وتُقْسِطوا إليهم إن اللهَ يحبُّ المُقسِطين » . « فإن اعتَزلوكم فلم يقاتلوكم وأَلْقَوا إليكم السَّلَمَ فما جَعَلَ اللهُ لكم عليهم سبيلاً » .

ثم لننظر إلى رُوح السلم والمحبةِ التي تَشِعُّ من هذه الآيات الجليلة .

يقولُ تعالى خِطابًا لرسوله « فلذلك فادْعُ ، واستَقِمْ كما أُمِرْتَ ولا تتبعْ أهواءَهم ، وقل آمنتُ بما أَنْزَل اللهُ من كتابٍ ، وأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَينكم ، اللهُ رَبُّنَا وربُّكم ، لنا أعمالُنا ولكم وأعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، اللهُ يَجْمَعُ بيننا وإليهِ المصير » .

« وقل للذين أُوتُوا الكتابَ والأُمِّيِّينَ أأسْلَمْتُم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدَوْا ، وإن تَوَلَّوْا فإنَّما عَلَيك البلاغُ » .

« قل للذين آمنوا يَغْفِروا للذين لا يَرْجُون أيامَ اللهِ ، لِيَجْزِيَ قوماً بما كانوا يَكْسِبُون » .

« ولا تُجادِلُوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هي أحسنُ ، إلا الذين ظَلَمُوا منهم » .

ويقول « لكلٍّ جَعَلْنَا مِنكم شِرْعَةً ومِنْهَاجًا ولو شاء الله لجعلكم أمَّةً واحدة ولكن ليَبْلُوَكم فيما آتاكم فاستَبِقُوا الخَيْرَاتِ ، إلى الله مَرْجعِكُم جميعًا » .

« ولو شاء ربُّكَ لآمنَ مَنْ في الأرض كلهم جميعا . أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين ! » .

« وما أرْسلناك إلاّ كافَّةً للناسِ بَشيرًا ونذيرا » .

روح سلمية واحدة في مكة والمدينة

قد يقول بعضُ الناسِ ممن آمنوا أو ضلُّوا : إن الآيات المكيةَ تَفيضُ بهذِه الروحِ ، بينما الآيات المدنية تَشْتَدُّ على الكفار والمنافقين ، وتَحُضُّ على القتل والفَتْكِ . وهو قولٌ باطلٌ لأن كتابَ اللهِ لا يتجزأ ، وقد سبقَ أن بيَّنّا أن الحَضَّ على الحرب في معظم آيات الحرب هو تحريضٌ على الصبرِ والاستشهاد والفتك في حرب واقعةٍ فِعْلا ، ولم تنتهِ إلى مَستَقَرٍّ من السلم يَطْمَئِنُّ إليه المؤمنون ، فهي نتيجة للحرب لا دعوةٌ إليها . ومع ذلك فإليهم بعض الآيات المدَنيّةِ :

« لا إكراهَ في الدين قد تبَيّنَ الرشدُ من الغَيّ » .

« قل أطيعُوا الله وأطيعوا الرسولَ ، فإن تَوَلَّوْا فإنما عليه ما حُمِّلَ وعليكم ما حُمِّلْتم ، وإن تُطِيعوه تَهْتَدُوا ، وما على الرسولِ إلا البلاغُ المبينُ » .

ويقول تعالى لرسوله « ولا تزالُ تَطَّلِعُ على خائنةٍ منهم إلا قليلاً منهم فاعفُ عنهم واصفحْ إنّ اللهَ يحبُّ المحسنين » .

فالإسلام في جميع أدوار الدعوةِ في المدينة أو في مكةَ لم يُعَوِّلْ إلا على الحجة ولم يلجأ للسيف إلا دفاعًا . بل إن تاريخَ انتشارِ الدعوة المحمدية واضحٌ في أن هذه الدعوةَ قد انتشرت في الآفاقِ ، وانتصرت انتصاراتٍ باهرةً في المَشرِقِ والمَغرِبِ في أضعفِ أيامِ الدولةِ الإسلاميةِ ، بل في الانحطاطِ العسكري والمسلمون سائمةٌ في يد برابرة المشرق ومتوحشي

الفرنج في المغرب .

شهادة الأجانب

وفي ذلك يقولُ السير توماس أرنولد في كتابه « انتشار الإسلام » :

« إن الفتح الروحي الإسلامي لم يتأثرْ بسقوط الدولة الإسلامية ، وبِضَعْفِ القُوَى السياسية ؛ ففي أيام هزيمتِه السياسية نال أعظمَ انتصارِه الروحيّ » .

شهادة التاريخ

وفي تاريخ الإسلام حادثان عظيمانِ يُثْبِتَانِ ذلك ؛ فحينَ وضع الكفارُ المتوحشون من المغول والأتراك السلجوقيين أقدامَهم على رِقابِ المسلمين في القرن الثالث عشرَ الميلادي غزا الإسلامُ قلوبَهم فاعتنقُوا ـ وهم الغالبون ـ دينَ المغلوبين ، ولم يكن للإسلام عونٌ من سيفٍ أو سلطانٍ .

وإذا رَجَعْنَا البصَر إلى صلحِ الحُدَيْبية ، ذلك الصلحُ الذي حَزِنَ له المسلمون لقَبولِهم شروطًا مُذِلَّةً ، والذي قرر وضعَ السيفِ في غمدِهِ عَشْرَ سنين ، رأينا أن أعظم فتحٍ معنويٍّ للإسلام كان في أيام هدنةِ الحديبيةِ ، وفتحُ الحديبية السلميُّ هو الذي هيأ لفتحِ مكة ودخولِ الناس في دين الله أفواجا .

هذا ولم يفكرْ المسلمون في إقامة جيشٍ دائمٍ ، ولا اعتبرُوا الجندية صناعةً إلا تقليدًا لعدوِّهم ، وقد صارت له معهم حدود وثغورٌ لا بد للسلامة من الرِّبَاطِ فيها .

فلم تكن الدعوةُ المحمديةُ في حاجة لنقضِ السِّلم لتعيشَ ، ولا

كانت في وقتٍ من الأوقاتِ مُعَوِّلةً على الإكراه في الدين لتنتشرَ، ولا رَضِيت بالحربِ لِعَرَضِ الدنيا ومنافِعِها وسلطانِها وبَسْطَتِها، ولا لسيادة جنسٍ على جنسٍ، ورُجْحانِ طبقةٍ على طبقةٍ.

فالحربُ عند المسلمين طارئةٌ وللسلمِ الحياةُ الدائمةُ. ولذلك كلّه قامت العلاقاتُ الدوليةُ في نظرِ المسلمين على أساسِ سلم دائمة بينَ البَشَرِ يَنْقُصُها العدوانُ وحدَه، فَعُنِيَت الدعوةُ المحمدية كلَّ العناية بإقامة هذه السلم الدائمة على حرمة الذِّمة وحرمةِ الأيْمـانِ والعهود.

* * *

العهود والمواثيق

المسلم والمعاهد ومن لا عهد له – رأي في مسألة التخيير بين الإسلام والجزية والسيف – السلم بين المؤمنين – الإسلام وطن المسلم – لا إقليمية في الإسلام – عالمية شاملة – يسعى بذمتهم أدناهم – أخوة الذمة والعهد – حقوق الذمى وواجباته – الغنم أكثر من الغرم – بين الذمة الإسلامية ونظام الحماية الحديثة – الاستعمار الحديث لا يعرفه الإسلام – كفالة الله وشهادته على العهود – الذمى في كفالة الإسلام أينما كان من بلاد المسلمين – عهود الأمان والمنافع – من وصايا الراشدين – إلى الأخوة والوفاء – حق واحد للغالب – موجهات الصلح – من حرب سنة ١٨٧٠ إلى حرب سنة ١٩٣٩ – حرمة العهود فوق صلة الدين – عبد يعاهد وخليفة يقر عهده ! – امرأة تجير والرسول يقر جوارها – تكريم للفرد – مثل رائع لاحترام كلمة لم تكتب – متى يجوز نقض العهد.

المسلم والمعاهد ومن لا عهد له

أقامت الدعوة المحمدية قواعد العلاقات الدولية بين الناس على فتراض أنّهم إمّا مُؤْمِنون ، وإما معاهَدون ، وإما لا عَهْد لهم . فأما المُؤْمِنُون فأُخُوّتهم تامّة ، وأَمّا المعاهَدُون فيعامَلُون بمقتضى عهدهم ، وأما من لا عهد له فأمرهُ يختلف باختلاف أحواله ، ومصيرُ العلاقات معه يتبع أحوالا كثيرة . وعلى كلّ حال لا يجوز قتالُه مُفَاجَأةً من غير إنذار ، ولا يكون هذا الإِنذار من غير سبب ، ولا يكون السببُ هو الطمع في مُلك أو سلطانٍ أو استغلالٍ لخيرات أرضه ، أو تحكّم في منافعه وتجارته ، أو استئثار بما عِنده من الموادّ الخامة والمعادن ، أو أغراضٌ عسكرية واستراتِيجيَّة ، أو تهذيبه وتمدينه كما ادّعى أهل الغرب في العصور الأخيرة ، أو كي تكونَ أمّةٌ هي أربى من أمّة ،

أو جنسٌ أعلى من جنسٍ . فليست هذه الأسباب صالحة لمهاجمته حتى بعد إنذاره الذي تَشْترطه القواعد الدولية الإسلامية ، وليس هناك في الحقيقة سبب للخلاف في نظر الإسلام بينه وبين الناس إلا الفتنة ومنع الدعوة .

وقد قررنا سابقا باطمِئْنان أن الإسلام حَصَر أسباب الحرب في كَفَالة حرية الدعوة ، فهو يكتفي بضمان حريتها ليكون في عهد يُقِرُّ السلم الدائم مع أي طائفة من البشر . وتاريخ الدعوة المحمدية واضح في هذا الشأن ، فليس لازما كما يظنُّ بعض الناس أن من قضت الظروف بنزاع وخصام معه ملزَمٌ بالاختيار بين ثلاثة : الإسلام والجزية والسيف .

راي في مسألة التخيير بين الإسلام أو الجزيـــة أو السيف

وليست هذه الحالات الثلاث التي كانت تُعْرَض على الأعداء آتيةً في عمل المسلمين على سبيل الحصر . فإننا نجد اتفاقاتٍ وعهودا وحالاتِ سلم قائمة بين المسلمين وجيرانهم أو دول أخرى ليس لها جوار بغير أن يُشْتَرَط لذلك حالةٌ من الحالات الثلاث . وهذه النظريّة نظرية الخيار بين ثلاثة أمور يظنها بعض الناس من القواعد العامّة ، لأنها كانت شائعة في العهد الأول من الفتوحات الإسلامية ، بينما الحقيقة أنه قد سبقتها عهود للرسول ولَحِقَتها اتفاقاتٌ وعهود للدولة الإسلامية لم تستلزم إحدى الثلاث . وحق إمام المسلمين وجماعتِهم في عَقْدِ ما يَرَوْن فيه المصلحة من العقود متفقٌ عليه ؛ فصلح الحُدَيْبية مثلا لم يشترط شيئا منها ، بل بالعكس كان فيه شرط اعتبره عمر

رضى الله عنه إعطاءً للدَّنِيَّة في الدِّين وإذلالاً للمسلمين قِبَلَ مشركين محاربين، ولم يرض به إلا طاعة وتفويضًا للرسول صلى الله عليه وسلم.

وإذا رجعنا للعهود المنوَّعة والبَيْعات والمحالفات التي عقدها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه، رأينا فيها أمرا واحدًا مُطَّرِدًا، هو القصْدُ إلى نشر دعوته، والوصول بهذه الدعوة إلى الظهور، وألاّ يَعْترِض شيوعَها وظهورَها قوة. وكثيرا ما كان الوصول إلى حالة سلم مستقرة هو الهدف الأسمى لتمكين الدعوة من الحرية اللازمة لظهورها، فلا يُشْتَرط له شيء آخَر، بل يكون شرطُ الجزية أو الإسلام مؤخِّرا ومانعا للتفاهم، فتُصْدَم الدعوة، ويُوْجَّل انتشارها.

ففي هذه الحالة يصبح شرط الجزية أو الإسلام مضرًا ويكون فاسدًا، وعلى ذلك ليس حقيقيًا أن إمام المسلمين أو جماعَتهم ملزمون بإقامة السلم على شَرْطَيِ الإسلام أو الجزية، وإلا كانوا في حالة حرب دائمة مع أكثر البشر وامتنع ظهور الإسلام كدعوة عالمية.

* * *

السلم بين المؤمنين

قلنا إن العلاقات الدولية الإسلامية قائمة على افتراض أن الناس مؤمِنُون أو معاهَدون أو لا عهد لهم. فأما المؤمنون فالسَّلم بينهم أبدية لا ينقضها إلا الكفر والرِّدَّة، فإن بَغَتْ طائفة على أخرى فهم جميعًا على الفئة الباغية حتى تَفيءَ إلى أمر الله وتَقْبل التحكيم، فإذا قَبِلتْه كان الإنصافُ والقِسْطُ، لا الغَلَبُ والقوةُ، هما الميزان الذي توزن به شرائط

الصلح. يقول تعالى :

« وإنْ طائِفتان من المؤمِنين اقتَتَلُوا فأَصْلِحُوا بينهما ، فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تَبْغِي حتى تَفِيءَ إلى أمرِ الله ، فإن فَاءَتْ فأصلِحُوا بينهما بالعدل وأقسِطُوا إن الله يحب المقسطين » .

الإسلام وطن المسلم

فالمؤمنون في جميع أطراف الأرض إخوانٌ لا تفرِّقُهم الأوطان ولا العصبيّات ولا المذاهب ، ولا المنافع ولا الخوف ولا المَنَعة ولا العُبوديّة ، ولا سبب من الأسباب ، للمسلم حق الأخوّة على المسلم أينما حلَّ وأينما كانت الدار ، فلا جنسيةَ غيرُ الجنسية المشتَركة التي يكفِي لثبوتهاشهادةُ أن لا إلَهَ إلا الله وأن محمدًا رسوله .

لا إقليمية في الإسلام

فالمسلم في أي وطن من أوطان المسلمين وطنيٌّ له جميع حقوق « المُوَاطِن » وعليه جميع الواجبات المفروضة على المواطن أينما وجد ؛ فإن فرض مثلًا أنه وُجد مارًّا إلى الحجّ في مصر وهو آتٍ من المغرب ، أو وُجِد في العراق وهو قادم من الصين ، وكانت مصر أو العراق في حرب ، وجب عليه الجهاد مع أهلها كما يجب عليه لو كان في بلده وقد هُوجِمت . كما أنه لو انقطع به السبيل ، أو شق عليه الأمر ، فله في زكاةِ هذا البلد فريضةٌ ، وجماعة المسلمين تكفُله ، بل له كافة ما لهم من حقوق . فالأخوّة الإسلامية كاملة بين الأسود والأبيض والعبد والحرّ ، ليس في ذلك أدنى ريب ولا شكّ لدى أي طائفة من المسلمين أو أي مذهب من مذاهبهم .

وعلى ذلك فالملايين السَّبعُمائة من المسلمين في الأرض هم إخوان لا يمكن بمقتضى الشريعة الإسلامية تصوّرُ حالة حرب بينهم يَخُوضُونَها في سبيل الله أو الوطن أو الدولة. فإذا وقع فيها بعضهم فالحكم لكتاب الله، ولا بد للمسلمين من التدخل لإنهاء القتال، ولا تستقرّ ضمائرهم حتى ينتهيَ على صورة مرْضِيّة بالقسطاس المستقيم.

ومن هذا يتضح أن الإسلام عالَمِيٌّ ودوليّ، بمعنى أنه يضع قواعده على أساس علاقات بشرية عامّة، ومنفعة بشرية مشتركة. وهو كذلك ينظر بهذه النظرة العالمية للمخالفين في العقيدة، فهم في نظره بَشَرٌ. وتكاد تكون مسئولية الفرد في نظامه العالَمِيّ كمسئولية الدولة، فعُهْدة الفرد كعهدة الجماعة، وحقوق هذا كحقوق هؤلاء، وللفرد في نظامه شخصيّة وسيادة تكاد تماثِل شخصيةَ الجماعة وسيادتَها. عالمية شاملة

فمثلًا يسمح النظام الإسلامي للفرد أن يُجيرَ ويُؤَمِّن ويعطي عهدًا لفرد أو جماعة من الناس، وأمانُه وعَهْدُه محترم، لقوله صلى الله عليه وسلم «ذمة المسلمين واحدةٌ يَسْعَى بها أَدْنَاهم». فإذا تصورنا العالم الإسلامي اليوم وهو ممتد من المشرق إلى المغرب، وتصورنا أممه وطوائفه وأفراده، وتصورنا ما لهؤلاء من العلاقات مع جيرانهم ومواطنيهم، وما بينهم من عهود واتفاقات، وعلِمْنا أن هذه الصِّلاتِ والعهودِ مَرْعِيّةٌ من المسلمين جميعًا، أمكن أن نتصور أن البشرية كلها كادت أن يشملها نِطاق واحد من الأمان المشترك. يسعى بذمتهم أدناهم

أخوة الذمة والعهد

هذه هي الأُخُوّة الإسلامية ، لها من القوة ما يكفُل السِّلم الدائمة بين أقوامها وأجناسها وأوطانها ومذاهبها . أما ما بين المؤمنين وغيرهم فالمعاهَدون منهم إما أن يكون لهم عَهْد ذِمَّة ، وإما أن يكون لهم عهدُ أمان أو تبادل منافع . فأما عهد الذمة فهو عهد أَبَدِيٌّ لفرد أو جماعة في دار الإسلام قَبِلها المسلمون في جوارهم وأعطَوْها ذمّةَ الله ورسولِهِ والمسلمين مقابِلَ ضريبة سَنَوِية تسمى الجزية . وهؤلاء هم الذين سرى عليهم لفظ الذِّمّي ولو أنه مع شديد الأسف أصبح ثقيلًا فإن أصله نبيل ، فالتسمية جاءت من ذمّة الله ، وهي أكبر تأكيد لِحَقّه في أن يتمتّع بكامل حريته الدينية والإدارية والسياسيّة ، وأن تُصان له هذه الحقوق مقابلَ الوَلاء وقدرٍ من المال يتفق عليه لنفقات الدولة .

حقوق الذمى وواجباته

هذا الذّمى المعاهَد هو جارُ المسلم يواليه ويؤاخِيه ، لا ينقص من حقه شيئًا ولا يتدخل في الشئون التي له بِعَهْده ، فإن احتكم إليه فعليه العدلُ الذي عليه للمسلم سَوَاء بسَواء . ظُلمهُ حرام ، واضطهاده حرام ، وإهانته حرام ، وحرمانه من حقه حرام ، له دِينه وللمسلم دينه ، وعلى المسلم أن ينصره ويمنعه ويحوط حريته الدينية والشخصية وحرية جماعته ويكفلها بقوّته ، وليس له عليه إلا الوفاء والامتناع عما يَضُرُّ المسلمين في عقائدهم أو سلامتهم .

وليس أدلَّ على إدراك المسلمين هذه الحقيقة وعملِهم بها مما فعل خالد بن الوليد مع نصارى « حمص » فإنه لما علم أنه لا قِبَلَ له بدفع

الرُّوم عنهم ، ردّ ما كان أخذه من الجزية إليهم ، وقال : إنما أخذناها جزاءَ مَنَعَتِكم والدفاعِ عنكم وقد عجزْنا.[1] وكذلك فعل صلاح الدين الأيوبيُّ في حروبه مع الصليبيين حيث ردّ الجزية إلى نصارى الشام حين اضْطُرّ إلى الانسحاب منها ، فلم تكن الجزية حقًا تعطيه القوة للغالب على المغلوب ، وإنما كانت منفعةً جزاءَ منفعة ، وأجرًا جزاء عمل .

غنمة أكثر

وإذًا فمجرد الاتفاق ودفع الجزية يكفل للفرد أو الجماعة المعاهَدة ما للمسلم من الحقوق . بل لو دققنا النظر نجد أن هذا المعاهَد بدَفْعهِ هذه الضريبة ، وهي رمزُ ولائه ورضاه ، يتمتع بكافّة الحقوق ، وليس عليه كلُّ التكليفات كتكليف الجهاد والزكاة ، فتبقى ضريبة الدمِ حِمْلًا على المسلم وحدَه ، وضريبةُ الزكاة حملًا عليه كذلك وحده ، مع جواز حق المعاهَد فيما جمع الإمام من هذه الزكاة ، فإنما الصدقات للفقراء والمساكين مسلمين وغير مسلمين .

فإذا أراد المعاهَد أن يقاتل في صفوف المسلمين كان له ما لهم في الغنيمة .

بين الذمة الإسلامية ونظام الحماية الحديثة

وإذا نظرنا في عهد الذمة وعهود الحِماية لبعض الدول أخيرا في بلاد المسلمين وغيرهم ، تبين لنا الفرق العظيم بين عهد يقوم على أساس

(١) لعل الخلاف في الرواية نشأ عن أن كلا منهما قاتل الروم متعاصرين وكان أبو عبيده القائد العام وخالد في إمرته .

الأخوّة البشرية، يرعاه دين يدعو إلى عبادة الله ربّ العالمين، ويسوِّي بين الناس جميعًا فكلهم من آدمَ وآدمُ من تراب، لا يَلتفتُ للعنصرية ولا للجنسية ولا للغة ولا للثقافة والأدب والعُرْف بل للحق الإنساني، وبين عهد يقيمه الغَلَب ويصُونه القهر وتَحْدُوه المنفعة ويديمه الاستغلال ويصحبه الاحتقار.

فذاك له حرمة من صميم الوِجدان والعقيدة، وهذا له قوة الغَلَب وشهوةُ الهوى والاثَرة. وقد كان أثرُ الأول الحُب، فدخلت الأكثرية العظمى من أصحاب عهود الذمة في دين الجماعة الإسلامية راغبة متطوّعة، لأن نظام الإسلام عالَميٌّ، واعتناقها لمبادئه لا ينافي كرامتها الإنسانية ولا عزتها القومية.

وقد بلغ في ذلك أن والي مصر في زمن الخليفة عُمَرَ بن عبد العزيز شكا إليه أن نصارى مصر وأهلَ الذّمة فيها يتركون دينهم ويدخلون في الإسلام فتناقصت إيرادات الجزية، واستأذنه في منعهم، فكتب إليه الخليفة بتلك العبارة النيّرة «قَبّح اللهُ رَأْيَك! ما بعث الله محمدًا جابيًا ولكن بعثه هاديًا». إذًا كان الهدف الهِداية لا الجباية، والمساواة لا القهر والتفريق.

الاستعمار الحديث لا يعرفه الإسلام

ولم تكن عهود الذمة ذاتَ صلة بما يسمونه الاستعمار في هذا العصر، فهذا المعنى لم يَدُرْ بِخَلَدِ المسلمين في فتوحاتهم، ولا تعرِفُه الشريعة الإسلامية، وإنما تعرف حق المساواة لصاحب عَهد الذمّة، له

ما للمسلم وعليه ما عليه، وله أن يعيش في حرية تامة بقوانينه وعُرفه ونظمه. له أرضه وله ما تُغِلُّ هذه الأرضُ. له ما على ظهرها وما في بطنها، وليس عليه ضرائبُ غير الجزية مقابل المنعة وكفالة نظامه الذي يختاره ويقيمه بكامل حريته، غير مُضَارٍّ لمعاهدِيه من المسلمين. فشتَّان ما بين النظام الاسلاميّ من حرية وإنسانيّة وما في الاستعمار من سلب للحرية، واستباحة لكل ما يملك المغلوب وما يُنْتِج.

كفالة الله وشهادته على العهود

لا قَيْد في الاستعمار لإرادة الغالب، وقيّد الإسلامُ المسلمَ بعهده، فلا يُنْقَض ولا يُتجاوَز «وأَوْفُوا بعهد اللهِ إذا عاهدْتُم، ولا تَنْقُضُوا الأيْمَان بعد توكِيدِها وقد جعلتم اللهَ عليكم كفيلًا».

الذمي في كفالة الإسلام أينما كان في بلد إسلامي

وكما أن للمسلم حقًّا مساويًا لحق كل مسلم آخرَ في أي وطن من أوطان المسلمين، فإن الذمّي المعاهَد له مثلُ ذلك، فعَهْدُه محترم في مشارق الأرض ومغاربها، لما بين المسلمين من التكافُل. وعلى ذلك فالمعاهَدون أينما كانوا في سلم دأئمةٍ لا ينقضها إلا النكثُ والعدوانُ. وكذلك تمتد ساحة السلم البشري وتستقرّ بصفة خالدة بين الأجناس والأديان في ساحة البشرية بهذه المساواة التي تمليها الشريعة وتكفلها العهود.

* * *

عهود الأمان وتبادل المنافع

ليست العهود من نوع وحد، ولا هي جميعًا كعهود الذّمة التي أشرنا إليها؛ فقد تكون عهودَ أَمَانٍ، وقد تكون عهود حسنِ جوارٍ، وقد تكون معاهداتِ صداقةٍ أو تجارةٍ أو أي نوع من أنواع التعاقُد

الدولي لإقرار السلم وتبادل المنافع .

فهي جميعًا في نظر الدعوة المحمدية عهودٌ مقدَّسةٌ هي مواثيق جُعِلَ اللهُ عليها شهيدًا وكفيلًا ، لها حرمة دينية لا تسمح بالخَدِيعة والتدليس والكذب .

كتَب عثمان ، رضى الله عنه ، إلى عماله ووُلاتهِ عَقب تَوَلِّيه الخلافَة هذا الكتاب :

من وصايا الراشدين

« أما بعدُ ، فإن الله خَلَق الخَلْقَ بالحق ، فلا يَقبل إلا الحق . خذُوا الحق وأَعْطُوا الحق ، والأمانةَ قوموا عليها . لا تكونوا أولَ من يُسْلَبُها فتكونُوا شركاء مَنْ بَعْدَكم . الوفاءَ الوفاءَ لا تظلِمُوا اليتيم ولا المعاهَد ، فإن اللهَ خَصْمُ مَنْ ظَلَمَهُم » .

ونظام العالم الذي يقوم على مثلِ هذه الروح ، وبعهودٍ لها مثلُ هذه الحُرْمة ، هو نظام سِلْمٍ حقيقية ، يستمر ما شاء الله . وإذا اضطرب فلا يعُمّ خطَرُه ولا يدوم شرُّه . أما ما نحن فيه من عهود تُعْقَدُ لِتُنْقَض ، وذِمم مَخْفُورَة وأَثَرة موفورة ، وأُمَم تتعالَى على أمم ، وأقوام تتسامى على أقوام ، فقد لَقِينا جزاءه في تلك الحروب العالمية التي لا تُبْقِي ولا تَذَرُ ، هلك فيها البَشر ، وعم الشرّ .

* * *

إلى الأخوة والوفاء

فإلى الأخوّة البشرية التي تعلو على الجنس والقبيلة ، وإلى الوفاء للعلاقة الدائمة التي يريدها رب الناس بين الناس : « يا أَيُّها الناس اتَّقُوا ربَّكم الذي

خلقكم من نفْس واحدةٍ وخلقَ منها زَوْجَها وبَثَّ منهما رِجالًا كثيرًا ونِساءً واتقُوا اللهَ الذي تَسَاءَلُون به والأرحامَ».

حق واحد للغالب

وقد تبين أنه ليس للحرب نتيجةٌ ولا خاتمة يرضاها الله إلا السلام الذي يستقر على العدل والإنصاف والأخوة البشرية، وأنه ليس للغَلَب إلا حقٌّ واحد هو منع الظلم. وكل ما يُعْقَد من العهود نتيجةً للحرب يكون مخالفًا للروح الإسلامية إن أقام ظلمًا أو استعبادًا، أو أَقَرَّ استغلالًا واستباحةً لما هو من حق الإنسان بصفة كونه أخًا في البشرية. يقول تعالى: «ولا تكونوا كالتي نَقَضَتْ غَزْلَها من بَعْد قُوَّة أَنْكَاثًا تتخذُون أَيْمانكم دَخَلًا بينكم أَنْ تكون أمةٌ هي أربى من أمّة».

أي لا يجوز أن تقوم عهودكم على الدَّخَل، أي الفساد والغِشّ الخَفِيّ لكي تكون أمة هي أربى من أمة، أي أكثر مالًا ورجالًا وقوة وصَوْلة مما يجعلها أرجح.

وليس المراد من معاهدات الصلح في نظر الإسلام استدامة حالة الغَلَب الذي نتج عن حرب اقتضاها العدوان بدوام الحرمان والإذلال للمغلوب، بل الغرض الوصول إلى إقامة العدل الذي يريده الله ويطلبه لأعدائنا وأصدقائنا على السواء. يقول تعالى:

«ولا يَجْرِمَنَّكُم شَنَآنُ قومٍ على ألّا تعدِلُوا، اعدِلوا هو أقرب للتقوى». ولو أن دول الأرض في العصور القديمة والحديثة اهتدت بهدي القرآن في هذا المعنى لحصرت الحرب في أضيق دائرة، ولزالت معظم

الأسباب التي تحرك الفتنة من مَرْقَدِها ، وتثير النار من مكمنها .

وما يقوله اليوم الكثير من الساسة وقادة الشعوب ، وما قالوه من قبل من أن الغرض من حربهم هو إقامة العدل والإنصاف ومنع الطغيان يتفق مع الدعوة المحمدية ولو أنه لا يستند إلى مثل الايمان والتدين الذي استندت إليه ؛ في الشريعة المحمدية كما بينا سابقًا لا تجوز الحرب إلا لدفع الظلم والعدوان ، ولا تنتهي إلا بمنع الظلم والعدوان وإقرار العدل والحق الذي يريده الله لا الذي تُزَوِّقه وتنمقه المطامع والشهوات ، ولا الذي يوجبه الخوف من العودة إلى الظلم والعدوان .

ويقول تعالى «وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبَك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين» .

موجهات الصلح

فلا تُمْلِي شرائط الصلح عواملُ الخوف ولا عوامل الطمع ، لأن الله الذي نصر الحق وأيّده بالمؤمنين كفيلٌ بالنصر ما دام المراد وجه الله والبرّ والعدل .

من حرب سنة ١٨٧٠ إلى حرب سنة١٩٣٩

فلو كانت الدول الأوربية وغيرها تُقْسِطُ وتُنْصِف ما انتهت حرب سنة ١٨٧٠ بما سبب حرب سنة ١٩١٤ ، ولا انتهت هذه بما سبب حرب سنة ١٩٣٩ ، وكنا نرجو أن تعقب الحربَ الأخيرة حالة تسود فيها روح الدعوة المحمدية أفكار الناس وتستقر مبادئها في نفوس الزعماء والقادة لتكون خاتمة المآسي .

أما الرِّياءُ وابتغاءُ حسن السمعة والدعاوى التي يراد بها الدَّخَل

والغِشُّ فلن تزيد أصحابَها إلا وَبالًا والعالَم إلا شَتاتًا والحضارة إلا ضعفًا والعُمْران إلا خرابًا ، وهي على النقيض تمامًا مما جاءت به الدعوة المحمدية . ولست في هذا متهمًا قومًا دون قوم ، ولا مُدّعيًا بأن المسلمين الآن أحسنُ حالًا وأصدقُ قولًا ورأيًا من أهل الملل الأخرى ، فليس هؤلاء وهؤلاء على شيء من روح الدعوة المحمدية ، ولا صدقِ الإيمان بمبادئها .

وقد حرم الإسلام الخيانة في العهد سرًا أو جهرًا كتحريمه الخيانة في كل أمانة مادية أو معنوية ، فلا مجال عنده لإباحة نقض العهد بالخيانة فيه وقت القوة ، كما أنه لا يرضى العهد الذي يمليه الغلب والظلم . فهل رأيتم أو سمعتم في الزمن الذي نعيش فيه بعَهْد عُقِد وكانت له الحرمة التي يريدها الإسلام؟ ألا تَروْن وتَسمعون كل يوم بالذِّمَم المَخْفُورة ، والعهود المباحة متى قَدَر أحد المتعاقدين على استباحتها ، أو ظن في ذلك نَفْعًا له؟

ما قيمة العهود والأَيْمان تعقد لتُنْقض ويُحْتال في تفسيرها والخلاص منها متى لاحت مصلحة ، أو بدت منفعة من قريب أو بعيد ، أو ضَمِن قوِيٌّ بسُلطانه وقدرته العسكرية أن يفسِّرها كما يشاء أو ينقضها كما يشاء؟

حرمة العهود فوق صلة الدين

أمّا ذلك الأدب المحمديّ الذي جعل حرمة العهود فوق حرمة الدِّين فضلًا عن عَرَض الحياة الدنيا فلسنا نحن ولا غيرُنا على شيء منه ؛

فقد جعلت الشريعة حق الميثاق فوق حق الدِّين نفسِه ؛ فللمشرك من قومٍ بينهم وبين المسلمين عهدٌ حقّ الدية تدفع إلى أهله ، وليس للمسلم من قوم ليس لهم مع المسلمين ميثاق دية .

وقد حرمت كذلك الشريعة نُصْرَةَ المسلم للمسلم على من بيده ميثاق وهو غير مسلم ؛ يقول تعالى «وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصرُ إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق» .

هذا هو التقديس للعقود والمواثيق ، وهذا هو الوفاء للأعداء الذي يَبْقَى أبَدَ الدهر للناس فيه الهدى ، هو الأدب العالي في علاقات الدول وعلاقات البشر ، هو الأدب العالي في السلم والحرب .

عبد يعاهد وخليفة يقر عهده !

وقد بلغ من احترام المسلمين للعهد أن أقَرُّوا عهد الفرد من المسلمين بل عهد العبد منهم يُؤَمِّن به طائفة من المحاربين : كتب أبو عبيدة رضي الله عنه وهو قائد الجيش إلى عمر رضي الله عنه وهو الخليفة أن عبدًا أمّن أهل بلد بالعراق وسأله رأيه ، فكتب إليه عمر «إن الله عَظَّمَ الوفاءَ فلا تكونون أوفياء حتى تَفُوا ، فوفُّوا لهم وانصرِفُوا عنهم» . وقد استمد عمر هذا الرأي من قوله صلى الله عليه وسلم «ويسعى بذمتهم أدناهم» .

امرأة تجير والرسول يقر جوارها

وكذلك أقر المسلمون أمان المرأة ، لقوله صلى الله عليه وسلم : «قد أجَرْنا من أجَرْتِ يا أمّ هانئ» . وإن اختلف المسلمون في قيمة العهد الذي يعطيه العبد أو تعطيه المرأة باسم المسلمين واشترطوا إذنَ الإمام

فإن الجمهور متفق على احترام أمان الرجل الحر المسلم.

كرامة الفرد

ولا يخفى ما في هذا المعنى من سموٍّ بمكانِ الفرد يتناسب مع المسئولية التي وضعت على عاتقه مما يستلزم أن يكون عالي الجناب موفور الكرامة والأدب مع الخصوم وفي الجيش، فهذه الثقة به وهذا التقدير لحسن تصرفه بإعطائه حقَّ التعاقد نيابة عن المسلمين جميعًا يُحدِث في نفسه عزةً وتقديرًا للحق يكفُل استقامته خيرًا من القوانين الزاجرة والعقوبة الرادعة. وتاريخ المسلمين فياض بأمثلة من أدب الحرب أشهرت فروسيتهم في الغرب والشرق في الفتوحات الأولى وفي الحروب الصليبية.

مثل رائع لاحترام كلمة لم تكتب

وقد ضرب صاحب الدعوة المحمدية بنفسه أعلى مثل في التاريخ في هذا الأدب العالي، وفي الجِدّ في عهوده وحبه الصراحة وبغضه التحايل والالتواء والكيد، حينما كان يفاوض سُهَيْل بن عمرو في الحديبية: فبينما كان يكتب عقد الهدنة جاءه ابن سُهَيل نفسه يَرْسف في الأغلال، وقد فرّ من الأعداء الذين كان يمثلهم أبوه ويتفاوض مع الرسول باسمهم، وكان هذا الابن ممن آمنوا بمحمد. جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو مستصرخًا وقد انْفَلَتَ إلى المسلمين من أيدي المشركين، فلما رأى سهيلٌ ابنَه قام إليه وأخذ بتلابيبه وقال: «يا محمد لقد لَجَّتْ القضيةُ بيني وبينك» أي فَرَغْنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا. فقال محمد صلى الله عليه وسلم: صدقت. فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين أَأُرَدُّ إلى المشركين يفتِنونني في ديني! فلم يُغْنِ عنه ذلك شيئًا، وردّه رسول

الله وفقًا للشروط التي اتفق عليها ولم يكن قد كتبها، ولكنه كان قد انتهى من المناقشة وقَبِل الشرط فلم يتحايل ولم يتردد. وإني لا أعلم في تاريخ البشر مثلًا لرعاية الكلمة التي قيلت ولمَّا تُكتب ولمّا تُمْضَ كهذا الذي ضربه رسول الله في الحُديبية على مرأى من خصومه وعلى كُرْهٍ من أنصاره!

أين هذا الأدب وهذا الجِدُّ بين الأعداء مما نحن فيه بين الأصدقاء؟ بين المسلمين أنفسهم وبين المسيحيين أنفسِهم وبين هؤلاء وهؤلاء من تحايل ولِجَاج! ذلك لأن الدعوة المحمدية تعلّم أصحابها أن حسابهم مع الله، وأنه لا يغنيهم من الله شيء؛ فلا بد من الصدق في الظاهر والباطن والقوة والضعف. فلو أن أدب العهود الدولية في الحَرب وفي السلم قام على مبادئ لها حرمة الإيمان وتقديس العقيدة لاستقر السلم على حرمة العهد وخَفَّتْ وَيْلات الحروب وتضاءل شرها.

* * *

والشريعة المحمدية لا تبيح نقض العهد للطمع أو تحقيق أغراض من عَرَض الحياة الدنيا، أو لاستعباد وظلم، ولكنها تبيحه للصالح العام متى خاف المسلمون خيانة المعاهد وتحقق لديهم خَتَلُه وسوء قصده، فعندئذ يجوز نبذ عهده: «وإمَّا تَخَافَنَّ من قومٍ خيانة فانْبِذْ إليهم على سَواءٍ إن الله لا يحب الخائنين». ولكن لا يجوز لهم أن يحتالوا في ذلك، أو يفاجئوا بنقض العهد من غير إنذار وإمهال. وهو أدب وعُرْفٌ

جاءت به الشريعة قبل أن يُقِرَّه العرف الدولي الحديث ، ومع الأسف لم تبق له حرمة في السنين الأخيرة . وقد جرى عليه المسلمون حتى مع من لا عهد لهم . وقد أوصى النبي والخلفاء الراشدون عُمّالهم وأمراء جيوشهم بالإنذار قبل البدء بالحرب . وفقهاء المسلمين متفقون على أنه يجب إنذار العدو حتى يعلم سبب نقض العهد ، وأنه ليس المرادُ منه سلبَ مالهم أو قتلَهم أو سَبْيَهم ، فربما أجابوا للمقصود من غير حرب ، وأن القتال من غير دعوةٍ إثمٌ يستوجب غضب الله . فإذا ساءتْ نِيَّةُ المعاهَد وساء قصدُه فإن العزة التي جعلها الله للمؤمنين تأبى عليهم الذلَّ والهَوَان والرغبة في السَّلْم الذي يُحِلُّ ما تحرِّمُه الشريعة ، أو يُقِرُّ العُدْوان والتّسَلُّط والقهر . وفي مثل هذه الحالة يقول الله تعالى «فلا تَهِنُوا وتَدْعُوا إلى السَّلْمِ وأنتم الأعْلَوْن» .

متى يجوز نقض العهد

* * *

٤

فى أسباب الاضطراب العالمى

الاستعمار

إثارة الرغبة في بحث شامل – مقاتلون ومحايدون – الأسباب الأساسية للاضطراب – الاستعمار أو الخراب ! – فرائسه هي فرسانه ! – سراب ! – سبب الحروب في القرنين الأخيرين – شر على الغالب – شر على المغلوب – آثاره في الغرب وفي الشرق – محاولات لالتماس المخرج – التضحية بالاستعمار لنجاة الحضارة – الدعوة المحمدية تنكره – لا حجة على الإسلام إلا من نصوصه وسننه.

إثارة الرغبة في بحث شامل

تناولت موضوع العلاقات الدولية من وجْهة النظر الإسلامية، ولمست نواحي عدة منها، ورجوت من هذا الغرض العاجل في كلمات محدودة أن أُثِير الرغبة في القارئين، سواءٌ أكانوا من الأمة الإسلامية أم الأمم الأخرى، لبحث مستفيضٍ فيما جاءت به الدعوة المحمدية، لعلّهم يجدون في أصولها وفروعها مخلصًا من محنة المدنية الحاضرة، وذلك الاضطراب الذي أصاب البشرية بحربين شاملتين في مَدَى ربع قرن.

مقاتلون ومحايدون

وإذا نظرنا للعالم الحاضر في الحرب العالمية الأخيرة، وقد عمّ الدنيا شرُّها، نجده ثلاث طوائف: طائفتان تقتتلان، وثالثة تَعْتَزِلُها ولا تسلَمُ من شرهما.

فماذا يشكو منه الثلاث؟ أما الطائفتان المتحاربتان فكانت كل منهما تدّعي على الأخرى دَعَاوَى لا سبيل لتحقيقها ولا فائدة من المناقشة

فيها ؛ فكلٌّ كان يقول إنه مظلوم معتدًى عليه ، وإنه يحارب للحق وإقامة صرح الحضارة . فلندَعْ هذه الدعاوى حقَّها وباطلَها .

وأما الطائفة الثالثة المعتزلة ، فبين محايد قد انْتُهِكَت حرُماتُه ، وآخرَ شاكي السلاح ، ساهِرِ الليل تَزْخَرُ أرضه بالقوى خشية أن تسْتَبَاح .

فإذا نظرنا إلى أسباب النزاع بين هذه الأمم نظرة إجمالية خلال القرنين الماضيين بدا لنا أنها تتفاقم عصرًا بعد عصر ، وقد تكون بلغت الذّروة في الحرب الأخيرة إذ شملت القارات الخمس .

الأسباب الأساسية للاضطراب

فما هي دواعي هذا الشر المتزايد؟ وما هي الأغراضُ العقيمة التي ظلت عصرًا بعد عصر لا تستقر ولا تتحقق؟

أهي الغرام بسَعَة المُلك ، والتزاحم على حِيازَه الأمم المستضعفَة والاستئثار بالتصرف فيها وفيما تملك من مواد؟

أم هي النزاع والخصومة ، بين الطبقات على المصالح الخاصة والنظم الاقتصادية ؟

أم هي الإفراط في النزعة الوطنية أو العُنْصرية وما يترتب عليها من الأثَرة وحب الانفراد بالعزّة ، ثم إنكار حقوق الآخرين والتسلط عليهم ، جيرانًا كانوا أم في أقصى الأرض؟

أم هي طغيان المادِّيّة وحب الترف ، مما ترتب عليه تركيز الاهتمام في جَمْع المال ، والانحدارُ في المتاع العاجل كغاية للحياة ، فتباعد ما

بين طبقات الأمة الواحدة من الفروق ، وأُغْرِيَ بعضُها ببعض ، وآلَ ذلك إلى النزاع الداخليّ والخارجيّ ؟

أم هي انهزام القوى المعنوية أمام القوى المادّيّة ، مما ترتب عليه تَبَلْبُلُ الأخلاق والعقائد والعُرف الصالح ، فضاعت المروءة وقلَّ الإخاء ، وفَشَا الاستخفاف بالعهود والمواثيق ، وصار الغدر والخديعة من الأخلاق الشائعة في علاقات الأمم ، وحلّ الخوف محلّ الأمن ، ودأَبَ الناس على الاستعداد للحرب ثم المفاجأة بها ؟

أم هي أسباب أخرى أعظمُ أو أصغر ، أم هي هذه جميعًا ؟

قد يكون هناك أسبابٌ وحوادثُ كثيرة ، لها أثرُها الوقتي . غير أن نظرة فاحصة في الأسباب التي ذُكِرَتْ تَهْدِي إلى الاعتقاد بأن فيها أصولَ الفساد العالَمِيّ ومسبِّبَات هذه الكوارث والحروب الطاحنة .

فهل جاءت الدعوة المحمدية بأسباب وقائية وبعلاج لهذا الفساد؟ ذلك ما سنحاول بيانه .

* * *

الاستعمار أو الخراب

أما السبب الأول الذي أشرنا إليه فيمكن حَصْرُه في كلمة واحدة : هي الاستعمار الحديث . وليس أدلَّ على ما فيه من فساد ، وعلى قوة هذه الآفة من أن الحروب لم تكن عامّة إلا بعد ظهوره وانتشاره . وبعد أن انتشَر فشمِلَ القارّات الخمس وصار مظهرًا وسببا للصراع المادي ، انقلبت الحروب إلى شرٍّ عام . وبانتشاره تطاولَتْ الأعناقُ إليه ، وظنّت جميع

الأمم أنه سبيلُ الغنى والقوة، فتسابقت وتحاسدتْ وحقَدتْ، ولم يَصُدَّها عنه أن رأت بعضَها في الماضي وقع فريسة له؛ فلقد كان بعض فرسانه الأُوَل من الأسبان والبرتغاليين والفرنسيين فرائِسَ له. وفي فرسانه الأخيرين بعض العظات.

فرائسه هي فرسانه!

يقول «نيتي» رئيس وزارة إيطاليا قبل العهد الفاشيستي (١٩٢٠ - ١٩٢١) في كتابه «أوربا بلا سلم» «إن الطليان أنفقوا أربعة عشر مليارًا ليشتروا غرارة رمل!» يقصد ليبيا.

فكم بلغ الثمن بعد أن أنفقت إيطاليا الفاشيّة ما أنفقت في ليبيا والحبشة وغيرهما؟ لقد استنزفت إيطاليا مالها ودماءها وكيانها للاستعمار ولم تحصل إلا على الخراب والدمار...

الاستعمار سراب

سيدركون جميعًا بعد هذه الحروب الدامية، وقد أصيبت هذه الحضارة المادِّية بضَربات معجزة، أن الاستعمار سَرابٌ يَجْرُون وراءه، ويتنازعون عليه، حتى إذا جاءوه لم يُغْنِهم عن العمل والكَدِّ والحياة الطيّبة شيئًا، وأنه كالقَذيفة تُلْقَى على الصخرة فتصيبُها، وقد تحدِثُ بها حَدَثًا، ولكنها كذلك ربما ارتدَّت فقَضَتْ على قاذفها.

سبب الحروب في القرنين الأخيرين

والاستعمار سبب معظم الحروب في القرنين الأخيرين، وله أثره فيها جميعًا، واستقصاء البحث في كل منها يرشد إليه في مكانٍ ما من الأرض: في تراث أمّة مستضعفة أو في أحد المعبودات الحديثة من البترول والذهب والفحم والقطن وغيرها من ثمرات الأرض أو معادنها.

والواقع أن الاستعمار الأوربي على طِرازه الحديث شرٌّ على الغالب والمغلوب، شرٌّ على المستعمِر والمستعمَر. والشعوبُ الغالبة تُستَدْرَجُ بسببه إلى حياة التواكل فيصيبها التَرَف القاتل، وتقع في خصومات مع الحاسدين والناقمين وتعرّض كِيانها القوي للزوال. وما أصاب بعض الأمم منه في الماضي لا تزال آثاره عالقة بها إلى اليوم. شر على الغالب

والاحتفاظ بالمستعمَرات كميدان للاستغلال المادّيّ يهبط بمستوى العَيْش في سكان هذه المستعمرات فيحُدُّ من مقدرتها على الاستهلاك، فَضْلًا عن قلَّة روح الابتكار والنشاط والإنتاج فيها، ويضَعُ بذلك قسمًا كبيرًا من سكان العالم في منزلة السائمة، فيصبحون عالة على البشرية. شر على المغلوب

كل ذلك مع ما أشرنا إليه مما يحرّكه الحاسدون والطامعون من المكايد والحروب، يسرع بالحضارة إلى الانهيار والزوال.

ألم تكن حروب نابليون وما جرَّتْ من ويلات على العالم وعلى فرنسا نفسها منشؤها الحقدُ والحسد بسبب الاستعمار والرغبة في السَّبْق إلى أملاك المستضعَفِين؟ وكذلك حروب روسيا وتركيا والنمسا. آثاره في الغرب

ألم تكن كلها للاستزادة من أملاك المستضعَفين؟ وحرب اليابان والروس في أوائل هذا القرن، لم تكن لِتحدثَ على بُعد الشُّقَّة بينهما لو لم يلتقيا في سبيل التوسع على حساب المستضعفين. وفي الشرق

والحرب العامّة الأولى، والحربُ العالمية الأخيرة مهما ادُّعِيَ لهما

من الأسباب فإن الحقد الدفين في صدور من فاتتهم الغنائم ، والرغبة في التوسع وحِيازة المواد الخامة وأملاك المستضعفين ، هي من أهم أسس النزاع بين الأقوام الغالبة القوية.

محاولات لالتماس المخرج

أليس الشعور الباطني في نفوس الأمم الكبيرة بشرّ الاستعمار هو الذي دعاها بعد الحرب العالمية الأولى لِتَلَمُّسِ المَخْرَج في نظرية الانتداب ونظرية حرية تناول المواد الخامَة؟

سيستمر شرُّ الاستعمار مستطيرًا حتى يكتشف الناس بالتجربة وبالتضحية حلًّا مُرْضِيًا للأقوياء والضعفاء على حدٍّ سَواءٍ.

لقد كانت الحروب الماضية قاصرة على الجيران؛ أو على دولة وأخرى؛ فلما صار الاستعمار عالميًا صارت الحروب كذلك، فلا بد إذًا من مباديءَ عامّةٍ لتسوية المشكلات العالمية. وستكون التضحية بالاستعمار ضرورة لنجاة الحضارة الحالية. وها هي ذي الشعوب الكبيرة تتلمَّسُ السبيلَ، فميثاق الأطلنطي وأشباهه من التصريحات التي جهر بها المتحاربون دليل على إدراكهم ما جرّه الاستعمار من شر على الغالب والمغلوب.

التضحية بالاستعمار لنجاة الحضارة

هو شرٌّ على المغلوب لما بيّناه ولأنه يفقِده شخصيته وخُلُقَه وعِزَّته وثقته بنفسه ومقدرته على العمل المنتج الكبير، فيصبح لا أثر له في تكييف الحضارة العالمية. فكيف يستقر العالم من اضطرابه، ومئات الملايين من البشر قد صارت عِبْئاً في تفكيرها ونشاطها على العشرات؟!

الاستعمار لاشك شر على الجميع ، وإذا بَقِيَ الحكم للقوة في مصير الأمم بعد هذه الحروب فإن المأساة ستستمر وتتجدد.

الدعوة المحمدية تنكره

ومن فضل الدعوة المحمدية أنها تنكر الاستعمار وتحكيم القوة لأغراض دنيويّة. فهي لا تبيح الحرب لتوسّع في المُلك ، أو الحصول على الموادّ الخامة ، أو لاحتكار الأسواق ، أو لدعوى تمدين الناس ، أو للمواقع الاستراتيجية ، أو لاستعلاء وطن على وطن ، أو دولة على دولة . أو عنصر على عنصر كي تكون أمَّةٌ هي أَرْبَى من أمة «يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فَتَبَيَّنُوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لستَ مؤمنًا تبتغون عَرَضَ الحياة الدنيا فعند الله مغانمُ كثيرة».

وقد أشرت إلى ذلك في كثير من الفصول السابقة وسُقْت في سبيل بيانه الآيات والأحاديث وأمثلةً من الواقع . ووجهة النظر الإسلامية في العلاقات الدولية واضحة ، فالناس سواسية كأسنان المُشْط ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعافية ، أي حُبّ السلام .

فالإسلام لا يعرف نزاعًا ليس المقصود منه أن تكون كلمة الله هي العليا ، وأن تكون الحرّيات للجميع مكفولة.

لا حجة على الإسلام إلا من نصوصه وسننه

قد يقول بعض الناس إن في تاريخ المُسلمين ما لا يتفق وما تدعو إليه . ونحن ندعو إلى كتاب الله ودينه لا إلى ما فعل بعض الدول والملوك ، مما قد يُشْبه من قريب أو بعيد ما يفعل الأوربيون ، وقد باءُوا بالخُسران كما باءَ المحدَثون .

فلا شك أن الاستعمار بجميع أشكاله تأباه الدعوة المحمدية ، وقد ثبت الآن بُعدُ نظرها ، بل ثبت سموُّها وغرضها الإلهي بما فعل الاستعمار بالناس قديمًا ، وبما يفعل في العصور الأخيرة ، وقد اتسع شره وعمّ بلاؤه وجرّ الويلَ والخرابَ في حروب عالمية متعاقبة.

وإنا لنرجو أن يستفيق الناس إلى الهدى ، وأن يجدوا في هذا المبدأ المحمدي وسيلة لإقامة العلاقات الدولية على غير ما تقضي به نظريات الاستعمار ، وأن تقوم هذه العلاقات على الإخاء وعلى تلك الروح الدولية الإسلامية التي لا تعرف الجنس ولا اللون ولا الوطنية الضيقة ، ولا العلم ولا الجهل ، ولا التقدم ولا التأخر ، ولا تعرف البشر إلا إخوة من آدم ، وآدمُ من تراب.

* * *

نزاع الطبقات

التفاوت قديمًا وحديثًا – أمثلة من التاريخ العالمي – التعقيد العصري في المذاهب والدعوات – من آثار البخار والكهرباء – الرأسمالية والعمالية – في الدول الشيوعية والنازية والفاشية والديمقراطية – البساطة الإسلامية في معالجة مشكلات المال – المبدأ ثابت والتنفيذ مرن – الشرع مع المصلحة – مثلان رائعان من حرية التصرف للدولة – أكبر مهام الدولة – لا نزاع متى خلصت النوايا لله – الإيمان هو الحارس الأول على المصلحة العامة – إلزام الدولة بمنع النزاع وبالتأمين الاجتماعي – العنصر الروحي التهذيبي – محاربة الترف والبذخ – الرسول الزاهد – المتاع الباقي – جمع بين المصحف والسيف.

نزاع الطبقات ظاهرةٌ للحضارة الأوربية ، وقد فَشَا داؤه وعمّ بلاؤه.

التفاوت قديماً وحديثًا

والناس منذ النشأة الأولى متفاوتو الحظوظ في هذه الدنيا ، منهم الفقير والغنيّ ، والحاكم والمحكوم ، والضعيف والقويّ ، والمريض والصحيح ، يعيشون متعاونين متفاهمين في حدود القبيلة أو مجموعة القبائل ، أو اتحادات القُرَى حول مدينة ؛ أو مجموعات المَدَائِن والقرى حولَ أعظمها ؛ فكانوا بطبيعتهم مأخوذين بغريزة الاجتماع والتعاون الذي أدركوه بالفطرة والتجربة.

وكانت هذه المجموعات البشرية كَخَلايا النحل ، تتعاون للإنتاج على نظام مقبول من الجميع ؛ فإن لم يكن مقبولًا عن رِضًا فهو مسلَّمٌ به طَوَاعِيَةً وعُرْفًا.

وكان هذا النظام يضطرب ويختلّ أحيانًا بعُدْوان مجموعة أخرى ،

أو بفسادٍ داخليٍّ ينشأ عن شذوذ أو ظلمٍ بانحرافِ هيئة قوية أو فرد قويّ واستبداده وأثرته ، ولا يلبث هذا الاضطراب أن يستقرّ بعودة الأمور إلى نِصَابها ، وسَيْر التعاون في الخَلِيّة على مقتضى الغريزة والعرف المتفق عليه.

ولم يعرف الناس نزاع الطبقات عنصرًا للاضطراب والخلل كما هو اليوم ، ذلك النزاع الحادّ الدائم بين الفقراء والأغنياء ، والعمال والصناع والمُلّاك والمُدِيرين.

أمثلة من التاريخ العالمي

نعم قد نجد في تاريخ البشر دعواتٍ قوية متطرِّفة كدعوة « المَزْدَكِية » في فارس ، وكانت تقول بالمساواة التامَّة في المعاش . ونجد في أعقاب الدولة الرومانية نزاعًا بين العامَّة والخاصَّة ، أو بعبارة أخرى بين العبيد والأحرار . ونجد في صدر الإسلام أمثال أبي ذرٍّ رضى الله عنه يهجر الشام محتجًا على الثَّرَاء ومِلْكية الأرض ، ونجد الخوارج يَشْهَرُون سيوفهم ويستبسلون في سبيل الفوضى الاجتماعية ، فيقول المتطرفون منهم بأن لا حُكْم إلا لله ، وينكر ضرورة الحكومة مُدّعيًا أن في طبيعتها الفساد ، وأن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدافع من الدين والوجدان ما يكفي لاستقامة شئون المجتمع ، وينكرون حقوق الملوك . وكان المعتدلون من الخوارج لا يُوَرِّثُون مَلِكًا مُلْكًا ، ولا يؤثرون به بيتًا ولا قبيلة ولا سيدًا على أي أحد من الناس ، ويقولون بإمامة العبد ومساواته للقرشيّ والهاشميّ ، ويتزهدون ويحملون الناس على الزهد ،

حتى كادوا يسوّون ما بينهم في المعاش ولو أنهم لم يحرِّموا المِلْك .

التعقيد العصري في المذاهب والدعوات

وجُدت هذه الدعوات على أنها شاذّة ، ومع ذلك لم تصل إلى شيء مما وصلت إليه الدعوة الاشتراكية أو الشيوعية ، ولا ادّعت ما ادّعتا من المساواة في الرِّزق والكسب والمِلك ، ولم تقم على أنها نزاع وصراع طائفة العمال مع غيرها من الطوائف ، ولم تصل إلى مثـــل النزاع الحديث والحروب الدامية بين العمال والطبقات الأخرى .

فهذه الشيوعية ، وهذه الاشتراكية التي نظمت الأحزاب « العمّالية » والاشتراكية والشيوعية لا شك جديدة ، وهي أثرٌ مباشر للنظام « الرأسماليّ » الحديث .

وكان الناس على البساطة الأولى متعارفين ؛ فالجار الغنيّ صديق جارِه الفقير ، يعرفه شخصيا ويعرف أولاده ، يتصلون جميعا في شيء من الإخاء ، تجمعهم قُرْبى الدم أو قربى الجوار ، وشيخ القبيلة أو القرية مهما حسنت حالته المعاشية أو كَبُر جاهه هو شيخ الفقير والغنيّ ، موصول الوُدّ بالجميع ، وغِناه وثَراؤه لا يتجه للزينة والترف والأَثَرة ؛ فعِزُّه في الكرم وفخره في الإيثار ، وأبناؤه على عزتهم ككل أبناء القبيلة أو القرية ، يلعبون كما يلعبون ويَطْعَمون ويلبسون طعاما ولباسا يشبه في جوهره ما يأكل الناس وما يكتسون .

فلم تكن دوافع الحسد والغَيْرة تحركها مظاهر التَّرَفِ والبَذَخ يتمتع به الكبراء والأغنياء ويُسرِفون في أَذَى عيونِ الناس وآذانهم

ونفوسهم ، وكانت كذلك الثروات محدودة وجمهور الشعب في مستوى واحد .

من آثار البخار والكهرباء

فلما استُخْدِمَ البخار والكَهرُباء تضخّمت الثرْوة واتسع نفوذ أصحابها وكثر عددهم ، وحلّت المحرِّكات الآلية محل اليد ، وسَهُل الانتقال وزادت السرعة في كل شيء ، فنمت التجارة ونما المال وبعدت الشُّقّة بين الفقر والغنى فانحطّ مستوى طبقة الصناع والعمّال ، وبَسَمت الدنيا لمُلاّك الآلة وملاّك الأرض والسماسرة والتجار والمسيطرين على وسائل النقل ، وحلّ النظام الرأسماليّ الجديد بكل ما يصحَبُه من جَفاءٍ ازداد به الناسُ بُعدا في الفِكْر والمظهر ، وانقلبوا أعداءً .

الرأسمالية والعمالية

وكان لا بد للطبقة المحرومة ، وقد هبطت إلى نوع من العُبُودِيّة للآلة وصاحبها ، أن تلتمس لنفسها سبيلا للحريّة ، وقد أحست أنها على كثرتها لا تملك من الأمر شيئا . فاحتقرت دساتيرها ، ورأت فيها وسائل ظاهرُها الرحمةُ وباطنُها العذابُ ، تمكّن أرباب المال من التحكّم واستخدام الشُّرطة للغلَب ، غلبِ القِلّة المالِكة الضعيفة على الكثرة المحرومة القويّة ، فاتجهت إلى الثورة ، ونظمت لذلك النقابات والأحزاب وأصبحت هذه عنصرًا أساسيا من عناصر الاضطراب العالمي .

وما كادت تنتهي الحرب العالمية الأولى حتى ابتدأت ثورات جامحةُ وفِتَنٌ دَمَوِية وصلت ضحاياها في الحرب الأهلية الروسيّة إلى عشرات الملايين ، وفي الحرب الأهلية الأسبانية التي استمرت نارها أكثر من

سنتين إلى مليون ، ولم تسلم بقية الأقْطار الأوربية والأمريكية من فتن دموية . ولا تزال الدعوة تُلْهب غيظ الفقراء على الأغنياء ، وطبقةَ الصنّاع والعمال والزراع على الملاّك ، وتهيِيء الأرض لانفجاراتٍ أشدَّ خطرا في كل مكان .

في الدول الشيوعية والنازية والفاشية والديمقراطية

وقد أخذت الحكومات والشعوب في تَلَمُّس العلاج ، فذهبت مذاهبَ شتّى ؛ فبعضها ذهب إلى استئصال طبقة الملاّك كما حدث في روسيا ، وبعضها إلى استئصال دعاة العمّالية والشيوعية كما حصل في أسبانيا ، وبعضها عوّل على القهر والاستبداد لإقامة الأمن والتوازن ، فسلبت الحرية الشخصية كما حصل في إيطاليا وألمانيا ، إذ انتزعت الزعامة الدكتاتورية الأمر من يد الجميع .

وفي البلاد الديموقراطية لا تزال الرأسمالية تبسط كف العلاج بالهِبَات للطبقات المحرومة ، وتتحايل للمَخْلص ، وقَدَرُها لا يزال في السماء !

ومن الصعب جدا في مثل هذا العَرْض السريع أن ندخل في بحث النظام الرأسمالي مالَه وما عليه ، كما يصعب كذلك متابعةُ المشكلة الاجتماعية ومتابعة الأوربيين والأمريكان فيما يَعْرِضون من حلول ، وما يقاسُون من ويْلات نظام الربا والأَثَرَة ، وسنكتفي بما ذكرنا معتمدين على معرفة أكثر القارئين لمعضلة النزاع بين الطبقات وأسبابها وآثارها .

ولْننظرْ فيما جاءت به الدعوة المحمدية من قواعد لنرى هل فيها العلاج لمشكلة المجتمع في هذا العصر ؟

أول مشكلات المجتمع وأسباب النزاع هو الفقر . وقد بينا في فصلي التكافل والبر كيف عالجه الإسلام . ونورد هنا بعض الحديث الذي يوضح أن الإسلام مرنٌ يسير مع المصلحة العامة في معالجة الفقر الذي هو السبب الأكبر لنزاع الطبقات ، وقد اتخذت الشريعة لذلك سبيلين .

الأول – أنها جعلت للمحروم حقَّه الثابت في أموال الناس جميعًا . وأقول جميعا لأنَّ الحد الأدنى من المال أو المِلْك أو المنتجات الذي تستحق فيه ضرائب الزكاة يستطيعه كل صحيح يعمل ؛ فالنِّصَاب في زكاة الفِطْر مثلا هو ما زاد على قُوتِ يومٍ من خبز الشعير ، وقد جعلت فيه الشريعة حقا للمحروم .

وقد تنوعت الضرائب الشرعية في أموال الناس لمقاومة الفقر والقضاء عليه ، وجعلت هذه الأموال بنص القرآن مخصصة لأصناف المحتاجين ، وليس للإمام أن يصرِفها في غير ما خُصِّصَت له .

ولم يبيّن القرآن بالتفصيل ما تجب فيه الزكاة من الأموال ، ولا المقدارَ الواجب دفعُه . وقد بينت السنّة ذلك في كتابٍ كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن ولاّهم أمر الصدقات ، وبيّن القرآن من تدفع لهم الصدقات فقال : « إنما الصدَقات للفقراء والمساكينِ والعاملين عليها والمُؤَلَّفَةِ قلوبُهم وفي الرِّقاب والغَارِمين وفي سبيل الله وابنِ السبيل فريضةً من اللهِ واللهُ عليمٌ حكيم » .

المبــدأ ثابت والتنفيذ مرن

فالقرآن وضع المبدأ والرسول نفذه ، والقرآن خصص الزكاة وعلى الإمام أن يوجهها حسب الحاجة ؛ فقد يجد أن ما كان يُنْفَق لتحرير الرقيق أو للمؤلفة قلوبهم أو ابن السبيل معدوما أو قليلا في زمننا الحاضر فيوسع في نصيب الفقراء . وسبيلُ الله الذي يدل على معنى عام يجد الإمام فيه أبوابًا كثيرة من البر الذي يوجَّه للمصلحة العامة في كل عصر حسبَ مُواضَعات أهله ، كالتأمين الاجتماعيّ الآن مثلا .

الثاني – لم تكتف الشريعة بهذا الحق المعلوم في أموال القادرين للمحتاجين ، بل جعلت الدولة كفيلةً على إقامة التوازن الاجتماعي ، فرأس الدولة مسئولٌ عن هذا التوازن يعدّله بالزكاة ، فإن لم تكفِ فله باسم المصلحة العامّة أن يأخذ من أموال الناس للصالح العام ، وعليه أن يقيم العدل بالقسطاس المستقيم .

الشرع مع المصلحة

وحيثما كان هذا العدل فثَمَّ شرعُ الله ودينهُ . فإذا فرض أن هذا العدل يقتضي أمرًا لا نصّ فيه ولا أثرًا شرعيًّا فعليه أن يجتهد برأيه .

مثلان رائعان من حرية تصرف الدولة حسب الظروف

وإليكم مثلين من اجتهاد الإمامين الكبيرين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما : كان أبو بكر يقسِّم المال بين الناس على السواء ، لا يفضّل أحدًا على أحد ، فقيل له : يا خليفةَ رسول الله ، إنك قسّمت هذا المال فسوّيْت بين الناس ، فمِنَ الناس أناسٌ لهم فضْلٌ وسوابقُ وقَدَمٌ ، فلو فضَّلتَ أهلَ السوابق والفضل بفضلهم ؟ فقال : « أما ما ذكرتم من السوابق والقَدَم والفضل فما أعرَفَني بذلك ، وإنما ذلك شيء ثوابُه على الله ،

وهذا معاشٌ ، فالاسْوة فيه خيرٌ من الأَثَرَة » .

فلما كان عمَرُ وجاءت الفتوح فضّل وقال : « لا أجعلُ من قاتَل رسولَ الله كمن قاتَل معه ». وعلى ذلك أسس ديوانَ الجيش . ومع ذلك ، فعمر الذي لم يتَّبع الرأيَ الذي يقول بأن الأسْوة في المعاش خير من الأثَرَة هو الذي ترك ظاهر النصوص القرآنية في الغنائم[١] . إذ قال لما فتح الله على المسلمين العراق والشام ردًّا على من أرادوا قسمة الأرض بين فاتحيها والاحتفاظَ بالخُمْس فقط للمصالح العامّة : « فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعُلُوجها[٢] قد اقْتُسِمَت ووُرِّثَتْ عن الآباء؟ ما هذا برأْيٍ » . فقال له عبد الرحمن بن عوف : « فما الرأي ؟ ما الأرض والعلوج إلا ما أفاء الله عليهم ». فقال عمر « ما هو إلا كما تقول ، ولست أرى ذلك ، واللهِ لا يُفْتَحُ بعدي فتحٌ فيكون فيه كبيرُ نَيْلٍ ، بل عسى أن يكون كَلاًّ على المسلمين . فإذا قسّمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يُسَدّ به الثغور ؟ وما يكون للذرّية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق ؟ » فأكثروا على عمر وقالوا « تَقِفُ ما أفاءَ الله علينا بأسيافنا على قوم لم يَحْضُروا ولم يَشْهَدُوا ؟ !

---

(١) لعل عمر كان في ذلك مقتديا بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في خيبر حين قسمها بين جنوده الفاتحين والدولة فوزع نصفها عليهم وأوقف الباقي على المسلمين . فاتخذ عمر استثناء الأرض من توزيعها على الفاتحين قاعدة لما فتح العراق والشام فجعل الأرض كلها وقفا على المسلمين جيلا بعد جيل . وقد أخذ مالك بما فعل عمر في هذا ولم يأخذ به الشافعي (أنظر زاد المعاد لابن القيم (غزوة خيبر وما فيها من الأحكام) .

(٢) جمع عِلْج وهو الواحد من كفار العجم .

ولأبناء قوم ولأبناء أبنائهم لم يحضروا ؟ ! » فكان عمر لا يزيد على أن يقول : هذا رأيي . قالوا : فاستَشِرْ ، فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا ، فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقُهم ، وكانَ رأي عثمان وعليٍّ وطلحةَ وابن عمر رأيَ عمر ، فأرسل إلى عشْرة من الأنصار : خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج ، من كبرائهم وأشرافهم ، فلما اجتمعوا قال : « إني لم أُزْعِجْكم إلا لأنْ تشتركوا في أَماتني فيما حُمِّلتُ من أموركم ، فإني واحد كأحدكم وأنتم اليوم تُقِرُّون بالحق ، خالَفَني من خالفني ووافقني من وافقني ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هَوَايَ ، معكم من الله كتابٌ ينطق بالحق ، فوالله ! لإنْ كنتُ نطقتُ بأمر أريده ما أريد به إلا الحقّ » قالوا : « قل نسمعْ يا أمير المؤمنين » . فذكَر لهم وجهَ الخلاف ، فأيدوُا رأيه ، فقرر إبقاء الأرض بأيدي أهلها ، وضرب الخَراجَ عليها ، وسكت المخالفون اتباعًا للرأي الغالب .

هذا مثلٌ من تصرّف تلميذ الرسول وخليفته في أمر جاء به نصّ وهو نفسه يسلّم بهذا النص(١). غلّب عمرُ رضى الله عنه الرأي الذي قضت

(١) وفي رواية عن الزهري ما يدل على أن عمر في استدلاله على ضرورة استثناء الأرض وعلوجها من التقسيم والتوزيع على فاتحيها كان معتمدا على ما يفهم من عموم قوله تعالى : (والذين جاءوا من بعدهم ...) بعد سياق الآيات في سورة الحشر من قوله تعالى : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ... ألخ) اذ ان آية : (والذين جاءوا من بعدهم) عامة فيمن يأتي بعد من الذريات الذين رأى عمر أنه لا تحفظ مصالحهم ومصالح الدولة مع توزيع الأرض على فاتحيها ... وعلى كلتا الروايتين قد أثبت عمر أن المصلحة العامة كانت سبب تخصيص النص العام أو فهمه فهما آخر يتسع له السياق .

به المصلحة العامة التي رآها ورأتها الأغلبية من عقلاء المسلمين أهلِ الشّورى .

الدولة اكبر مهام

فالشريعة المحمدية لا تقف مكتوفة اليدين متى بانت المصلحة العامة ، بل هذه المصلحة والعدل هما غرض الشريعة الذي لن تتجاوزه .

لا خصومة ولا نزاع متى خلصت النيات لله

فإقامة توازنٍ اجتماعيّ يُرْفَع به شرُّ الحاجة عن المحتاج ، ويستقيم معه العدل والتأمين الاجتماعي هو أكبر مهامّ الدولة الإسلامية . ومسئولية الإمام وأهل الشورى في ذلك واضحة .

* * *

والدعوة التي لا يتردد صاحبها وأتباعه في إقامة ميزان العدل الاجتماعي على أساس المصلحة العامة لا يمكن أن تقومَ الخصومةُ بين أنصارها على أساس المصالح الطائفية الدنيوية ؛ فالمصلحةُ العامة لا تتجزأُ ، والطوائفُ لا وجودَ لها متى كان الكلُ عبيدًا لله متساوين ، وكانت مصلحةُ الكلِّ فوق مصلحة الفرد أو الطائفة .

قد يقالُ إن أكثرَ ما يختلف عليه الناس يقوم على دعوة من المصلحة العامة ، وإذًا فليس ما أتت به الدعوة المحمدية من ترجيحِ هذه المصلحة بكافٍ لمنع الخلافِ ، وليست كلمةُ العدل ذاتَ معنى واحد عند الناس ليكون للعدلِ ميزانٌ ثابتٌ . وهو اعتراضٌ صحيح إذا كانت هذه المصلحةُ مطلقةً بغير حدٍ ، وكان هذا العَدلُ متروكًا لمجرد ظنِّ الناس ، وذلك ما لم تتركْه الدعوة المحَمدية للهوى .

فالشريعة الإسلامية تستمدُّ تعاليمَها من الإيمان برب العالمين إله

الناس جميعًا الذي يعلم خائنةَ الأعين وما تُخفي الصدور ، ومن الإحسان الذي لا تُقبل فيه الدعوى ، والذي يقصد به وجه الله .

فالجماعة المؤمنة إذًا لا تستطيع أن تترك رأيها للشهواتِ ، والمصلحةُ العامة عندها واحدة تقوم على العمل الذي يُرْضِي خالق الناس جميعًا فلها ضابطٌ من الوِجدان الطاهر البرىء . والمصلحة العامة كذلك محدودة بما تقتضيه الأخوّة التي قررها الدين وجعلها شرطًا لتمامه « لا يؤمِن أحدُكم حتى يُحِبَّ لأخِيه ما يُحِبُّ لنفسِه » . « كلكم من آدم وآدمُ من تراب » . فعنصرُ الأثرَةِ منفيٌّ بالعقيدة ، وفي هذه العقيدة أكبرُ ضمان .

الإيمان هو الحارس الأول على المصلحة

والمصلحةُ العامة أيضًا ليست موكولةً للصدْفة ، لأن على الأعمال حسابًا يُقْتَضى من إلهٍ عليمٍ في الدنيا والآخرة ، فهو يجازي الأممَ المسرفةَ المفرِّطة المتخاذلةَ في الدنيا ، ويحاسبُ الناس على أعمالهم في الآخرة . والعدل هو الإنصاف بالحق موزونًا بالإخاء والمساواة ، فليس عدلا ما يتنافى مع الإخاء والمساواة .

وعليه فالدولة الإسلامية التي يكفلُ فيها الإمامُ التوازنَ الاجتماعيَّ والتي تقومُ على قوله تعالى « وزِنوا بالقِسْطاسِ المستقيم » والتي أُخِذَ فيها رأيُ عُمر رضى الله عنه في ظرفٍ ما وعُدِل به عن ظاهرِ النصّ القرآني عدولا مبرِّرُة المصلحة العامة لا محلّ ولا سبيل لنزاع الطبقات فيها .

قد يقال : إن ذلك صحيح ما دام خوفُ الله وطاعتهُ أصلًا في

اعتبار المصلحة العامة ، فما القولُ إذا ضاع الإيمان وفَسَد الوِجدان ؟ والجوابُ أن ذلك هو ما أصاب العالمَ وجرَّ هذه الويلاتِ على الحضارة الأوربية ، وجرَّها بالطبع على المسلمين والشرقيين منذ آمادٍ طويلة .

ومع ذلك فالشريعة الإسلامية بما أوتيت من سَعة الأفقِ وحسنِ التقدير قد فرضت كذلك مثل هذه الحال فأقامت الزَّجْر والتعنيف لرد الناس إلى الحق ، حتى أباحت القتال لنصرة المظلوم ، ووكلَت إلى وليّ الأمر إقامة الحق بالقوة . إذ لما ارتد العرب وأبوْا أن يدفعوا للفقراء حقوقهم قاتلهم أبو بكر وقال « والله لو منعوني عِقَالَ بعير كانوا يؤدُّونه لرسول الله لقاتلتُهم عليه ! » فلم يَكِلْ أمرَ الفقير لوجدان الناس وقاتلهم على حقه .

والشريعةُ المحمدية حين خَصَّصت بنص القرآن إيرادَ ضرائبِ الصدقاتِ للتأمين الاجتماعي ضدَّ صُنوفٍ من الحاجة لم تكِل الناس إلى وجدان الإمام أو الدولة . وزادت على ذلك أن جعلت للإمام أن يفرضَ في أموالِ الناسِ بقدرِ ما يؤمِّنُ الحاجة ، كما عليه التزاماتٌ لا مخلصَ منها لأصنافٍ من المصابين في المجتمع أشار القرآن إليهم ، ولا بد له من أدائها من بيت مال المسلمين . ويمكن أن يضاف إلى هؤلاء الأصنافِ أصنافٌ أخرى من ذوي الحاجة بالقياس ؛ فعليه مثلا علاجُ من لا عائلَ له من المرضى ، وإرضاعُ من أبت أُمُّه إرضاعَه ، وإيواءُ من لا مأوى له ، وإطعامُ من لا عملَ له ، وإعانةُ القادر على

العمل بتمكينه من العمل .

إلزام السلطان بمنع نزاع الطبقات وبالتأمين الاجتماعي

فالشريعة المحمدية لم تترك الأمر لوجدان الناس وحده ، ولو أنها في الحقيقة كانت حكيمة في استخدام الوِجدان كأحسن أداة لعلاج المشكلة الاجتماعية .

وقد أشرنا إلى ضرائبِ الصدقاتِ باعتبارها أداةً لمقاومة الفقر وبالتالي علاجًا للمشكلة الاجتماعية ، وأشرنا كذلك إلى حق الإمام في التشريع والاجتهاد برأيه بعد استشارة ذوي العقول والعلم من أهل الرأي متوخياً المصلحة العامة وحائلًا بين الطبقات والطوائف وبين النزاع والتحاسد والبغضاء. فهذه الضرائب المقررة بنص القرآن والمباحة باجتهاد الإمام ورأي جماعة المسلمين أصل ثابت في مقاومة الفقر .

* * *

العنصر الروحي التهذيبي

وقد عولت الدعوةُ علي الوجدان تعويلًا كبيرًا وجعلت جزاءَ المحسنين الجنةَ ، فنرى التحريضَ على إنفاق المال في سبيل المحتاجين إليه يترددُ في آياتِ الكتاب في كل مناسبة ، وفي أقوال الرسول في كل حين. وليس هذا مقامَ سَرْد عشراتِ الآيات وعشرات الأحاديث ويكفي قولُه تعالي « قل لعبادِيَ الذين آمنوا يقيموا الصلاةَ وينفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانيةً من قبل أن يأتيَ يومٌ لا بَيْعٌ فيه ولا خِلال » .

والتربية المحمدية تهذيب يرمي إلى التكافل الاجتماعي ، ويجعل الغرضَ من العمل والحياة البرَّ « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء

ذي القُرْبى ويَنْهى عن الفحشاء والمُنْكَرِ والبَغْيِ » . فكل شخصٍ حَسُنت تربيتُه فهو مهيأٌ تمامًا للخدمة الاجتماعية ؛ وهذه التهيئةُ بالتربية المحمدية هي أفعلُ الوسائل في مقاومة آفات المجتمع وأقدرُها على جمع الناس ومنع النزاع .

وإذا اعتبرنا ما ذكرنا من وسائل مقاومة المشكلة الاجتماعية أعمالًا إيجابية في الدعوة المحمدية لمنع حرب الطبقات ، فإن الأسباب السلبية ليست أقلَّ أثرًا في هذا السبيل . فبينما نجدُ أن الدولةَ الإسلامية هي أكبرُ مؤسسةٍ للتأمين الاجتماعي ، يرأسُها إمام المسلمين ويقوم فيها أهلُ الشُّوري مقامَ مجلس الإدارة في الشركة ، ونجدُ هذه الدولة تعمل لرفع مستوى العيش للطبقة المحرومة ، نجد كذلك الدعوة المحمدية تقاوم بسلاح الإيمان والدين الإسرافَ والترفَ لتنزل بمستوى البذَخ إلى مقامٍ لا يثيرُ الحسدَ والضغينة . فتنعَى على المترَفين والمسرِفين في شهواتهم وتحذرهم سوءَ المصير وعذابَ الله والحرمانَ الأخرويَّ ، بل لا تكتفي بذلك وتنذرُ المجتمعَ كلَّه بالويل لتركه مَسْرِفِيه ومُتَرَفِيه دون رَدْع ولا زجر . «واتقوا فتنةً لا تصيبَنَّ الذين ظلموا منكم خاصّة» «وكلوا واشربوا ولا تُسْرِفُوا إنه لا يحبُّ المسرفين» «وكم أهلكنا من قريةٍ بَطِرَتْ معيشتَها فتلك مساكنُهم لم تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهم إلا قليلًا وكنا نحنُ الوارثين» .

محاربة الترف والبذخ

وبيّن أن من أسباب الخراب الاجتماعي كثرة المترفين في الأمة

«وإذا أردنا أن نُهلِكَ قرية أَمَرْنا[1] مُتْرَفِيها فَفسقُوا فيها فحَقَّ عليها القولُ فدمَّرناها تدميرًا».

أحَلّت الدعوةُ الطيباتِ من الرزق، ولكنها حرَّمَتْ على الرجال لِبْسَ الحرير والذهبِ كرمزٍ لبغضِها الترفَ والزينةَ الكاذبة، وأباحت للنساء الزينةَ، ولكنها قاومت غلوَّ المرأة بإعطاء القِوامة للرجال، وبمنعها من الظهور في تبرّج.

وما زالت الشريعة تَحُدّ من الإسرافِ والترف وبذَخِ العيشِ حتى ظن الناسُ أن ليس لغنيٍّ سبيلٌ إلى ملكوت السماء بغير الخروج من ماله، وصار التقشف رمزًا للتقوى.

الرسول الزاهد

ولقد كان رسولُ الله نفسُه على ما أوتي من سُلْطةٍ أكبرَ الزهاد. يقول ابنُ مسعود: «دخلت على رسول الله وقد نام على حصير وقد أثّرَ في جنبه وقلتُ: يا رسولَ الله لو اتخذنا لك وِطاءً نجعلُه بينك وبين الحصير يَقِيك منه؟ فقال «مالِي وللدنيا! ما أنا والدنيا إلا كراكبٍ استظلّ تحتَ شجرة ثم راح وتركها».

ويَرْوِي ابن هشام عن زيد بن أسلم «لما استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عَتّابَ بن أَسِيد على مكة رزقَه كلَّ يومٍ درهمًا. فقام أَسيد وخطَب الناس فقال: أيها الناس، أجاع الله كَبِدَ من جاع على درهم! قد رزقني رسولُ اللهِ درهمًا كلَّ يومٍ فليست لي حاجةٌ إلى أحد».

(١) أي أمرناهم بأوامر التقي ونهيناهم عن الآثام والفسوق والأمر في اللغة يشمل النهي.

ورُوِي أن رسول الله دخل على فاطمةَ وفي يدها سلسلةٌ من ذهب، وهي تقولُ لامرأة عندها: هذه أهداها أبو الحسن – تقصد عليًّا زوجها – فقال صلى الله عليه وسلم: «يا فاطمةُ أَيَسُرُّكِ أن يقولَ الناسُ: ابنةُ رسولِ الله في يدِها سلسلةٌ من نارٍ!» ثم خرج ولم يقعد. فأرسلت فاطمةُ بالسلسلة فباعتها واشترت بثمنها عبدًا فأعتقته، فحُدِّث رسول الله بذلك فقال «الحمدلله الذي نجّى فاطمةَ من النار».

وكان دعاؤه صلى الله عليه وسلم: «اللهم اجعل رزقَ آلِ محمدٍ كَفَافًا» أي لا يزيد عن الحاجة.

وعن أبي أُمامة الأنصاريّ قال: ذكروا عند النبي الدنيا فقال: «ألا تسمعون؟ ألا تسمعون؟ إن البَذاذَة من الإيمان. إن البذاذَة من الإيمان» أي التواضع في اللباس والزينه.

المتاع الروحي أبقى

فالدعوة المحمدية قد قاومت الفقرَ والترفَ فقاومت البغضَ والحسدَ، واستحال معها نزاعُ الطبقات. هَوَتْ بفضلِ الأموال والأحساب وسَمَتْ بفضلِ التقوى والقناعة، وعوّضت الناسَ عن كثير من متاعهم الماديّ بمتاعٍ رُوحي، فلا شك أن فاطمةَ حين باعت السلسلةَ وحررتْ العبدَ كانت تشعرُ بغبطةٍ وسرور كلما ذكرت فعلَها، أكثرَ مما لو أبقَتِ السلسلةَ في يدها.

وهل كان عمرُ غالبُ قيصر وكسرى، وهو في ثوبه المرقّع أقلَّ متاعًا بنفسه الراضية من المترَفِين الجبابرة في قصور قيصر وكسرى؟ كلا.

ولقد كان النجاح الذي أُوتِيَتْه الدعوةُ المحمدية في علاج المشكلة الاجتماعية بوسائلها السلبية والوجدانية أعظَم أثرًا في إصلاح المجتمع من وسائلِها الإيجابية بضرائبِ الصدقاتِ أو كفالةِ الدولة للمحتاجين بسطوةِ السيفِ والقانون.

والدعوةُ التي استطاعت أن تجمعَ بين السيف والوجدان ليتسلطا في وقت واحد، ويسيرا في نهْجٍ واحد لغاية واحدةٍ هي مجاهدةُ آفـات المجتمع، هي الدعوةُ الموفقةُ التي ستظل حيَّةً على مدى العصور.

جمع بين المصحف والسيف

* * *

النّزعات العنصرية والوطنيّة

العنصرية قديماً وحديثًا – الوطنية والقومية الحادة عصبية حديثة – أثر التشدد في الحدود الجغرافية والجنسية – انتقال العصبيات الحادة إلى الشرق – نظريات اختلاف الدم – أضرار الهجرة الإجبارية – بارود الحروب الحديثة – الإسلام لا يعرف وثنية العنصر والوطن – وضع العلاقات البشرية على أساس معنوي – خلاف أخف من خلاف – القوة ليست وسيلة الإسلام لتحقيق أهدافه – لا سيادة ولا عبودية.

العنصرية قديماً وحديثًا

ولْنَنْظر الآن في سبب آخر من أسباب الاضطراب العالمي وهو الإفراط في النزعة الوطنية والعنصرية وما ترتب عليها من الأَثَرَة وحبّ الانفراد بالعزة والسلطان وإنكار حقوق الآخرين، ثم النزاع والتسلح والحرب.

كان الناس يتنافسون قبائلَ ويتحاسدون ملوكًا ويختلفون على الله أو في سبيل الله، ولم تكن نَعرة الوطن ولا نَعْرة العنصر فاصلًا حاسمًا بين المجموعات البشرية كما أرادَتها المدنية الحديثة. وتاريخ العرب والترك والبربر وغيرِهم من الأقوام الإسلامية حافلٌ بالنزاع القبَلَيِّ، بعيدٌ عن النزاع العنصري. وكذلك كان الشأن في أوروبا، وكانت الأسرة المَلَكية تضم تحت رايتها باسم الوَلاء للمَلِك أو باسم الولاء للمذهب قبائلَ وشعوبًا تتّحد مصالحها وإن اختلفت أصولها أو لغاتها، وأحيانًا عقائدها.

وكثيرًا ما تكون هذه الأسرة غريبة ، أو تكون من الأقلية القومية في الدولة ، فتتكون تحت رايتها مجموعةٌ تربِطها القوانين وتتسع لأقلياتٍ شتّى تعيش تحت الراية ، ينالها من الشقاء والسعادة مثلُ ما يصيب الجميع .

وكثيرًا ما تكون هذه الأقليات أرغبَ في هذه الراية والولاء لها منها لأقرب الأقوام والعناصر من جنسها أو لغتها تحت رايةٍ أخرى .

كان الأمر كذلك في كثير من الدول التي عاصرناها كالدولة العثمانية تحت لواء آل عثمان ، والدولة النمساوية المجرية تحت لواء آل هبسبرج ، وقد شاهدنا شعوبًا من العرب أشدَّ وَلاءً وإخلاصًا لدولة آل عثمان منهم لأمرائهم وأشرافهم من العرب .

وكان الأمر كذلك في الدول القديمة ، وفي دول القرون الوسطى ، كالدولة العباسية والإمبراطورية الرومانية المقدسة والإمبراطورية البيزنطية . وكذلك عرفنا من الصقالبة في دولة النمسا من كانوا أوفى لَها منهم لأبناء عمومتهم من الروس .

كذلك كان يَرْقَى سُلَّم المناصب كلُّ من سمحت له مواهبه وظروفه في خدمة الملك أو السلطان ، فتجد البرامكة وآلَ طاهر الإيرانيين ، أعلى الناس مَقامًا في خلافة الهاشميين من العرب ، وعائلة « كوبرلي زاده » من الأرنؤوط في خلافة العثمانيين من الترك ، بل لقد صعد هذا السلّم من العبيد في الدول الإسلامية عدد أكثرُ بكثير مما تأْذَنُ بهِ نسبتهم العددية ، وبلغ الذروة من المماليك ما بين مصر والهند في الدول الإسلامية

عشراتُ السلاطين ممن لا تزالُ آثارهم خالدةً في دلهي والقاهرة، وفي تلك الساحة الإسلامية العظيمة من الأطلسي إلى الهادي.

ولم يكن الناس يتساءلون عن عنصر ولا أصل، وإنما يتساءلون عن عملٍ وخُلُقٍ ودينٍ. فمن المماليك الذين وصلوا إلى أعلى مناصب الدولة في مصر والبلاد الإسلامية نجد الأرمني والروسيّ والصقلي والكرجي والشركسي والتتري والتركي والفرنجي والسوداني والحبشي. ولو تعقبنا أنسابهم لانكشفت لنا عن جميع ألوان البشر.

الوطنية والقومية الحادة عصبية حديثة

فلم تكن الوطنية بمعناها الحديث، ولا القومية بعصبيّتها الحاضرة حدًا فاصلاً بين الناس كما صارت في العصور الأخيرة.

فالوطنية والقومية بمعناهما الحالي لم يكونا مع الأسف خطوة في سبيل الاستقرار، بل كانتا عاملا لزيادة الاضطراب العالميّ، وسببًا جديدًا لنزاعٍ أوسعَ دائرةً وأعصىٰ حلاًّ.

أثر التشدد في الحدود الجغرافية والجنسية

فإن الوطن باعتباره مُقامًا جغرافيًا لقومٍ من الأقوام لم يستطع أن يحدد حدودًا لجنسه من غير أن يصطدم بقوم آخرين وبانتشارهم، ولم تساعد الطبيعة إلا نادرًا على تحديد ساحة خاصة لعنصر خاص. ففي أوربا كلِّها لا تجد إلا الجزر البريطانية التي حددها البحر، ومع ذلك فلم تخلُ إيرلنده من نزاع مع بريطانيا على مقاطعة «ألستر» في شمال إيرلنده.

وقد مرَّ قرنان على الأقل على أوربا، وقد غرقت في دماء حروبها

لتعديل الحدود وتحرير الأقليات بين الفرنسيين والألمان، وبين هؤلاء والنمساويين؛ وبين هؤلاء وهؤلاء والصقالبة، وبين النمسا وإيطاليا، وبين البلقانيين جميعًا؛ وبينهم وبين الدولة العثمانية، وبين روسيا وجيرانها من الغرب أو الشرق أو الجنوب، وبين التشيك والبولنديين والمجر والرومانيين.

وهكذا نجد النزاع على ما يسمى الوطن وحدوده قائمًا لا يستقر بل يتزايد على مدى الأيام، وعلى قدر الحِدَّة في العنصرية والوطنية.

فما لم تكن الطبيعة بالمصادفة قد فَصَلَتْ في الأمر ببحر أو جبل فلا بد من النزاع.

انتقال العصبيات الحادة إلى الشرق

وهذه المشكلة الأوربية المستعصية وما يتبعها من نزاع على الحدود ونزاع على العنصرية وما تنطوي عليه من مشاكِل الأقليات، أخذت تنتقل إلى الشرق نتيجةً لتأدبه بأدب الغرب، واعتناقه نظرية الوطن والقومية، فأخذنا نسمع في السنين الأخيرة بقضايا شبيهةٍ بالقضايا البلقانية على سنجق الإسكندرونة بين سوريا وتركيا، وعلى شطِّ العرب والحدود بين العراق وإيران. ولم يكن المسلمون بتربيتهم المحمدية يتنازعون على مثل هذه القضايا باعتبارها مشاكل عنصرية، وستكون هذه المشاكل سببًا لبلاء الشرق كما كانت سببًا للحروب الدامية في الغرب، فيتنازع العرب والترك والكرد والشركس والأذربيجانيون والإيرانيون والأفغان والهند والأزبك والصين والمغول... إلى آخرهم، على الحدود والأقليات، حتى يَدْخُلَ الشرقُ جُحْرَ الضَّبِّ الذي دخله الغرب!

والوطنية بالعُرْف الحديث شرٌّ جديد ، والعنصرية بلاء أعظم ، ولا دواء لها إلا بتهجير عشرات الملايين من منازلها الحالية ، وحصر كل منها في نطاق جغرافي خاص.

نظريات اختلاف الدم

وقد أخذ بعض الأوربيين يُسْرِف في الدعوة العنصرية ، فغالَوْا في معناها واشتطُّوا في مرماها ، فجعلوا عنصرًا سيّدًا نقيَّ الدم وآخرين دون ذلك. وهو أمر مُحالٌ لا وجود له ، يزيد العالم اضطرابًا وخصامًا.

ومن ذا الذي يستطيع أن يَفْرِز الأقوام ويحلّل دماءها ويكفي الناسَ شر الأقليات المذهبية واللغوية والقومية ، ويَكفيَهم بلاء الحدود التي لم تأْذَن بها الطبيعة ولا العقيدة والفكر ؟

أضرار الهجرة الإجبارية

وقد جرّب اليونان والترك الهجرة الإجبارية ، ولم يستفد منها اليونان ولا الترك رغم ما صحِبها من اضطراب وقسوة في نزع الناس من منابتهم ومساقط رؤوسهم. على أن هذا التهجير الذي كان محدودًا وساعدت عليه ظروف خاصة لا يمكن تعميمه كقاعدة. ومع ذلك ، فلو فرض أننا ضَمِنَّا جيلًا من الناس في سبيل هذه التسوية ، فإن الأجيال الآتية كفيلة بنقض ما سوّينا ؛ لأن طبيعة الحياة تستلزم النُّقلة ، والمصالح تتبدل ، والأقوام تنمو وتنقرض ، فلا بد من اختلاط جديد وانتشار جديد ، ولا بد من العودة إلى القسوة والتهجير الجبري.

بارود الحروب الحديثة

وقد حاولت عصبة الأمم حلًّا لمشكلة الأقليات فهل حلّتها؟ ألم تكن هذه المشكلة في السوديت واللورين ودانزج وترنسلفانيا وبسرابيا

والدبروجة من مسببات الحرب الأخيرة ومضخماتها؟

ولقد كان الغلوُّ في معنى الوطنية والعصبية القومية عاملًا أساسيًا في زيادة الاضطراب العالميّ، والتدرّج بالحروب من نزاع موضِعيٍّ إلى شرٍّ مستطير أبعدَ مدًى في الأرض، وأوسعَ دائرةً في الخطر، أو بعبارة أخرى متناسبًا مع الانتشار الكبير للأقوام، متناسبًا مع سهولة الانتقال الحديث، متناسبًا مع الغلوّ في الأفكار القومية والوطنية.

الإسلام لا يعرف وثنية العنصر والوطن

والدعوة المحمدية لا تعرف الوطنية والعنصرية بالمعنى الحديث؛ فوطن المسلم ليس له حدود جغرافية، فهو يمتد مع العقيدة، بل هو في الحقيقة وطنٍ معنوي كما أن الدين أمر معنوي. يقول الله تعالى «يا عباديَ الذين آمَنُوا إن أرضِي واسعةٌ فإيّاي فاعْبُدونِ» والمسلم أخو المسلم أينما كان، جاوره أم تباعدت به الأرض، والمسلم أينما حل في دولة إسلامية فقد حلَّ في وطنه، وإذا وجد في دار حرب بين جماعة معادِية للمسلمين فسقطت عنه بعض التكليفات أو سقط بعض مالَه من حق فإنه يكسب جميع الحقوق وتكون عليه كل الواجبات بتحوّله عن داره، أو بدخول أهل هذه الدار، متى تغيرت الظروف بصلح أو ميثاق مع المسلمين، أو اشتراك في الدولة.

فالعنصرية أو العصبية للقبيلة أو الوطن أو اللون أو اللغة أو الثقافة تنكرها الدعوة المحمدية وتعتبرها دعوة جاهلية. يقول صلى الله عليه وسلم «ليس منا مَنْ دعا إلى عصبية» فالإسلام يأبى كل عصبية لغير كلمة

الله ، ولا يعرف الولاء إلا للعلاقة الروحية. والناس من أي جنس أو لون أو وطن إخوان إذا اتفقوا في العقيدة ، وولاؤهم إنما يكون لأمر معنوي لا لأمر ماديّ. يقول تعالى «وجعلناكم شعوبًا وقبائلَ لتعارَفُوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم». ويقول سبحانه «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانُكم وأزواجكم وعَشِيرتكم وأموالٌ اقترفتُمُوها وتجارةٌ تخشون كَسَادَها ومساكنُ ترضَوْنها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربَّصُوا حتى يأتيَ الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين».

وضع العلاقات البشرية على أساس معنوي

وهذه نظرية قد وضعت أساس العلاقات البشرية على وحدة الفكر ووحدة الغاية المعنوية. فهي بلا شكٍّ أسمى من النظرية الحديثة التي جعلت الجنسية أو المصلحة المادية أساس الولاء المشترك ، لأن النظرية المحمدية تسمو بالبشر وتشرِّفه بالعقل والروح ، بينا الأخرى تُهْبِطه إلى المادة فتشغل ناحية الحيوانيَّة منه. والعناية بحاجات الروح أدعى إلى السلم والاستقرار من العناية بحاجات الأبدان.

فنظرية الروح أسلم عاقبة وأدعى إلى السكون والتراحم.

خلاف أخف من خلاف

قد يقال : إن ذلك معناه أنك ترجح أن يكون النزاع بين الناس على العقائد والرأي لا على البترول أو القطن ، وذلك لا يغيّر كثيرًا من قيمة النزاع وشرّه ، ولا ما ينشأ عنه من اضطراب وحروب عالمية. وذلك صحيح لأول وَهْلة. ولكن نظرةً في طبيعة الناس تعلّمنا أنهم أشد انفعالًا وأكثر تحفُّزًا للشر حيثما يكون الأمر متعلقًا بالمادة وماسًّا بحاجاتهم البدنية ،

فالفلاح يقتل جاره لسقية ماء يريدها لحقله، ولكن لا يخاصم هذا الجار على خلاف ديني أو مذهبي، ولم نسمع أن مثل هذا الخلاف يؤدي إلى القتل إلا في النادر الشاذ.

وتاريخ الدعوات الفكرية قد تصحبها الحدّة في باديء الأمر، وينتهي شأنها إلى الاستقرار والحجة وسعة الصدر، لأن البشر لا يستطيعون التحمس للاعتداء والأذى إلا بحافز مستديم، والحافز المستديم هو حاجاتهم اليومية المرتبطة بمطالبهم المادية، وكثيرًا ما تكون حماستهم ثم فتكهم وهم يندفعون وراء فكرة سامية مشوبة بعامل خفي من مطالبهم البدنية.

ومع ذلك فالدعوة المحمدية قد احتاطت للأَمر، فبعد أن أقامت العلاقات بين الناس على أساس وحدة الهدف المعنويّ، حرّمت على أنصارها أن يتوسلوا بالقوة لنشر الدعوة. يقول تعالى: «لا إكراه في الدِّين قد تبيَّن الرُّشْدُ من الغَيّ».

القوة ليست وسيلة الإسلام لتحقيق أهدافه

فالإسلام لا يَأْذَن باستخدام القوة إلا لضمان حرية الدعوة للناس جميعًا. وفرقٌ بين المطالبة بحق حرية الرأي وبين الإكراه على تغيير حرية الرأي.

وإذًا نستطيع أن نقرر أن الاضطراب العالمي القائم على دعوى الوطن الجغرافي، ودعوى القومية والعنصرية، ودعوى الحقوق المادية للوطن والعنصر يزول لو أننا اتخذنا من أصول الدعوة المحمدية ومبادئها

الدولية نظريتنا للعلاقات بين الأمم بسيادة الروح التي تدعو إليها وتشاركها فيها الأديان السماوية الأخرى.

ولعل الناس يجدون في ذلك الهدى، ولعل في نظام العالم بعد الحرب الأخيرة، وبعد هذه العِبَر ما يقوم على تلك النظرية السامية البعيدة التي جعلت عمر بن الخطاب بعد أن بَعُد عن عصبية الجاهلية ونشأ في المدرسة المحمدية يقول: «لو كان سالمٌ مولى أبي حُذَيْفَة حيًا لولَّيْتُهُ» والتي يعبر عنها رسول الله بذلك القول المأثور: «أنا أخو كلِّ تقيٍّ ولو كان عبدًا حبشيًّا، وبَرِيءٌ من كل شقيٍّ ولو كان شريفًا قرشيًا». لا سيادة ولا عبودية

* * *

هزيمة القوى المعنوية

السيطرة على المادة وأثرها في طغيان المادية – سرعة التطور المادي وبطء التطور الروحي – تباعد الفروق بين الناس تبعًا لحظوظهم من العلم المادي – بلبلة وشتات وتناكر – ضرورة التوفيق السريع بين الروح والمادة – نعم تستحيل إلى نقم – جرائم ترتكب باسم الحريات – لا بد من ضوابط أدبية قبل الكارثة الكبرى – توفيق الإسلام بين الحياتين – المدنية تتحطم مرتين في ربع قرن – أتعمير للتخريب؟ – فلنرجع إلى منابع الهدى والرحمة في الأديان – تصوير للحرب تسخر منه العقول – أجهالات في مكـــان الكمالات! – أفلح من زكاها.

سبب آخرُ من أسباب الاضطراب العالمي، هو انهزامُ القوي المعنوية أمام القوى المادّية، أو بعبارة أخرى تخلُّف القُوَى المعنوية عن اللِّحاق بالتطور الفجائي للحياة المادّية، واختلالُ التوازنِ بين الرُّوح والمادَّة.

السيطرة على المادة وأثرها في طغيان المادية

وكان الناس وهم على الفطرةِ الأولى لا يسيطرون على المادةِ إلا سيطرةً محدودةً، ولا يطمعونَ في التغلبِ على الطبيعةِ طمعَهم بعد اكتشاف البخار والكهرباء، ونفاذِهم إلى القُوَى الكمِينَة في الذرَّة، وإلى عناصرِ المادةِ وتحويل تراكيبِ هذه العناصرِ. فلما افْتتُّوا في استخدام الكيمياء والميكانيكا، واستخرجوا من ذلك قوًى جديدةً، انصرفوا عما وراءَ الطبيعةِ وعن عالم الروح إلى قهرِ الطبيعة والإيمانِ بالمادة وفِعْلِها دون سواها.

في أجيالٍ معدودة تغير وجهُ الحياة وانعكست وجهاتُ النظر.

فلو خرج أجدادُنا من أجْداثِهم لاستنكروا حياةَ أهل الحضارة الجديدة استنكارَ سكان الكهوف لسكانِ ناطحات السحاب. فقد تغيرت أسبابُ العيش وتغيرتْ كيْفيّاتُه وتغيرت أغراضهُ، وانقلب الناسُ إلى السرعةِ يطلبونَها وإلى الحركة الدائمة يستطيبُونَها، فنَفَرُوا من الدَّعةِ والسكون بقدر ما كان أجدادُهم ينفُرون من الضوضاء والسرعة.

تغيّر طَرْزُ الحياة فجأةً ولمّا يستقرْ، بل هو في تغيّر مستمر؛ فالفرقُ بيني وبين أبي هو جيلٌ واحد،[1] ولكنه أعظمُ من الفرق بين أبي وبين آبائه قبل عشراتِ الأجيال.

سرعة التطور المادي وبطء التطور الروحي

هذا التغييرُ الماديُّ المستمر، وهذه السرعةُ التي لا تزالُ تتضاعفُ دون أن تبلغَ حدَّها الأقصى، قد جعلت الإنسانَ وهو يلاحِقُ الحياةَ الماديةَ الجديدةَ يُغْفِلُ، أو لا يستطيع أن يحتفظَ بحياة معنوية مناسبة. فهو لا يستطيعُ أن يسايرَ هذه السرعةَ المتفجرةَ تفجُّرَ المادة إلى أجزائِها مسايرَةً يحتفظُ فيها بتُراثِه المعنوي، فتخلفت الحياةُ الرُّوحية التي كسبَها الناسُ في تجربةِ آلافِ السنين عن الحياة الماديةِ الجديدةِ التي كسبُوها في قرن واحد، وتطورت هذه الحياةُ تطورا فجائيا، وبقي الإنسانُ مُثقَلًا بتراثٍ معنويٍّ ضخم لا يتحركُ معه فخلَّفَه وراءه.

---

(١) ولد أبي حسن عزام في النصف الأول للقرن الماضي ومات في أوائل هذا القرن (١٩٠٩) وكان شيخا ريفيا زعيما في قومه متفقها في الدين ممثلا لمديرية الجيزة في مجالسها النيابية. وكان أبوه سالم عزام حاكم اقليم أي من بيئة متصلة بالدولة ومع ذلك فان الفرق بيننا ما ذكرت.

تباعد الفروق بين الناس تبعًا لحظوظهم من العلم المادي

فنرى الناس مختلفي الحياة اختلافا كثيرا بعد أن كانوا في أطراف المعمورة تربطهم صلاتٌ معنويةٌ وماديةٌ قوية ، ولا تختلف نظرتُهم للحياة ولا كيفيةُ عملهم فيها إلا قليلا . والفرق بين أبناءِ الجيلِ الواحدِ في بلدٍ واحدٍ أكثرُ مما كان من فرقٍ بين إنسانٍ في شمال أوروبا وآخرَ في وسطِ آسيا منذ بضعةِ قرونٍ . بل إن الفرق بيني هنا في القاهرة وبين بعض الفلاحين من أبناء عمومتي ، وأنا لا أزالُ وثيقَ الصِّلة بأهلي ، هو أكثرُ بكثير في طَرْزِ الحياةِ وطرزِ التفكيرِ مما كان بين أحدِ أجدادِي الأقربين وسكانِ المغربِ الأقصى أو الأفغان . ولا أظنُّ أن « ابنَ بطوطة » حين رحلَ من المغرب الأقصى إلى الشرق الأقصى وجد من الفرق بين الناسِ ما يجدُه قَرَويٌّ لم يسبِقُ له زيارةُ القاهرة إذا جاء إليها من ناحية قريبة في الجيزةِ مثلا . ففي الوطنِ الواحد أصنافٌ من الأمم تباعدت أفكارهُم وأخلاقُهم ومعنوياتُهم تباعدا متناسبا مع قدرتهم على ملاحقةِ الحياةِ الماديةِ الجديدةِ ، فمنهم من يركبُ في موكبِ الحياة المادّيةِ المتحركةِ ، ومنهم من يتعلقُ بمَرْكَبِها ، ومنهم من يجري وراءَها ، ومنهم من ينظر حائرا ، ومنهم من يَئِس وقعد وانقطع .

فالذين ملكو المادّةَ وصناعتَها ، عليهم – وهم في موكبِ الحضارةِ – مَسْحةُ التجانسِ الظاهرِيِّ ، ولو أن صلاتِهم الرُّوحيةَ أضعفُ جدا مما كانت ، والمتخلفون أقلُّ تجانسا .

بلبلة وشتات وتناكر

لقد صارت الأمم صنوفا من الناس متقاطعةً ، وصار البشرُ مشتتين

في عالمٍ متناكرٍ تبلبلت فيه الأفكارُ ، واختلّ العرفُ البشري ، وتباعدت ألوانُ العيشِ المادِّي ، وتكاثرت صورُه الذهنيةُ ، وتناكرت الطبقاتُ والطوائف والأقوامُ . وكلما امتدّ دَوْر الانتقالِ تعددت مظاهرُ الأفرادِ والجماعاتِ واستعصى الرجوعُ بها إلى أصولٍ مقبولة ومسلَّمٍ بها من الجميع ، أو مسلمٍ بها على الأقل من كُتَلٍ كبيرة كانت تجمَعُها صِلاتٌ روحية قوية في عقائدَ دينيةٍ مشتركةٍ تشمل مئاتِ الملايين من الخَلْق .

وما يُظَنُّ من أن الحياةَ الماديةَ القائمةَ على السرعةِ وسيلةٌ عاجلةٌ لجمع البشر على نظرةٍ موحدةٍ للحياة المادِّية ، وعلى أسسٍ معنويةٍ مقبولةٍ من الجميع ، أمرٌ قد يكونُ في سبيلِ التحقيقِ ، ولكنه لا يزالُ بعيدا جدا . وسيَلْقَى العالمُ أهوالَ أدوار الانتقال والاستقرار ، ولن يستطيعَ الناسُ أن يخلعوا التراثَ المعنويَّ والفكريَّ كما يخلعونَ الثيابَ ، ولذلك ها نحن أولاءِ نشهدُ تَشَعُّبَ الأفكارِ والآراء واضطرابَ الحياة .

ضرورة التوفيق السريع بين الروح والمادة

ولا بد لنا من التفكير العاجل والعملِ السريع للتوفيقِ بقدرِ المستطاع بين الحياة المعنوية الموروثة وبين الحياةِ الماديةِ المفاجئةِ ، وتجنبِ أثرِ الصدمةِ التي تتولدُ منها هذه الانفجاراتُ الهائلةُ بين الأممِ وبين الطبقاتِ في الأمم . لا بد لنا ، كي نتمتع بثمار المدنيةِ الآليةِ ونستكملَ نعمتها ، من بعثِ الحياةِ الرُّوحيةِ بعثًا جديدا مناسبا للحياة المادِّية الجديدة . ففي هذه الحضارةِ نعمٌ لا حدّ لها ؛ فقد تغلب الإنسان بالآلة والعلم على كثير من الصِّعابِ والوَيْلاتِ ؛ زاد إنتاجهُ وسهُل انتقالُه وقَهر الأمراض

الجائحةَ واتقى القحطَ ، وتعددت مصادرُ لهوِه ومرحِه وتزينت له الأرضُ وأخذت زخرفَها ومشى في قرنٍ واحد بالحضارةِ الماديةِ ما لا يقاس معه مَشْيُه في القرون الماضية ، ولكنه في قرنٍ واحد كذلك قضى أو كاد يقضي على تراثه المعنوي الذي كسبه في عشرات القرون .

نَسِيَ اللهَ فأنساه نفسَه . ففي جيل واحد هُزِمت حياةُ الروح هزيمةً نكراءَ أمام حياةِ المادّة ، وأخذت الآلةُ الصمّاءُ ، وقد سيطرت ، تفتِكُ على غيرِ هدى وبغيرِ ضابطٍ من دينٍ أو خُلُقٍ أو عُرفٍ ، وبَقِيَ تراثُ البشر المعنويُّ لا حَرَاكَ له ، فشكَّ الناسُ في قيمته ، وهم اليوم ينظرون إليه شِيعًا بعضُها يعطِف عطفَ الأحياء على الموتى ، وبعضها يَشمَتُ شماتةَ الغالِب بالمغلوب ، وبعضُها يُخلِصُ له ولكنه في الاشتغال بحالِهِ يتخلّفُ عن موكبِ الحضارة السائرِ في عزّةِ المنتصرِ وزَهْوِه .

نعم تستحيل إلى نقم

والواقع أننا من غيرِ تدبّر اندفعنا في سبيلٍ قد حوّل النعم التي نتمتعُ بها إلى وسائلِ هلاكٍ لنا ولحضارتنا ؛ فبدَلَ أن نُنَاصِرَ القُوى المعنوية ونعطيَها من مجهودنا وهمتنا ما نعطي القوى الماديةَ أخذنا نزيّفُ أراءً ونخترعُ لها نظرياتٍ ونصدقُها ، ولا نلبثُ أن نرتدَّ عنها . وها نحن أولاءِ بهذه الآراء الخطيرة نسيرُ للهلاك .

جرائم ترتكب باسم الحريات

فباسم حريةِ المرأة ندمّرُ هدوءَ المنزل وحياةَ الأسرة ، وباسم حريةِ الوطنِ نمزّقُ الأوطانَ ، وباسم حريةِ العملِ وحريةِ رأسِ المالِ سنمحُو

رأسَ المالِ ونستعبدُ الطبقاتِ ، وباسم مقاومةِ هذه الحريات سنفقدُ حريةَ الفردِ وحريةَ الجماعةِ وحريةَ الرأي . ولم يكن أهلُ الرأيِ والعقلِ والعلماءُ والفلاسفةُ أقلَّ أثرًا في المجتمع البشري منهم في عصرِ سيطرةِ الآلة الذي نعيشُ فيه .

لا بد من ضوابط أدبية قبل الكارثة الكبرى

هذا ولا تزالُ هزيمةُ الأديانِ والعرفِ والأدبِ القائمِ على تجاربِ آلافِ السنينَ لم تبلغ نهايتَها ، فإذا بلغتها ولم يحلَّ محلَّها شيءُ آخرُ يسنِدُ الحياةَ المعنويةَ والقوةَ الأدبيةَ فأيُّ ضابطٍ يبقى لهذه الآلةِ الجامحةِ والقوى المتفجرةِ التي أطلقها الإنسانُ من عقالِ الطبيعةِ وعجزَ عن أن يوجهَهَا للخيرِ وحده ؟ ! فلا بد للعقلاءِ من صَيْحةٍ أرجو ألا تضيع في ضوضاء الآلة . لا بد للعقلاء من الصبر والكفاحِ في سبيل الحياةِ الرُّوحية ، في سبيلِ أن تسايرَ القيمُ المعنويةُ القيمَ الماديّةَ ، وأن تَزْدَوِج الحياتان لا أن تتنازعا وتتفارقا .

توفيق الإسلام بين الحياتين

ولقد كان الإسلام أبعدَ نظرا حين دعا إلى هذا التزاوج فيما يؤثر من ميراثه ، بقوله : « اعْملْ لدنياك كأنك تعيشُ أبدا ، واعْمَل لآخرتك كأنك تموتُ غدا » . والدنيا مطيّة الآخرة .

فلتكن الحَياةُ الماديةُ الفانيةُ التي تَغيرَ وجهُها في قرنٍ واحدٍ كلَّ هذا التغيرِ ، مطيةً للحياةِ الخالدةِ الباقيةِ حياةِ الفضيلةِ حياةِ الرحمة .

قد يقول بعضُ الناس : إنك تكادُ تُنْكِرُ الرقيّ الأدبيَّ والمعنويَّ الذي صاحبَ هذا التطورَ المادىَّ الفجائيَّ وتنكرُ نعمَ المدنية الجديدة .

وإني لا أنكرُ شيئا من فضلِها ، ولكني أنعيَ هزيمةَ القُوى المعنويةِ وهزيمةَ العقلِ أمام الآلةِ الصماءِ المتحركةِ التي تحملُنا في جوفِها وتَشملُنا بين أجزائِها . وقيمُ الأشياء بآثارها والأعمالِ بنتائجها .

مدنيتنا تتحطم مرتين في ربع قرن

ونحن الذين شاهدنا ويلاتِ الحروب العالميةِ مرتين في ربع قرنٍ أحقُّ الناسِ بالتساؤلِ عن القيمة الحقيقيةِ للمدنيةِ التي هذه بعضُ آثارها . ولنا كل الحق في أن نقفَ لنتدبرَ ونَرْجعَ البصر كَرَّتَيْنِ إلى القُوَى المعنويةِ للأديانِ ، لعَلَّنا نَستمدُّ منها تسلُّحَ الوجدانِ البشرِي ضدَّ طغيانِ الآلة الصماء . لنرجعَ إلى تلك القوةِ المعنوية التي كانت توجهُنا إلى الخيرِ العام بقوله تعالى «كنتم خيرَ أمةٍ أُخْرِجَتْ للناس تأمرونَ بالمعروفِ وتَنْهَوْنَ عن المنكرِ » فجعلت هدَفَ الحياةِ هو فعلُ الخير ومقاومة الشر .

أتعمير للتخريب ؟

أما أن يكون غَرضُ الحياةِ الحصولَ على الموادِ الخامة ، ثم تقديمها للالةِ الصماء ، ثم النزاع على الأسواقِ لتوزيع منتجاتِ الآلةِ ، ثم القتالُ على المادةِ كي تستمرَّ في حركتِها ، ثم نطلب المزيدَ فننتزعُ لمنتجاتها الأوطانَ أسواقا ، ونفتحُ الأرضَ لمخزونِ الرِّكاز فيها ، ويتقاتلُ عبيدُ الآلةِ من أجل السبقِ إلى حاجاتِها ، ثم ينتهي بنا الأمرُ إلى حروبٍ عالميةٍ تُسَلَّطُ فيها قوى الآلةِ كلها لتدميرِ نفسها وتدميرِ الحضارةِ البشرية – فأمرٌ لا يمكنُ أن يدومَ ، وهو عندي من نتائج خذلان القوى المعنوية أو جمودِها ومناصرة القوى المادية .

فلنرجع إلى منابع الهدى والرحمة في الأديان

نعم لنرجعْ إلى الأديانِ نستمدُّ منها الهدَى ، ولْنُوَفِّقْ بين هذه الأديانِ لنستمدَّ من وفاقها القوة ، لتتوازنَ الحياةُ المعنويةُ والحياةُ المادّية ، ولكي تُوَجِّهَ الأولى الأخرى في سبيلِ الخيرِ العام ، وقد دعانا الله إلى ذلك بقوله :

« شَرَع لكم من الدِّين ما وَصَّى به نُوحًا والذي أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيمَ وموسى وعيسى أن أقيموا الدِّين ولا تتفرقوا فيه » .

ولِتتصورُوا مقدار الخطرِ من فقدانِ هذا التوازنِ ومقدارَ الحاجةِ إلى العقلِ والروحِ في أحسنِ عصورِ الحضارةِ المادية ، تصوروا أنكم دُعِيتم لمشاهدةِ معركةٍ للقطَطِ في جبل المقطم ، وقد اصطفت القِطَطُ صفّين ، ثم هجمت تتقاتل ؛ ألا تضحكون عندئذٍ من القِطط ؟ ألا تهزءون بعقولها ؟ . ألا تسخرون من سخفها ؟ بل ألا تنقلبون من السُّخْرِ إلى الرثاء لها ثم البكاء لما أصابها ... ؟ !

تصوير للحرب تسخر منه العقول

فإذا قيل لكم إن قططَ أحدَ القارّاتِ قد تعلمت علمًا يمكِّنها من الحركةِ في السماء وتحتَ الماء والمخابرةِ والتفاهمِ مع قطط باقي الأرضِ بالأثيرِ ، وأنَّها استخدمت علمَها وكتبها وعقلَها وأدبها ، فجمعت قططَ العالمِ لمعركة عَامَّة بينها واتخذت ميدانا للمعركة أوسعَ من جبل المقطم : سهولَ أوروبا والصينِ وجزرَ آسيا وجبالَ إفريقية وصحراءها ، وكلَّ مكان تعيش فيه طائفة من القِطط ، وأنها حشدت كلَّ شيءٍ لدوامِ معركة لا نهايةَ لها ، ثم علمتم أن القططَ نجحت في خططِها ، ودعيتُم بصفتكم

الإنسانيةِ أو بصفتكم ملائكةَ هذه الأرض لتشهدُوا حيوانيةَ القِطط المتمدّنة المسيطرة على الكهرباء والكيمياء ، أكنتم تسخرون من عقول القِطط ؟ أم تُعْجبون بمدنيتِها وعلمِها ؟ أم كنتم تبكُون لما أصاب القططَ من الضلالِ ؟ أظنُّ أن الملائكةَ في السماءِ ورسل الله منا ، الذين جاءوا بالهدى هم كذلك في السماءِ يبكون لما يصيبُ الناسَ في هذا العصرِ وما أصاب القوى المعنويةَ من الهزيمةِ أمام الآلةِ الصماء .

أجهالات في مكـــان الكمالات ؟

إن انهزامَ القوى المعنويةِ بسيطرةِ المادةِ هو انهزامُ العقلِ والمروءةِ والوفاءِ والفروسيةِ والتقوى والرحمةِ والقناعةِ . وإذا انهزم أولئك جميعا حلّ الجهلُ والغدر والخيانة والأَثَرةُ والرياء والفَتْك محلَّها واضطربَ لذلك النظامُ العالميّ .

أفلح من زكّاها

والدعوةُ المحمديةُ حين عُنِيت بالروحِ وتزكيتِها ، وحين وازنت بين مطالِبِ الدنيا ومطالبِ الآخرة ، وأقامت الشريعةَ على ميزانٍ من العدل تزنُ بين حاجاتِ الروحِ وحاجاتِ البدنِ ، قاومت الطغيانَ الماديَّ فمنعت سببًا من أسباب الاضطرابِ العالميّ ، « ونَفْسٍ وما سوَّاها . فأَلْهَمها فُجُورَها وتقواها . قد أفلح من زكَّاها . وقد خاب من دَسّاها » .

* * *

ثالوث الفساد

الغدر والكذب والنفاق في حياة الأفراد والأمم – فلسفة سياسية خطرة – آية قرآنية يفخر بها المسلمون – تشبيه بليغ – نصوص وحوادث – الغدر غير الخدعة في الحرب – قبح الغدر حتى بين الأشقياء – الله لا يهدي كيد الخائنين – الكذب والنفاق في السياسة – المكيافللية ينكرها الإسلام – سياسة الوضوح – صفتان أدنأ من الكفر – أسماء على غير مسمياتها.

قلنا إن هناك أسبابًا أخرى للاضطراب العالمي قد تكون أقلَّ شأنا، ولكنها عناصرُ هامّة كذلك في عدم الاستقرار إلى سلم دائم وعلاقة حسنة بين الشعوب والأقوام.

آثار الثالوث في حياة الأفراد والأمم

والآن نتخيّر من الأسباب الكثيرة الخُلُقية أسوأها أثرا في المجتمع البشريّ، وهي الغدر والكذب والنفاق. وهذه الصفات الثلاث، على سوئها وضررها في حياة الأفراد، أبعدُ أثرًا وأعظم ضررا في علاقات الأمم. ولذلك عُنِيت الدعوة المحمدية عناية كبيرة بمقاومتها في أخلاق الأفراد وصِلات الشعوب. وقد فَشَت مع الأسف الشديد هذه الصفات المذمومة بنسبة عكسية مع ضعفِ الحياة الروحية وسيطرة المادّة، وأصبح الناس لا يستحْيُون من الغدر استحياء آبائهم، لِما كان يصحَب الغدرَ من ضياع الشرف والهيبة. بل صار كثير منهم ينظر للغادر نظرتَه إلى الكيّس المبدِع في حسن التصرف، ويقيس فضله بنجاحه

غير عابئٍ بالوسيلة وإن كانت أخسَّ الوسائل. وإذا ضعف احترام الفضيلة وتقديرها لذاتها فشَا الغدرُ في صلات الشعوب واضطربت العلاقات الدولية أَيَّمَا اضطراب.

فلسفة سياسية خطِرة!

والمتعقب للسياسة الدولية في مدى نصف القرن الأخير يستطيع أن يشير إلى عشرات المواقف الغادرة، وقلّ أن يجد حلْقة نقية في سلسلة الغدر الخبيث. فالمفاجأة والنَّكْث بالعهود كادا أن يكونا القاعدة بعد أن كانا، حتى في الجاهلية وبعد أن انتشرت مع انتشار الإسلام والعرب آداب الفروسية في القرون الوسطى، من الصفات التي تَحُطّ من قدر الأفراد والشعوب وتعرِّضها للزِّراية العامة.

ولم يَزَل الكتابُ الكريم يُسَفِّه الغادرين ويَحُضُّ على الوفاءِ حتى جعل حق الميثاق فوق حق الدِّين كما أشرنا إلى ذلك في موضع سابق. وهذه الآية الجليلة «وإنْ استنصرُوكم في الدِّين فعليكم النصرُ إلا على قومٍ بينكم وبينهم ميثاق» تبقى أبد الدهر فخرَ المسلمين في حرمة العهود وحرمات الوفاء!

آية قرآنية يفخر بها المسلمون

وزِراية القرآن على الغادرين في قوله تعالى «وأَوفُوا بعَهْدِ اللهِ إذا عاهدتم. ولا تَنْقُضُوا الأَيْمانَ بعد تَوْكيدِها وقد جعلتُم اللهَ عليكم كفيلا إن اللهَ يعلمُ ما تفعلون، ولا تكونُوا كالّتي نَقَضَتْ غَزْلَها من بعدِ قُوةٍ أَنْكَاثًا تتخذون أيْمانكم دَخَلًا بينكم أنْ تكونَ أمّة هي أربى من أمة، إنما يبلُوكم اللهُ به» وتشبيهُه الغادرَ بالمرأة السفيهة تَنْقُض غزْلها

تشبيه بليغ!

بعد أن أبرمته ، مَثَلٌ بليغ للذين يعبثُون بعهودهم ، يَهْوِي بهم إلى دَرْكِ السفاهة ، تلك السفاهة التي يترتب عليها في الحقيقة اضطراب العالم كلِّه إذا حلَّ الغدر محل الوفاء .

نصوص وحوادث

روى أبو سعيد الخُدْري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أَلَا إنه يُنْصَبُ لكل غادرٍ لواءٌ يومَ القيامة بقدْر غَدْرَتِه ، ولا غَدْرَةَ أَعظمُ من غَدْرَة إمامٍ عامّةً » .

وقد ضرب رسول الله المثل الأعلى للوفاء طولَ حياته ، في صِلاته بالأفراد والجماعات ، وبلغ من وفائه أنه سمع لنشيد حسان في مدح أحد قتلى بدر من أعداء النبي نفسه .

كان مُطْعِم بن عَدَيٍّ من أشراف قريشٍ المشركين ، وكان رسول الله حين رجع من « الطائِف » بعد أن لَقِيَ من « ثَقِيفٍ » مُنكر القول والفعل ، قد طلب جِوار بعض رؤساء مكة ليدخلها آمِنًا على حياته ، فأبوْا وقَبِلَ مطعمٌ أن يدخلها في حمايته . فلما كانت واقعة بدر بعد ذلك ودارت الدائرة على قريش وقتل نفر من صناديدها ، كان بين القتلى مطعم بن عدي . وفيه يقول حسان بن ثابت شاعر الرسول :

أيا عينُ فابْكِي سيد القوم واسفَحي ... بدمعٍ وإن أنْزَفْتِه فاسكُبِي الدَّمَا !

وَبكّي عظيمَ المَشْعَرَيْـن كِلَيْهـما ... على الناس معروفٌ لـه ما تكتّما

فلو كان مجدٌ يُخْلِدُ الدهرَ واحدًا ... من الناس أبقى مجـدُه اليومَ مُطعِمَا

أجرتَ رسولَ الله منهم فأصبحوا ... عبيدَك ما لبّى مُهِلٌّ وأحْـرَمَا

فلو سُئِلتْ عنه مَعَــدٌّ بأسْرِها وقَحْطانُ أو باقي بقيةِ جُــرْهُما
لقالوا هو المُوفِي بخِيرة جارِه وذمّتِــه يوما إذا مــا تذمَّمـا
فما تطلُعُ الشمسُ المنيرةُ فوقهــم على مثلِه فيهم أعزّ وأعظما !

مات مطعم مشركًا مقاتلًا الرسول ، ولكن الوفاء في هذا المَثَل يرثى فيه حسان عدوا مشركا ، والرسولُ يسمع ولا يُنكر ، يدل على أنه صلى الله عليه وسلم أنزل الوفاء في مكان من القداسة لا يُنْزِلُه عنه خلاف في الدِّين ولا قتالٌ وعدَاء . فالرسول حين يسمع إلى شاعره يبكي المروءة في عدو هو أحد صرْعَىَ القتال من المشركين المعتدين يَسُنُّ لنا في الرجولة والمروءة والوفاء مثلا قد علا فوق كل شيء ، ويحُطّ من صفة الغدر إلى الدرْك الذي لم يصل إليه أحدٌ قد بقي له من الإيمان والخُلُق شيء .

وقد روت عائشة أن عجوزا جاءت إلى النبي فقال لها : من أنتِ ؟ فقالت : جَثَّامة المُزَنِيَّة . فقال : أنت حُسَّانة ! كيف أنتم؟ كيف حالُكم ؟ كيف كنتم بعدَنا ؟ قالت بخير . بأبي أنت وأمّي ! فلما خرجت قلت : يا رسول الله : تُقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ! قال : « إنها كانت تأتينا زمنَ خديجة ، وإن حُسْنَ العهد من الإيمان » .

فلو أن العالم دان بما تريده الدعوة المحمدية ، واعتبر حسن العهد من الإيمان لوفّر على نفسه ويْلات كثيرة .

* * *

الغدر غير الخدعة في الحرب

قد يبدو الغدر أول وَهْلة وسيلةً من وسائل الظفَر. وطالما تحدث الناس بأن الحرب خُدْعة، وشتّان بين الخيانة والنكْث بالعهد أو المفاجأة والأخذ على غِرّة وبين الخدعة في القتال. فالخدعة حيلة يعرف الخَصم أنه معرَّض لها وليس له وعد باجتنابها، وهي دائمًا في حدود الحرب المرعيّة، وقد تحدثنا عنها من قبل. فإذا ألقيْتَ في رُوعِ العدوّ أنك ستأتيه بكامل قوتك من ناحية ولم تبعث إليها إلا الأقل، وحولت الكثرة لناحية أخرى، فليس هذا غدرًا وإنما هو خدعةٌ لا تتنافى مع الأخلاق، ما دام البشر يعتبرون الحرب لا تتنافى مع المروءة وحسن الخلق.

قبح الغدر حتى بين الأشقياء

حكي لي أحد أشقياء البدو عن شيخ كبير من البدو أنه غدر به بعد أن وعد ألا يدلّ عليه، والغدر مَنْقَصة حتى بين الأشقياء، فسألت عما يقول الشيخ في ذلك، فقيل: إنه قال: «الخُونَة عُونَة» أي أن الخيانة مما يستعان به. وقد أنكر الناس ذلك على الشيخ البدوي أشد الإنكار.

وها نحن أولاء مع الأسف نشهد مبدأ «الخونة عونة» الذي يقول به شيخ من قُساة البدو، والذي ينكر الناس اتخاذه مع شقيٍّ من الأشقياء في حادث سلب أو نهب، يفشو في علاقات الأمم الكبيرة فتغدِرُ وتفاجئ لتفتِكَ في غفلة، متجاهلةً حرمة العهود وحُرُمات المروءة. فكما أن مبدأ «الخونة عونة» جعل الحياة قديما بين بعض القبائل في اضطراب مستمر فسلبها الأمن، فهو بين الأمم المتحضرة

يمد هذا الاضطراب بالوقود .

الله لا يهدي كيد الخائنين

ولا أظن أن اتخاذ الغدر وسيلةً من وسائل الظفر أدى للغادرين خدمة جليلة في زمن من الأزمان ؛ فهو قد يُكْسِبهم المعركة الأولى ، ثم يرتد عليهم ، ولا بد أن يتحقق في الغادرين قوله تعالى « إن الله لا يَهْدِي كَيْدَ الخائِنين » .

واتخاذ الخيانة وسيلة للظفر في علاقات الشعوب يؤدي قطعًا إلى التربص وسوء الظن ، فيفقد الناس نعمة الأمن في السلم والحرب . وها هو ذا الجيل الحاضر يكتوي بويْلات الحرب ليخرج منها إلى الخوف والاستعداد لحروب أخرى. ذلك هو الجزاء السماوي. ولذلك يحرص الإسلام على الوفاء حتى مع الغادرين ، فوفاء بغدر خيرٌ من غدر بغدر .

الكذب والنفاق في السياسة

أما الكذب والنفاق فلا نقول إن الناس أكثر تَحَرِّيًا للإخلاص والصراحة مما كانوا ، ولا إن الكذب من الأخلاق التي ظهرت في العهد الآليّ بأسوأ مظاهره ، ولكنا لا نستطيع كذلك أن نقول إن الصدق أكثر حرمة منه فيما مضى ، وإنما الذي نعنيه في هذا العصر هو الكذب في السياسة. ونستطيع أن ندَّعِيَ أن الكذب والرياء من عناصر الاضطراب في العلاقات الدولية أكثر مما كانا في الماضي.

المكيفللية ينكرها الإسلام

فِكْيَفلّي في كتاب « الأمير » مثلًا يجهر بنظريات لا ترتضيها قواعد الأخلاق والمروءة ، والناس الآن يطبقون آراء « مكيفللي » وليس لهم صدقهُ في إعلان رأيه. وعندي أن كتاب « الأمر » نفسه دليل على

أن الناس في العصور الوسطى كانوا أقرب إلى الصدق، منهم في العصر الذي يستنكرون فيه المكيفللية ويعملون بها.

سياسة الوضوح

وهذا الكذب والنفاق في السياسة الذي يظنه بعض الناس مبرِّرًا ويَفْتَنُّون في تزويقه وتنميقه ويَعُدُّونه لازمًا للدبلوماسية، يبغضه الإسلام وينفر منه. وتاريخ الفتوحات الإسلامية مثلٌ باقٍ من الصدق والجهر بالحق للعدو والصديق، وسِيَرُ الخلفاء الذين يمثلون الدعوة المحمدية، والذين لم يقعوا في أساليب الفرس وأساليب بيزنطة، تفيض ببساطة الصدق ووضوح الحق؛ فإذا قالوا أو كتبوا أو عاهدوا هم أو سفراؤهم أو وُلاتُهم، وجدت قولًا واضحًا يتحرى أن يكون بعيدًا عن التأويل جليًا لا ينمّقْ ولا يمارِي. يقول رسول الله «أنا زعيم ببيت في رَبَض الجنة لمن ترك المِراءَ وإن كان مُحِقًّا، وببيتٍ في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حَسُن خُلُقه».

ولقد أراد الإسلام في جميع العلاقات بين الناس فردية أو دولية ذلك الوضوح، فتجده مطلوبًا في كل شيء. وعدمُ الوضوح في العقود وتعريضُها للتأويل والمشاحَنة كان سببًا في تحريم كثير منها.

صفتان أدنأ من الكفر

ويكاد القارئ لكتاب الله وأحاديث رسوله يحكم بأن الكذب والنفاق أحط من الكفر، فقد لعن الكاذبين وجعل المنافقين في الدرْك الأسفل من النار. ولأول وَهْلةٍ قد لا يدرك الإنسان حكمة هذه الشدة. فإذا نظر في أثر النفاق من الناحية العامّة، وتجاوز برهةً أثرَه على المنافق

نفسه ، وجد أنه عنصر جوهري في فساد النظام العالَمِيّ.

وليظهر ذلك أرجو أن تفكروا فيما نحن فيه من اضطراب عالميّ ؛ أليس النفاق من أهم أسبابه؟ ولو كان القائمون على «جمعية الأمم» مثلًا – وقد اشترك فيها أو في تأسيسها كل الذين اقتتلوا في الحرب العالمية الأولى – قد بَنَوْا مؤسستهم على الصدق وعلى الإخلاص أكانت تنهار كما انهارت؟ أكان انهيارها يجر إلى هذا الفساد الكبير الذي وقع في الحرب العالمية الأخيرة؟ ولو أن الدعوة التي يدعيها الناس من حب الخير العام ، ولو أن الحرمة التي للحقوق البشرية كانت حقيقية في نفوسهم وكانوا صادقين غير مرائين ، أكان الناس يختلفون على معنى هذه الحقوق وعلى معنى الخير العام كما يختلفون اليوم؟ .

* * *

أسماء على غير مسمياتها

إن النفاق قد ألْبَسَ الأمرَ على الناس ، فإذا قيلت هذه الكلمات المحبوبة : الحرية . المساواة . العدل بين الناس . حق الجميع في عيش سعيد وسلم دائم ، إذا قيلت ، ظنوا أن المقصود غيرُ ما قيل ، والتبس الحق بالباطل.

وأثر النفاق ، وإن قل شأنه في علاقة فرد بفرد ، يتضاعف أضعافًا كثيرة إلى أن يصير شرًا مستطيرًا إذا اتخذته الدول وسيلة من وسائل الظفَر في سياسة شعوبها ، أو في علاقاتها بدول أخرى .

والسياسة التي تستند على الغدر والكذب والنفاق تحرّمها الشريعةُ

المحمدية وتأباها الأديان السماوية كلها ، لأنها تغذّي الاضطراب العالميّ وتعين على تقويض العمران.

* * *

٥

في البحث عن سند روحي للحضارة

الوصاية على الحضارة
للأقوى أم للأتقى

الشعلة المتنقلة بين الأجناس – قصور «علم الإنسان» – أدوار الحضارة ومن مثلوها – من «علم الإنسان» – الفروق البدنية لا تكيف الحضارة – المدنية ليست اختصاصًا لقوم وحدهم – هي أثر للحالات النفسية – قانون قرآني – مساواة تامة بين الأرواح – وحدة التكليف الديني ومغزاها – دعوى هي أصل الاستبداد والتفاوت – ميراث النفس الطيبة .

نريد أن نتناول من بعض النواحي مبدأين متعارضين : الأول سند الحضارة المادية ، والثاني سند الحضارة الإسلامية . ولعل في هذا البحث ما يكشف عن العوامل الخفِيّة لسقوط الحضارة ، وما يفسر بعض أسباب الاضطراب العالمي أثناء هذا القرن .

فما هو الحق ... هل هو للأقوى أم للأتقى ؟

الشعلة المتنقلة بين الأجناس

إذا استعرضنا تاريخ الأقوام منذ بضعة آلاف من السنين ، تجد أن الحضارة لم تَثْبت في مكان واحد ، ولا دامت لقوم وحدهم ، فهي كسلعة الذهب ، تمر بأيدي الناس جميعا ، وقد ترجع إلى اليد التي ذهبت منها بعد أن تطوف الكرة الأرضية .

فالمدنيّة متاع مُشَاعٌ يَكسِبه من قَدَر على الاحتفاظ به عهدا ، ثم لا يطيق حمله فيتخلى عنه فيقع على كتف الأصلح لحمله ، حتى

إذا خارت قواه تخلى للأصلح وهكذا . فالتاريخ يشهد بوضوح على هذا التداول ، ويأبى أن يشهد لقوم دون قوم أو جنس دون جنس بالصلاح الذاتيِّ أو الاختصاص بالقدرة على حمل رسالة الحضارة لمِيزَة طبيعية موروثة وملازِمة للعنصر .

قصور «علم الإنسان»

وكذلك إذا استعرضنا « علم الإنسان » « أنثروبولوجي » ونظرنا في الأجناس البشرية نجد هذا العلم على حداثته وغموض بعض نواحيه ، يُرشِدنا إلى الفروق أو الميزات البدنية بين قوم وقوم ، ولو أنه لا يساعدنا على إدراك الفروق الرُّوحية والذهنية . وقد نَخرج من محيط العلم الصادق إلى النظر والفروض كلما حاولنا تثبيت قواعِده على أساس الفُروق النفسية والرُّوحية بين قوم وقوم ، لنستخلص منها مؤهلات هذا العنصر دون ذاك لرسالة الحضارة والمدنية .

نعم إن بعض الأبحاث « الأنثروبولوجية » الحديثة قد تعِين على قياس صفة الذكاء بين طائفة وطائفة من البشر ، ولكنها لا تُعِين على تحديدٍ للصفات المعنوية الكثيرة ، والغرائز المتعددة ، ومظاهر هذه الغرائز ؛ وبذلك لا تَهْدِي إلا إلى أقّلِ العناصر النفسية شأنا في تكييف قيمة عنصرٍ وآخرَ لحمل رسالة الحضارة التي تتطلب مجموعة من المعاني والقوى النفسية وتوازن هذه المجموعة .

فإذا كان « علم الإنسان » هيّأ لنا قدرا من العلم نعرف به صفاتٍ نَرُدُّ بها الناس إلى بعض أصولها القديمة ، فإن هذا العلم لا يزال فيما

عدا ذلك يتخبط بنا في المجاهيل . وإذًا فليس لدينا دليلٌ علميٌّ يجعل أحد العناصر يمتاز بطبيعته وقوته على العناصر الأخرى لحمل رسالة العُمران والحضارة والعلم .

* * *

ولننظر أولا في الفروق العنصرية بين الأقوام التي قامت على أكتافها المدنيات المختلفة منذ أن شاد الفراعنة هذه الأهرام شاهدًا على الشَّأْو البعيد الذي بلغوه في المدنيّة وسبقوا به الناس كافّة .

أدوار الحضارة ومن مثلوها

قامت مصر بالدور الأول ، بل الدور الأهم في تاريخ الحضارة البشرية ؛ فهي التي علّمت الناس الزِّراعة والبناء والكتابة .

ثم جاء السوماريون والبابليون والفينيقيون والأشوريون والكلدان والفرس واليونان والقرطاجنيون والرومان والعرب ، ثم الأقوام الأوربية والأمريكية الحديثة ، يضيفون إلى الحضارة ويجددون . فإذا فرضنا أن أول الحضارة في مصر وآخرها الآن في أمريكا – إذ ليس عندنا دليل على البداية أو علمٌ بالنهاية – وتجاوزنا مؤقتا عن نصيب الأقوام الصَّفراء وأثرها في حضارة هذا الشِّقِّ من الكرة الأرضية ، أمكننا حصرُ الحضارة التي تشير إليها في العناصر النازلة في غرب آسيا وشمال إفريقية وفي أوروبا وأمريكا . وقد اتفق علماء الأجناس « الأنثروبولوجي » على أن هؤلاء البِيض ثلاثةُ عناصرَ أصليةٍ ، بينهم اختلاف بدَنيٌّ واضح ومحدد ، ومنازل العناصر الثلاثة تمتد متوازية من الغرب إلى الشرق .

من « علم الإنسان »

ففي الساحة الشمالية نجد الشماليين « النورديك » وجنوبا منهم « الألبيين » وجنوبا من هؤلاء « المتوسطيّين » ، أو قوم البحر الأبيض المتوسط ، وهم سكان ما حول هذه البحيرة .

الفروق البدنية لا تكيف الحضارة

فللشماليين الأجسامُ الطويلة ، والعيون الزُّرْق ، والرؤوس المستطيلة ، وللألبيين الرأس المستدير ، وللمتوسطين الرأس المستطيل ، والأجسام الأقصر من أجسام الشماليين ، وسوادُ العيون والشعَرِ . ولا حاجة بنا للخوض في الفروق البدنية التي حدد بها علماء الأجناس هذه العناصرَ ، واستدلوا على وجودها قديما وأثرها حديثا ، فإنها لا تُغْنِينا كثيرا في تكييف الحضارات القديمة ؛ إذ ليس بين أيدينا أدلةٌ قاطعة على حقيقة الأقوام الذين حملوا رسالة المدنية قبل العرب أو حتى من العرب ، ولأن البحث العلمي نفسه الذي دلّنا على ميزات بدنية بين العناصر الثلاثة التي يتكون منها الجنس الأبيض الكبير ، دلنا كذلك على أنه لا وجود لأحد منها في وطن معيّن خالصٍ له ؛ ففي بريطانيا نفسِها ، تلك الجزيرة الشمالية ، توجد العناصر الثلاثة ، وليست حتى بنسبة بُعْدها عن هذه الجزيرة . بل إن « المتوسطيّين » فيها أكثر نسبة من « الألبيين » . وكل ما نستطيع تحقيقَه علميا هو أن نثبت رُجْحان صفة بدنية في أمة من الأمم من صفات هذه العناصر ، على صفاتها الأخرى .

وحتى إن استطعنا تقرير ذلك علميا من الناحية الجسمانية كما

قلت ، فإننا لا نزال بعيدين جدا من قياس العوامل والآثار النفسية في شعب من الشعوب ، وإدراكِ هذه الآثار باعتبارها نتائجَ لتفاعُلِ الدماء الموروثة من الأقوام المختلفة .

وإذًا يَصحّ لنا أن نتساءل : لِمَنْ هذه الحضارة ؟ وهل يجوز نسبتها لجنس دون جنس ؟

ثم ألم تكن الشعوب القديمة نفسُها ، وأقدمُها الفِرْعونية المصرية منذ آلاف السنين ، كما هي اليوم ، خليطا من الأجناس تغلب عليه جنسية البحر المتوسط ؟ وما هي البضعة الآلاف من السنين التي نعرف شيئا قليلا عنها منسوبةً إلى عشرات الآلاف في التاريخ البشريّ الذي لا نعرف شيئا عنه ؟ وسواء قامت بعض الحضارات القديمة على أكتاف أحد العناصر الثلاثة التي أشرنا إليها والتي حددها علماء الأجناس في الناحية الغربيّة من الارض ، أم على أقوامٍ متوالدة من اختلاطها ، فإن أمرًا واحدًا لا شك فيه ، هو أن المدنية ليست امتيازًا ولا اختصاصا لعنصر منها ، ولا هي لازمةٌ له وتابعة لصفاته الخاصَّة ؛ فليست نتيجةً للقوة الطبيعية الموروثة له ، وليس سَنَدُها هو حق الأقوى بحال من الأحوال .

المدنية ليست اختصاصًا لقوم وحدهم

والحضارة إذًا بجميع نِتاجها الماديّ والأدبيّ أثرٌ لحالات نفسية غيرِ لازمة للصفات البدنية المميِّزة لقوم على قوم . ولو أننا ذهبنا بعيدًا وحاولنا الاستدلال بالمعلوم على المجهول ، وقلنا إن الصفات البدنية

هي أثر للحالات النفسية

تشير إلى خصائصَ نفسية لا نزال بعيدين عن علمها ، فإن ذلك لا يغيّر من الحق ، وهو أن العناصر التي نَعرِفها ، لم تختصّ على طول التاريخ البشريّ بالعقل أو العلم أو الابتكار ، حتى نَنْسُبَ شيئًا من هذا إلى صفتها العنصرية . ومن الواضح أن النفس وحدَها هي التي تضيء فتُنير ظلماتِ الحياة البشرية متى أثرت فيها مؤثِّرات خاصَّة ، وتهيأت لها بِيئَةٌ روحية خاصّة . فسندُ الحضارة هو الرُّوح والخُلُق لا القوة المادية .

قانون قرآنيّ

وما أصدق القانونَ القرآنيَّ في هذا المعنى في قوله تعالى « إن اللهَ لا يغيّر ما بقومٍ حتى يُغَيّروا ما بأنفسهم » .

ولو فرضنا أن الصفات النفسية تُورَث كما تُورَث الصفات البدنية فإنه مما لا شك فيه أن المؤثرات العارضة هي التي تكيِّف القوى الذهنية ، وأن العقيدة والآداب القويّة هي المنشئ والحارس للمدنيَّة .

إننا نجهل كُنْه الرُّوح وحقيقة النفس ، كما نجهل أسباب انفعالاتها ومَداها وآثارها ومصادرَها وعواقبها ، مما يمنع تقرير أصولٍ عِلمية نميِّز بها بين صفات الأقوام النفسية كما نميّز بين صفاتها البدنية .

وكل ما يمكن تقريرُه بالمشاهدة والاستقراء في الحال أو في الماضي ، يُشِير إلى استعدادٍ متشابه عند جميع الأقوام لتلقِّي العلم أو الأدب ، أو بعبارة أعمّ ، لتلقي الحضارة كيفما تلوّنت ومن أي جهة جاءت .

مساواة تامة بين الأرواح البشرية

وإذا تجاوزنا عن بعض فروق محدودة تُحدِثُها البيئة والمَناخ في بعض الحالات ، فإنَّا نستطيع أن نطمئن إلى القول بالمساواة التامّة

بين الأرواح البشرية ، أو بعبارة أخرى : إننا لا نعرف دليلا على عدم المساواة . وتداولُ العلم والابتكار ، بل وتداوُل الجهل والفساد ، دليلٌ على استعداد مشترك ومتساوٍ للخير والشر . وإذا كان كل ذلك من آثار العَيْش تحت عواملَ مختلفةٍ فإنه يُشِير إلى وحدة الرُّوح ، أو بعبارة أخرى ، وحدة القُوى الذِّهنية ، أو تَمامِ تشابهها .

وهذا يكفي لنَفْي امتياز بعض العناصر البشريَّة على بعضها بصفات ذهنية تجعل لأحدها رُجحانا دائمًا .

وحدة التكليف الديني ومغزاها

ويَحِقُّ لنا أن نقول : إنه ليس في الصفات البدنية ولا الصفات الرُّوحية ما يدلُّنا على خلافٍ يجعل المدنية حِكْرًا لطائفة من البشر ، أو يمنع من المساواة في التكليفات التي جاءت بها الشريعة المحمدية .

ومتى وَضَحَ ذلك انهارت الدعاوي العنصرية ، وانهار معها مبدأ القوة كسندٍ للحضارة ، لأنه لو ثبت أن الطبيعة هيَّأت قَوما دون آخرين للعرفان والعُمران ، لجاز أن يحمل هذا القومُ غيرَه على الاحتذاء به ، بل لكان في سيطرته وقَهْرِه غَيْرَه فائدةٌ عامّة .

وكما أن العلم لم يُثبِت لأحد رجحانا ، كذلك التجربة دلت على أن الأقوام إنما تَستَخْدِم ما أوتِيَت ، من قوة في الاستزادة من المنفعة لنفسها واستغلال المغلوبين لأسباب عارِضة ، وقد بيَّنا أن الغَلَب ليسَ ناشئًا عن صفات أصيلة طبيعيةٍ في عنصرٍ ما . وكذلك دلّ تاريخ البشر على أن الأمم المغلوبة لا تستفيد من غالِبها بل قد تندثر بسبب

هذا الغلَب .

دعوى هي أصل الاستبداد والتفاوت

فالقول بالحق للأقوى ، هو قول يرجّح بعض الأقوام على بعض دون سبب طبيعي ، ويُبيح الاستبداد للقادرين عليه ، ويمحو حق المستضعَفين . وهو قول تأباه الشريعة المحمدية كلَّ الإباء ؛ فهي التي جعلت الناس سَواسِيَة ، وجعلت الحقَّ للأتقى والأبرِّ ، وقررت أن الناس أسرة واحدة ، أكرمهم عند الله أتقاهم .

ميراث النفس الطيبة

وهي التي يقول رسولُها العربيُّ الأمين « لا فضل لعربيّ على عجميّ إلا بالتقوى والعافية » — أي حبّ الخير والسلام . فليس أكرم الناس أقواهم بدنًا وأضخمهم ميراثًا ، ولا أكثرهم عِرفانًا ، بل أطيبُهم نفسًا ، لأن النفس الطيِّبة هي التي تَملِكُها التَّقْوَى فتمنعُها من فعلِ الشر وتَحضُّها على فعل الخير ..

* * *

قيام المدنيّة ودوامها

مداولة الأيام بين الناس – التفسير المادي للتاريخ – التفسير العنصري للتاريخ – مناقشة التفسيرين – التفسير الروحي هو الصحيح – من القرآن – بارود القذيفة – ساعة الفصل بين التقدم والتأخر – نظرة تشاؤم إلى المدنية الحاضرة – بين المدنية والحق – الانهيار الفجائي – عوامل فناء المدنيات – الترف – الضعف عن حمل أمانات الحضارة – هل جاء وعد الله ؟

بيَّنا أن سندَ الحضارةِ الإسلاميةِ هو حقٌّ الأتقى والأبرِّ ، وقلنا إن الأرواحَ متساويةٌ ، وإن « علمَ الإنسان » لا يزالُ قاصرًا عن بيان حقيقةِ القوى الذهنيةِ وكيفيّةِ انفعالها بالمؤثرات ، وأثبتنا أن الفوارقَ العنصريةَ الظاهرةَ في أجسام البشر لم تُرشِدْ إلى امتيازٍ بينها في خَلْق الحضارة ، وهي قطعًا لا تجعلُ لقوم امتيازًا على قوم في الاختصاص بها .

مداولة الأيام بين الناس

والتاريخُ البشريُّ يشيرُ إلى الحضارة كأنها شعلة متنقلة ، ويَدلُّ على أن الأقوامَ التي أخرجت أعظم المدنياتِ ، ما لبِثت أن هوت من شاهِقِ مجدها إلى الحضيض .

فإذا تعقبنا الأممَ أمةً أمةً في مدى خمسةِ آلاف سنةٍ نجدُ أن هناك قاعدةً لا تتخلّفُ ، وهي أنَ الأمة ترتفعُ ثم تَهْوِي كما تَقذِف بالحجر

إلى أعلى فيصلُ إلى مَداه ثم يقفُ ثم يهبطُ عموديًّا إلى الأرضِ ، وكأن الأمةَ التي ارتفعت شيءٌ آخرُ غيرُ التي هوت وتحطمت . بل إن بعضَ الأمم التي لا يزالُ أثرُها يُدوِّي قد بقيت سلالتُها ذاهلةً عن عزّتِها ، كأَنْ ليس بينها وبين آبائِها صلةٌ ! فما الذي رفعها وما الذي خَسَفها ؟

التفسير المادي للتاريخ

لقد تعددت العللُ ؛ فالذين يفسّرون التاريخَ تفسيرًا اقتصاديا يعللون هذا التداولَ الذي عبّر عنه القرآنُ أوجزَ تعبير في قولِه تعالى « وتلك الأيامُ نُدَاوِلُها بين الناسِ » بعلل مادية ، ويفسرون الصعودَ والنزولَ بأسباب تنحصرُ في المادّةِ ، فإخصابُ الأرضِ لسببٍ طبيعيّ ، أو تحوُّلُ المطرِ أو زيادتهُ أو تغيّرُ الجو ، أو اكتشافُ طرقٍ جديدة يتبعُها تغيّرُ سبلِ النقلِ للتجارة ، أو اكتشافُ أرضٍ جديدة ، أو ابتكارُ آلة ، أو استخراجُ معدِنٍ أو استخدامُ وسيلةٍ ما ، أو غيرُ ذلك مما يُغْني ويَزيدُ في القوى المادية ، هو العنصرُ الذي يدفعُ بقوم إلى التحضر وحياة العُمْران ، كما أن فقدانَ الرجحان الاقتصادي يتبَعُه التدهورُ والانحطاطُ .

التفسير العنصري للتاريخ

ويرى آخرون أن سببَ ظهورِ أمة ما ، هو في ذات جنسِها وما يحصلُ من تزايدِ القوى الكمينةِ في ميراثها العنصريِّ ، وذلك بأن تمتزج مع قومٍ آخرين قريبين منها ، فيخرجُ من التوالدِ عنصرٌ أقوى يندفعُ إلى أعلى بما هو كمينٌ فيه من القوى الموروثة ، فيسمو ويُضِيفُ للتراث البشريّ علما ومدنيةً .

وهي أقوالٌ لا تكفي لتفسيرِ الواقع ولا تَحُلُّ اللغزَ ؛ فكثيرا ما قام بالحضارة قومٌ ، أو سقطوا واندثروا من غير أن تكونَ العواملُ الاقتصاديةُ سببًا في الظهورِ والاختفاء . بل إن قدماءَ المصريين وهم رأسُ الحضارة البشريةِ ، وقدماءَ البابليين ، هم الذين زرعوا الصحراء ولم تكن الصحراءُ هي التي زرعتهم .

وخروجُ العربِ من شبهِ الجزيرةِ وانتشارُهم ، ووصلُهم بين حضاراتِ الأقدمينِ والحضارةِ الحديثة ، وابتكارُهم وافتنانهم في العلوم والصنائع ، لم يكن لأسبابٍ اقتصاديةٍ محليةٍ ، كما أن سقوطَ العربِ والرومانِ والمصريين والبابليين لم يكن لأن أرضَهم أجدبت ، ولا لأن جوَّهم تغير ، ولا لأن طرقًا جديدة أو أوطانا جديدة قد اكتشفت .

وكثيرا ما كان الحرمانُ الماديُّ سببا لظهورِ أقوامٍ وتغلّبهم على المادةِ وحصولِهم على ما يريدون بكفاحِهم ليُخرجوا للعالم حضاراتٍ ضخمةً . ومَثَلُ اليونانِ والعربِ والفينيقيين واضح ، وخيراتُ أمريكا وإفريقية الوسطى لم تَبعث قوما جُدُدا في آلافِ السنين ، وإنما بعث أمريكا المغامرون المحرومون .

كذلك لم يقم دليل علميٌّ على أن توالدَ قومٍ فيما بينهم وعدمَ اختلاطهم ، سببٌ في انحطاطِ هؤلاء القوم ، بل بالعكس .

نعم لقد قيل إن ظهورَ الحضارةِ القديمة المصرية كان عَقِبَ وُرُود قومٍ من أسلافِ العربِ امتزجوا مع أهلِ الوادي وصارُوا قدماء

المصريين الذين بَنَوْا الأَهرام ، ولكن ذلك ليس معناه أن انتعاشَ قومٍ من الأقوام كان لازما لمثل هذا الحادث .

فلا النظريةُ الاقتصاديّةُ ، ولا النظريةُ الأنثروبولوجية « نظرية علم الإنسان » كافيةٌ لتفسير أسبابِ ظهورِ المدنيةِ أو سقوطِها ؛ لأن كلا من النظريتين قد يفسرُ حالةً ، ولكنه لا يُطّردُ مع الحالاتِ الأخرى .

التفسير الروحي

وإذا دققنا النظرَ نجدُ أن الأسبابَ الرُّوحيةَ والمعنوية هي التي ساعدت دائما على الظهورِ أو الاختفاء ، ونجدُ العللَ الأدبية ملازمةً لجميع الحالاتِ في كلِّ الأقوام . والقرآنُ كما أشرنا في الفصل السابق يؤكدُ هذا المعنى في كثير من آياته فيقول « إن اللهَ لا يُغيِّرُ ما بقومٍ حتى يُغيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِم » ويقولُ : « كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ والذينَ من قبلِهم كفرُوا بآياتِ اللهِ فأخذهم اللهُ بذنوبِهم . إن اللهَ قويٌّ شديدُ العقابِ ذلك بأن اللهَ لم يكُ مُغيِّرًا نعمةً أَنْعَمَها على قومٍ حتى يُغيِّرُوا ما بأنفسِهم »

من القرآن

« ولو أنَّ أهلَ القُرى آمنُوا واتَقَوْا لَفَتَحْنَا عليهم بَركاتٍ من السماءِ والأرضِ ولكنْ كذَّبُوا فأخذنَاهم بما كانوا يكْسِبُون » « ولقد كتبْنا في الزَّبُور من بعدِ الذِّكْرِ أن الأرضَ يَرِثُها عِبَادِيَ الصالحون » « وعَد اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ لَيسْتَخْلِفَنَّهم في الأرض كما استخلفَ الذين من قبلِهِم ولَيُمكِّنَنَّ لهم دينَهم الذي ارْتَضَى لهم » « وضرب اللهُ مثلا قريةً كانت آمنةً مطمئنةً يَأتِيها رزقُها رَغَدًا من كلِّ مكانٍ

فكفرت بأنْعُمِ اللهِ فأذاقها الله لِباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعون » « وكم قَصَمْنَا من قريةٍ كانت ظالمةً وأنشأنا بعدَها قومًا آخرين فلما أحَسُّوا بأسَنا إذا هُمْ منها يَرْكُضُون. لا تَرْكُضُوا وارْجِعُوا إلى ما أُتْرِفْتُم فيه ومساكِنِكم لعلكم تُسْأَلُون. قالوا يا وَيْلَنا إنّا كُنَّا ظالمين. فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حَصِيدًا خامدين ».

فما من قوم خرجوا على الدنيا برسالةِ العرفانِ والعُمرانِ إلا كانوا مهيَّئين لهذا بإيمان قويٍّ ودعوةٍ قوية، وما من أمة تضاءلت عقائدُها وانحط أدبُها وتذبذبت إلا أصابها ما أصاب مَنْ قبلها فهوت كأن لم تكنْ شيئا مذكورًا.

بارود القذيفة

فالعقيدةُ الصالحةُ والأدبُ القويُّ والعرفُ الصالحُ كقوة البارد في دفع القذيفة، تدفعُ الأُمَمَ بقدرِ ما في عقائدِها من قوةٍ واستقامةٍ.

وإذا أسمينا العقائدَ والآدابَ والعرفَ بالقوةِ المعنوية، فإن هذه القوة الدافعة تسوق الأمم إلى الأمام، حتى إذا ما تبددت بقيتْ الأممُ حيثُ أوصلتها الدَّفعةُ الأولى، ثم هوت إلى الأرضِ كتلةً لا تَعِي، وكأنما سُلِبت حياتَها. والتاريخ يشهدُ على أن انحطاط كلّ قوم من الأقوامِ يبتدئ حيث تبلغ السيطرةُ الماديةُ حدَّ التسلط على حياتِها، تسيِّرُها وتحلّ محلَّ السيطرةِ الرُّوحيةِ والمعنويةِ. أو بعبارةٍ أخرى حين تغلب شهواتُ الأبدانِ شهواتِ الأرواحِ. تلك هي ساعةُ الفصلِ بين التقدمِ والتأخرِ.

ساعة الفصل بين التقدم والتأخر

وأكثرُ المتشائمين يعتبرون أهلَ الحضارة الحديثةِ من الغربيين قد بلغوا هذا الدورَ ، ولا يغترُّون بمظاهرِ القوي المادية ؛ فلا الثروةُ ولا العلمُ ولا ما يُنْتجون من طيَّارات ودبّابات ومدافعَ ووسائل سيطرة على الحياة المادّية بمانعةٍ من هزيمةِ المدنيةِ واندثارِ الأقوامِ التي تذبذبت عقائدُها وضل أدبُها وانقلب عُرْفها .

نظرة تشاؤم إلى المدنية الحاضرة

ويرى بعضُ العلماءِ أن سلامةَ العقلِ البشريّ ليست لازمةً للرقيّ الماديّ ، فقد يسيرُ هذا الرقيُّ عهدًا ما ، وقد سُلِبَ الناسُ العقلَ الراجح والميزانَ الصحيح ، ويكونُ سَيْرهم واندفاعهم مما يقرِّبُ قضاءَ اللهِ فيهم وسُنَّتَهُ فيمن خلا قبلَهم من المُتْرَفين ، ومحققا لقوله تعالى « حتى إذا أخذت الأرضُ زُخْرُفَهَا وازَّيَّنت وظن أهلُها أنهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلا أو نهارًا فجعلناها حَصِيدًا كأن لم تَغْنَ بالأمس » .

بين المدنية والحق

وإتيانُ أمرِها ليلا أو نهارًا هو الإشارةُ إلى معنى المفاجأة ، فإن انهيارَ المدنية وسقوطَ القائمين عليها لا يكونُ عليه دليلٌ ظاهر من الأحوال المادّية ، ولكنه خَفِيٌّ خفاءَ القُوَى الذهنية والعوامِل النفسية التي لها الأثر الأول في قيام الحضارة وسقوطها .

الانهيار الفجائي

ومن العسيرِ جدًا في مثل هذه العُجالة أن نخوضَ في تفصيل عوامل فَناء المدنية ونستقصي أسبابها وأثَرَها وسرعتَها ، ولكن ذلك لا يمنعُ من أن نشيرَ إلى سببين قد يكونُ مُجْمَعًا عليهما .

عوامل فناء المدنيات

الأول : الترفُ ، فإن الأممَ متى تهيأت لها بيئةٌ رُوحية صالحة

الترف

سمت واندفعت إلى العمرانِ والعلم فأنتجت واستقامت لها الأمور بما يمسكُها من إيمان وأدب يوحّد بينها ، ويحدّدُ مسلكَها ، ويقوِّمُ مُعوجِّها ، ويحفظها من الترددِ والقنوطِ ، فتجدُ نفسَها بعد حين قد نَعِمت بالحياةِ ودانَت لها طيباتُ الرزقِ ، فتلهُو بهذه الطيبات ثم تنغمس فيها ثم تعيش لهواها وتتسابق في شهواتِها وتَثْقُلُ رسالةُ الحق عليها ، بما تَفقد من الصبر وما تجدُ من لذّات عاجلة ، فيداخلُها الشك في دعوةِ منشئ حضارتها ، وترتابُ في كل تراثها الأدبيّ ، وتجد غَضاضةً في التقيّد ، فيضيعُ العرفُ الذي يُمْسِكُها ، وتتداعى القُوى الرابطةُ لكيانِها ، فتتفككُ العرى وتحُلُّ الفوضى ، ويستخلفُ اللهُ للمدنيّة قوما آخرين خِماصَ البطونِ ، يُحبون الحق كما يحب المُتْرَفُون كأسَهم وغوانيهم .

وهذا الترف يتولد منه السببُ الثاني للانحطاط ، فإن رسالةَ القوم الأولين تكونُ بسيطةً وهم قادرون عليها بتفرغهم لها . أما أعقابُهم فإن أعباءَ رسالتِهم تتزايدُ بطبيعةِ نمو الحضارةِ نفسِها ، وبتطلبها مجهودًا أشقَّ ونظرًا أدقّ وعناية لا تنقطعُ . فقائدُ الكتيبة في جيشِ الفاتحين الأولين يَحلُّ محلّه بعد جيل قائدُ الجيش في دولةِ الحضارة الأمبراطورية ، ومديرُ المصْنع بعشرات الألوفِ من العمال ، ومديرُ المَصْرف بآلاف الملايين من الدراهم .

وتستلزمُ المدنيةُ عندئذ من أربابها قلوبا متفرغةً وعقولا صافية وأبدانًا رياضية ويَثْقُلُ حِمْلها ، بينما يكونُ النعيم قد سلَبَ الناسَ

العقلَ ، واللذةُ قد قضت على الفراغ « ما جعل اللهُ لرجلٍ من قلبين في جوفِه » فيضعُفُ الجيل عن حَمْلِ الحضارةِ التي أنشأها آباؤُه بدافعٍ معنويٍّ ، فيَخُورُ ويَفقِد إيمانَه بنفسِه ويَهْوِي إلى الأرض مسلوبَ الرُّوح ضحيةَ الهوى والضلالِ ، وكان آباؤُه في نهضتهم شهداءَ الحق والمروءَةِ والعزةِ ، يحبُّون الموتَ كما أحب أخلافُهم الحياةَ ، فعاش الأولون مشكورين وماتوا مذكورين . أما هؤلاء فماتوا مدحُورين وعاشوا مغمورين منسيِّين .

الضعف عن حمل أمانات الحضارة

فلا شك أن العقيدةَ الصالحةَ التي تحيط بها وتَحُدُّها التقوى هي القوةُ الأولى لبناءِ المدنيةِ ، وضياعُها نذير بدمار المدنية .

ثم لا شك أن الإيمانَ القائم على صورة من العقائد الصالحة للعمران يسيرُ في ركابه عرفٌ صالح وأدب صالحٌ يستمد سطوتَه من العقيدةِ والإيمانِ . فهو القوة المُنَظِّمَةُ والمخرجةُ للدَّوْر الحاسم في الحضارة . وقد جرت سنةُ اللهِ على أن النفوسَ البشرية يستهويها المتاعُ والنجاح بما يُهيئ لها من خيراتِ الأرضِ وطيباتِها ، فإذا تهيأت استغنى الإنسانُ عن الكدِّ وطغى وصار إلى عاقبةِ الأمم الأولى .

هل جاء وعد الله؟

وإنه لَيَحْزُنَنا أن يكونَ ما نرى في الدنيا نذيرًا بأمرِ الله ! فلا الأممُ المتأخرةُ من المسلمين ، ولا المتقدمةُ من المسيحيين واليهود ، على شيءٍ من التقوى . تذبذبت العقائدُ ، وذهب العرفُ وساد حبُّ الدنيا ، وعم الترفُ ، فهل جاء وعدُ الله ؟ إنا لنرجو أن يتدارك الله هذا العمرانَ

بقومٍ خماصِ البطون يحبون الحقَّ كما يحبُّ المتحضرون المالَ والمتاعَ ، ويرثون هذه الحضارةَ فيضيفون للعلم والعمران ، ويَرُدُّون إلى الدنيا ذلك العقلَ الضائعَ والإيمانَ القويَّ .

وسيجدُ هؤلاءِ في الدعوة المحمدية كما وجد الأولون الروحَ والعقل والتقوى والهدى . نعم سيجدون الهدَى ذلك الذي هَزِئت به قريشٌ وقالت « إن نَتَّبِعْ الهدى معك نُتَخَطَّفْ من أرضنا » فلما اتبعوه خُطِفُوا من أرضهم لا للهوانِ ، ولكن لسيادة الدنيا !

* * *

نظام جديد للعالم

صوت من أصوات الدعاة – فلنتحرر من النظريات القديمة – المدنية في رأي «كپلنج» – وطأة العيش في عصور الانتقال – هل نستطيع وضع نظام للمستقبل؟ – ماذا بين أب جاهل وابن عالم؟ – بين جاهل معاصر وجده الفرعوني – لنحذر عقوبة الغرور – إلى نظام سلبي مؤقت – لا أمل في شيوخ الساسة وفي العامة – الأمل في القدرة العليا وفي مرونة الطبيعة الإنسانية – فلنؤجل النظم المثالية المجردة – من تاريخ الاصطدام بين المثل العليا والواقع السيء

صوت مع أصوات الدعاة

سنحاول ما استطعنا أن نجد القواعد التي نظنها صالحةً لنظام جديد يرضاه الأفراد والطبقات والأمم، غيرَ مقيدين في رأينا بما يقوله الدعاةُ في جوانب العالم، وعاملين جَهْدَ الطاقَة على التحرر فيما نبدي من رأيٍ من العصبية لعنصر أو مذهب من مذاهب الاجتماع. فإذا وُفِّقْنا ففي هذا كل الخير، وإذا أخفقنا فإنّا نرجو أن يكون الجهد ضمن الجهود المماثلة التي يستعان بها على الوصول إلى الحقيقة والهُدى.

فلنتحرر من النظريات القديمة

ولا بد لنا من أن نَرُوضَ تفكيرَنا على التخلص من النظريات القديمة التي كانت في عهدها حقائقَ صحيحة، والتي جعلها تطور الحياة الاجتماعية، وتقاربُ الأوطان بتزايُدِ سرعة النقل ضارّةً بسيْر المدنية. ولا شك أن العالم يَمُرّ في محنة غير مسبوقة النظير؛ فإننا لا نعلم فيما بين أيدينا من تاريخ البشر مثلَ الذي دهى العالَم هذا الجيل. فليست

غارات «التتر» التي لا يزال الناس يذكرونها قرينةً للويل، شيئًا مذكورًا بالنسبة إلى الدّمار والقتل العامّ الذي استطاعته الأسلحة الجوية، والفناءِ الذي يستطيعه تسخير العلم الحديث؛ فلا بد إذًا من نظام جديد لهذا العالم يتداركهُ من سقطته ودماره.

فما هو هذا النظام؟ ذلك ما يتساءل الناس عنه في كل مكان. ولعلنا إذا ابتدأنا بَحْثَنَا كما يبتدئ الطبيب بالفحص عن أسباب العِلّة سلكنا الطريق المستقيم إلى تكييفها ثم إلى علاجها.

فأول ما يخطر في البال هو التساؤل: ما الذي جعل مدنيتنا الحديثة مع ما وصل الناس إليه من عِلْمٍ ومعرفة مصحوبةً بهذا الشر المستطير؟!

المدنية في راي كپلنج

يقول كپلنج «إن المدنية هي النَّقْل» وهو قول يستحق التفكير، فلننظر إليه من هذه الناحية. فكم من القرون قضى الإنسان ليتعلم تسخير الحيوان في النقل؟ ثم كم من القرون مرت ليكتشف العَجَلة ويَربِط بينها وبين الحيوان، وليُشْرِعَ للسفينة شراعًا ويستخدم الريح؟ وفي كل هذه القرون كم زادت سرعة حركته؟ فإذا قِسْنا ذلكَ بتسخير البُخار في القطار والسفينة أدركنا المفاجأة التي فوجئ بها العالم حين ظُهور المدنية الحالية قبل أقل من قرن. فإذا أضفنا إلى ذلك استخدامَ الكهرباء واكتشافَ اللاسلكي والسيطرةَ على الجو بالطائرات، ونظرنا إلى تطور سرعة النقل في السنوات العشرين الأخيرة، أدركنا كذلك ما سيكون من فرق بين مدنية هذا الجيل ومدنية الجيل الآتي.

إن متوسط السرعة قبل مائةِ سنة لحركة الإنسان في الانتقال من مكان إلى مكان لم تَزِدْ على ثلاثين ميلًا في اليوم، ومتوسطُها الآن قد وصل إلى أكثر من مائتيْ ميل في الساعة، ولا يزال يزداد باطراد.

فإذا كانت المدنية هي النقل كما يقول «كپلنج»، وإذا كانت السرعة هي القياس لما بينها من فروق، فإن ما بين مدنيتنا ومدنية أبنائنا سيكون على هذه النسبة.

فكما فصل البخار العالم القديم من العالم الحالي فسيفصِلُ اللاسلكي، وكذلك هذه السرعة المتزايدة في الجو عالَمَنا من العالم المقبل.

وطأة العيش في عصور الانتقال

ومن سوء حظّ هذا الجيل أن يكون صلَةً بين عالَمَين، وأن يذهب ضحيةَ الانتقال العنيف. وعلى ذلك هل نحن، أهلَ هذا الجيل، حقيقةً جديرون أن نضع نظامًا عالَميًّا لمن بَعْدنا؟ قد يكون النظام الذي يرتَضُونَه بعيدًا عن تصوّرنا بُعْدَ نظامنا عما قبل استخدام البخار.

هل نستطيع نحن وضع نظام للمستقبل؟

ومن ناحية أخرى فإنّا نحن الذين لا نزالُ نجهل نفوسنا فلا نصرّفها ولا نملِكُها، ولا نحيط إلا بقليل مما أُودِعَ فيها من القُوَى الذهنية والقوى الروحية، لن نستطيع وضع نظام للعالم وهو ليس من صنعنا؛ فالإنسان فيه حيوانٌ أوتيَ من القدرة ما يسمحُ له بالتصرف في نطاق محدود.

لقد سار العالم آلافَ السنين على وَتيرَةٍ واحدة. كانت الحضارة تتقدم ببطء وتنتقل من وطن إلى وطن، وفي كل نُقْلةٍ تنطوي مئات السنينَ قبلَ أن تذبُل، وتنقضي مئاتٌ أخرى قبل أن تزدهر في قوم

جُدُدٍ ، فكان العقل البشريُّ مستطيعًا في نِطَاق قدرته أن يسايرها وأن يسيطر إلى حدٍّ كبير على مُقَدَّرات مدنيته ؛ فلما تفجَّرت فجأةً ينابيعُ العلم الحديث زُلْزِلَت الأرض زِلْزَالَها وأخرجتْ أثقالَها فبُهِتَ الإنسان وقال مالها ! ؟

في جيل واحد انقلب وجهها ، وتناكر القديم والحديث.

ماذا بين أب جاهل وابن عالم؟

ولنضرب لذلك مثلًا : شيخ في قريه بجوار « طيبة » في صعيد مصر يعيش كما عاش آباؤه في مصر القديمة ، بَعثَ في أوائل هذا القرن بابنه إلى أمريكا فنَشأ هناك وتزوّج ورجع بأسرته إلى قريته ، فوجد أباه حيًّا يفْلَحُ أرضه بمحراثه الفِرْعوني ، ويأوي إلى بيت لا يزال على طراز العهد الهكسوسي ، ويفكّر كما كانوا يفكرون أيام خوفو ؛ لا شك أن الابن وأباه حين التقيا تناكرا ، فكأنما هبط الابن من كوكبٍ آخرَ ، فلن يستطيعا أن يتعاشرا ولا أن يتعاونا على شيء...

بين جاهل معاصر وجده الفرعوني

ولْنفرض أن الله بعث في تلك الساعة أحد سكان « طيبة » من قبره. بعث شيخَ بلدٍ من عهد « رمسيس » من أجدادهما ، ليشهد الحفل العائليّ للابن العائد من أمريكا ؛ فهل يجدُ الناس أن شيخ البلد الذي بعثه الله من قبره بعد غياب ثلاثة آلاف سنة ، أقربَ إلى شيخ القرية ، أم إلى ذلك الابن الذي ولد في القرن العشرين وغاب ثلاثين سنة فقط ؟

سيجد شُهُودُ الحفل أن الجدَّ الفرعوني أقرب إلى قلب الأب وعقله وطِراز حياته ، من ذلك المولود فيهم ، القادم عليهم من العالَم الجديد.

ثَلاثون سنة فعلَتْ بالعائلة البشرية ما لم يفعله ثلاثون قرنًا ! وهي لم تفعل ذلك في مصر وحدَها بل في العالم كله. قرنٌ واحد بدّل وجه الأرض كما يبدله الزِّلزالْ وفصلَنا عن ماضينا بعُنفٍ، وكأنما نقلنا إلى كوكب آخر.

وإذًا فهل حقيقةً نستطيع، نحن ضحايا هذا الانتقال، نحن الذين مَلَكْنا الآلةَ وملكتْنا، وأصبحنا نسيّرها إلى مجهول وتطوينا في ثناياها إلى مجهول أعظمَ، هل نحن حقيقةً جديرون بوضْع نظامٍ لعالم المستقبل؟

لنحذر عقوبة الغرور

إذا ظننا ذلك فإني أخشى عقوبة الغرور. وقد يكون من الخير والصواب أن نكتفيَ فيما نسمّيه «النظام الجديد» بعمل سَلْبِيٍّ، هو نظامٌ نمتنع فيه بتَاتًا عن تسليط ما بأيدينا من قُوًى للتدمير والتخريب، وعن مضاعفةِ العوامل التي اضطرب لها وجودُنا كلّه.

إلى نظام سلبي مؤقت

يجب أن يكون هدفنا فيما نسمّيه «النظام الجديد» تَخفيف ويلات عهد الانتقال.

لقد شاهدنا الحرب العالمية الأولى، وسمعنا وتحمسنا لأحاديثَ عن نُظُمٍ جديدة لعالم جديد. ونحن اليوم نشهد مرة أخرى حربًا أعظمَ وحديثًا أشهى ولكن هل بين العقل الذي سيطر على أداة الدَّمار الماضية أربعَ سنين، من ١٩١٤–١٩١٨ والعقل الذي سيطر عليها، أكثر من أربعِ سنين من ١٩٣٩–١٩٤٥ فرق؟ هو هوَ العقل العاجزُ أسيرُ

الماضي ، غلبته الآلة والمادّة ومدنية النقل المتزايدة السرعة ، فحار فيها وناءَ بحمْلها .

أقبلنا شبَّانًا على أقوالٍ عن عالم جديد فتحمسنا لها ، فإذا سمعناها اليومَ بعد تجربة ، ملأتنا خوْفًا وتشاؤمًا ، لِمَا ظهر لنا من الكذب والعَجْز .

مشت الحَضارة البشرية القديمة في تطوّر بطيء مئاتِ القرون فهضمها العقل البشريّ ، أما الحضارة الحديثة فستحتاج إلى وقت طويل ليَهْضمها العقلُ البشريّ .

لا أمل في شيوخ الساسة والعامة الأمل في القدرة العليا وفي مرونة الطبيعة الإنسانية

إنني قليلُ الرَّجاء في شيوخ السَّاسة وفي نُضُوج العامّة لتحمل المسئوليّات الجِسَام المتجددة ، ولكنني عظيم الإيمان بالقدرة العليا التي تُدِيرُ هذا العالَم ! ففي الطبيعة نفسِها كلُّ الرجاء ، فقد خُلِقَ الإنسان وفيه من القدرة على الإفاقة من الصدمة ، وله من المصانعة والمحاكاة والتطور ما يَضْمن بقاء النوع واستمرارَ رُقِيِّه ، وسيكتشفُ الإنسان بغريزة حب البقاء بعد تجارِبَ مُرَوِّعة قاسية نظامًا عالميًا مناسبًا متجددًا يساير العصر الآلي ، عصر السرعة المتزايدة ، أقول نظامًا مناسبًا متجددًا ؛ إذ ليس من الصواب في شيء أن نحاول إملاء نظامٍ كاملٍ ثابتٍ لا يتغير ، فالأشكال والأوضاع والمستحدَثات كلُّها تحمل في طبيعتها التغير بل الزوالَ والفَناء .

وأكثرُ ما يقع فيه الإنسان من كوارثَ هو عقوبة الغرورِ والجهل ، وأكثرُ ما يصيبه من شرٍّ هو ردُّ الفِعْل لافترائه وادعائه .

فلنؤجل النظم المثالية المجردة

فإذا حاولنا أن نعطي الناس نظامًا عالميًا مثاليًّا، وتجاهلنا غرائزَ حبِّ الظهور والسيطرة والتعالِي، مما هو كامنٌ في صميم النفس الإنسانية، فإننا نحاول إقامة هذا النظَام على بُركانٍ من الغرائز الحيوانية المتفجرة الجامحة. وإذًا فكل نظام عالمي لا يُرْضِي الغرائزَ البشرية، ولا يُعِين على توجيه الدوافع الإنسانية، هو نظامٌ تقضِي عليه الغرائزُ نفسُها، أو تتخذه وسيلةً لإشباع شهواتها: فمن شأن الطبيعة الإنسانية أن تقلب كلَّ نظام مثاليّ وأن تكيّفه، وإلا أصبح بالنسبة لها نظامًا لا تطيقه.

من تاريخ الاصطدام بين المثل العليا والواقع السيئ

وليس أدلَّ على ذلك من تاريخ المذاهب والأديان الداعية إلى فلسفة سامية. خذ مثلًا دعوتين بينهما ألفا سنةٍ: المسيحية والشيوعية، فماذا صنعت بهما غرائز الإنسان الفِطرية الحيوانية؟ ألم تُرِدْ كلٌّ دعوةٍ منهما أن تَرْسُم نظامًا مِثاليًا ساميًا؟ فماذا بقِيَ من المثلِ الأعلى فيها؟ بَقِيَتْ تلك المأساة التاريخية الطويلة! فقد سُفكت باسم المسيحيّة وفي سبيل المسيحية التي تحرّم الحرب دماءٌ أغزرُ مما سُفك في سبيل أية دعوة أخرَى في تاريخ البشرية. بل إن القارة الأوربية التي هي مقر المسيحية، هي وكر الحروب والدمار على طول الألف الأخيرة من السنين.

ماذا بقِي من وصايا المسيح الجميلة الرحيمة المتواضعة؟ ألم تصنعها غرائز الغَلَب والقهر والزَّهْو والاستعلاء صُنْعَها، وتستخدمْها في إشباع النوازع البشرية؟

كذلك الدعوة الشيوعية ليست حديثة، فهي أخت «المَزدكية»

الفارسية ونسخة منها. دمّرت المزدكية فارسَ فيما مضى، وسُفِك في سبيل الشيوعية الحديثة من الدِّماء ما لم يُسْفَكْ من قبل في سبيل النهب والسلب في قومٍ من الأقوام؛ ومع ذلك فماذا يبقى من الشيوعية المثالية؟

الظاهر أن النظام المثاليّ الكاملَ خيالٌ في هذه الدنيا؛ فإن الطبيعة البشرية تأباه. فهل يحسُنُ بنا أن نَجْرِيَ وراءه أو نُلِحّ في طلبه؟ أم الأَوْلى بنا أن نقنع بنظام دنيوي يؤدّي بين الطوائف والشعوب وظيفةً أشبهَ بوظيفةِ القانون العادي بين الأفراد، فيقتَص من أطراف الشر، ويُدِيم السَّلم ويحصُر أذى الحرب ويوجّه الغَرائز وِجهة ترضاها، فتُشبِعُ شهواتِها من غير طريقِ العُدْوَان؟ نظام ييسر للجميع العَيْش، وتسنِدُه المَصلحةُ المشتركة للفرد والجماعة والشعوب في عالَمٍ جعل منه النقل السريعُ وطنًا واحدًا.

وبعبارة أخرى: نظام هو مجموعة قواعدَ عامّةٍ تصبح عُرْفًا عامًا يَرضاه الناس ولا يَعْصونَه.

* * *

الواجب قبل الحق

شغل المفكرين في العالم – جمعية إنجليزية تضع دستورًا لحقوق الإنسان – استفتاء عظيمين من مفكري الشرق – رأي غاندي – غضب ويلز على غاندي – رأي نهرو – مع رأي غاندي – فلنجرب طريقة غاندي – طريقة مجربة في الإصلاح – تحويل التصور البشري – إعلاء الغرائز وتحويلها – تربية يطرد بها روح الأديان

شغل المفكرين في العالم

قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى وبعدها ، بل وقبل نشوبها ، أقبل كثيرون من المفكرين المخلصين في العالم ، فرادى وجماعات ، على التفكير في نظام يرضاه الناس وينقذهم من مآسيهم وآلامهم التي أوقعتهم فيها أسباب الاضطراب العالمي التي استعرضناها في الباب السابق.

جمعية إنجليزية تضع دستورًا لحقوق الإنسان

ومن بين الجماعات الكبيرة التي اهتمت بذلك جماعة تألفت من أهل الفضل في «لندن» يرأسها المحامي الشهير «اللورد سنكي» ويقوم بدعوتها الكاتب المعروف «هـ. ج. ويلز».

وقد وضعت هذه الجماعة بعد مناقشات ومكاتبات مشروعًا أعلنت فيه حقوق الإنسان ، واقترحت أن يكون دستورَ العالم بعد الحرب الأخيرة.

وقد تضمّن هذا الدستور إحدى عشرة مادّة ، هي في نظر الجماعة حقوق الإنسان التي يجب أن لا تعترضها شريعة ولا عُرف ولا أيُّ نظام مَحَلّيٍّ لبلد من البلاد أو شعب من الشعوب ؛ فهي القانون الأساسيّ

الذي يَجُبُّ كلَّ تشريع مخالف له.

استفتاء عظيمين من مفكري الشرق

وأهم هذه المواد يتعلق بحرمة المِلْك، وحقِّ التعلم، وحرية العقيدة، والحرية الشخصية، وحق العمل، وحق القاصر في حماية الجماعة، الخ...

وقد بَعثتْ هذه الجماعة بمشروعها لرجلين عظيمين من مفكّري الشرق: هما المهاتما «غاندي» والزعيم الهندي «جواهر لال نهرو» تسأل رأيَهما، فأجاب غاندي بما يأتي:

رأي غاندي

«ما هي النتيجةُ العملية لإعلان هذه الحقوق؟ ومن ذا الذي يرعاها ويحرسُها؟ وسواء أكنتم تقصِدون إلى الدِّعاية وحدَها أم إلى تنوير الرأي العام العالميّ فقد ابتدأتم من الطرف المخطِئ.. وإني أَقترح عليكم وأرى أن الصواب هو في أن تبتدئوا بإعلان «واجبات الإنسان». ولا شك عندئذ أن الحقوق ستَتْبَعُ كما يَتْبَع الربيعُ الشتاءَ.

إني أكتب إليكم عن تجربة وخبرة، فقد بدأت حياتي مهتمًّا بحقوقي، وكان جُهدي منصرفًا لتقريرها والحصول عليها، وسَرْعَانَ ما أدركت أن لا حقّ لي حتى قِبَلَ زوجتي. فأخذت أنظرُ في واجباتي وما عليَّ قِبَلَ زوجتي وَوَلَدِي وإخواني والمجتمعِ فأديتها، وأنا اليومَ أجدُ نفسي ولي من الحقوق ما ليس لرجل آخرَ أعرفه في هذا العالم».

غضب ويلز على غاندي

وقد أثار جوابُ غاندي غضبَ «ويلز» فحَمل علية حملة مُنْكَرة، وعدَّه إباءً منه للتعاون، وتمشّياً مع مذهبه السلبي، واتهم غاندي بالتأخّر وبعدم إدراك ضرورة العصر.

ولكن هل أنصف ويلز غاندي؟ ثم أليس في كلام غاندي ما يستحق النظر والتفكير؟ ذلك ما سنبحثه.

رأي نهرو

أما «جواهر لال نهرو» فقد أرضى جوابُه ويلز، فقال عنه: إنه عَمليٌّ وإنه يستحق عظيم الاهتمام ولو أنه خالفه في أمور غير جوهرية.

يقول نهرو: «سمع الناس كثيرًا مع الإعجاب مواثيقَ وبياناتٍ أعلنت حقوق الإنسان وانتهت إلى لا شيء، وأحقها بالذكر ميثاق «بريان – كيلوج» الذي حرَّم الحرب.

ولقد نظرت في بيانكم عن حقوق الإنسان فأزعجني أن لا أجد فيه ما يَهْدِي إلى كيفية تحقيقه.

أنا لا أقصد التفاصيل، بل أقصد الأصول التي يقام على قواعدها العالمُ اجتماعيًا واقتصاديًا. وإذا كان من الحق، وهو عندي الحق، أن مآسِيَ العالم الحالية ترجع قبل كلِّ شيء إلى فساد نظامه السياسيّ والاقتصاديّ، فلا بد من تغيير هذا النظام كي يستطاع تطبيقُ ما تريدونه من الحقوق التي أعلنتموها

إن بيانكم، يا مستر ويلز، ليس قابلًا للتحقيق بحال من الأحوال ما دام النظام الاستعماريُّ والرأسماليُ يَسُودان العالم. تقولون إن لكل إنسان كذا وكذا من الحقوق، وهو كذلك، ولكن أنَّى لهذا الإنسان أن يصل إلى حقوقه تحت النظام الرأسمالي؟ ثم أنَّى له أن يتمتع بشيء منها ما دامت أمّةٌ أو طبقة تسيطر على أخرى وتسخّرها؟ إن الطريق

إلى الخَلاص هو الاشتراكية ، وأن يقوم النظام العالمي الجديد على أصولها» .

ذلك هو جواب «جواهر لال نهرو» وهو من الشخصيَّات العالَمية المحترمة وسنعود إلى ما يشكو منه في الفصل المقبل . أما جواب غاندي فإنه كما قلت ، رغم اعتراضات ويلز ، يستحق النظر والتفكر .

مع رأي غاندي

فحقوق الإنسان كثيرًا ما أُعلِنَتْ ، وكثيرًا ما انْتُهِكت . وما دام الأقوياء لا يَرْتَدِعُون بداعٍ من التربية والعُرف والوجدان ، فإنها تبقى حيث هي غيرَ قابلة للتحقيق .

فلنجرب طريقة غاندي

ويصحّ لنا أن نجرِّب تربية جديدة وطريقة جديدة ، فنتخذ الواجبات أساس النظام الجديد ؛ فبدلَ أن نحاول المساواة بين الناس في الحقوق ، نقيم هذه المساواة على أساس الواجب ؛ فربما كان ذلك أفعلَ في ردِّ العدوان وفي احترام حق الغَيْر .

فلو أنّا عوّدنا الناس بالتربية إكرام القائم على واجبه أكثر من المُطالب بحقِّه ، لجعلْنا الواجبَ مصدرَ العلاقات الأدبية والاجتماعية وأَنشأنا نظامًا جديدًا لعالَم أحسنَ من عالمنا الحاليّ ، لأن التربية التي تجعل القيام على الواجب غايةَ الإنسان الراقي ، تنتهي باحترام حقّ الغيْر احترامًا أحفظَ وأنفع للحقوق من كل قوة تُسْتَخدَم لكسبها أو المحافظة عليها . ولعل هذه الطريقةَ في التربية هي التي تتناسب مع تاريخ الإصلاح البشريّ ؛ فهي طريقة الأنبياء والمصلحين الذين وجَّهُوا همّهم إلى تعريف الناس بواجباتهم . فليس من المتعسر الرجوع إليها ولا خَلْقُ ذهنية جديدة

طريقة مجربة في الإصلاح

أساسُها فضلُ من يُؤَدون واجبهم على سائر الناس.

حرَّم الأنبياء القتل والسرقة والغدر والكذب، فشرعوا بذلك واجبات أساسُها النهيُ. فإذا أخذنا في التعرّف إلى ما نحرّمه على أنفسنا، وجعلنا هذه الحُرْمة عامّة ودولية، كان ذلك عملًا إيجابيًا حاسمًا في سبيل إقامة نظام جديد، ولو كان ظاهره دعوى سلبية أساسُها النهي والتزام الواجب.

فمثلًا لو أن الناس أُدِّبوا وعُلِّموا أن لا يُفرِّقوا بين القتل والقتال، لأن الواجب يحتّم على الإنسان المهذَّب المحترم أن يمتنع عن إزهاق أرواحِ الناس لغير جريمة ارتكبوها، وبغير قانون وقاضٍ يقضي فيها، ولو صار الامتناع عن القتل في الحرب كالامتناع عن القتل في غير الحرب واجباً، من يتعدَّاهُ يُعْتَبَر مُجرمًا، لكانت هذه التربية وهذا الأدب والعرف أفعل في منع الحروب من كلِّ المواثيق والنُّظُم.

ولو سادت هذه التربية لكانت وظيفة الجندي على أحسن صورها كوظيفة الجلَّاد في نظرِ العامة سواء بسواء.

تحويل التصور البشري

نعم إن تحويل التصوّر البشري للأمور عمل شاقٌّ، ولكن ألم يتبدَّل في جيل أو جيلين تصوّرُ الناس لأمور كثيرة تبدلًا تامًا؟ فلِمَ لا يستطاع بالتربية والتدريب خَلْق عُرْف عام عالَميٍّ أساسه حرمة الواجب في كل الأحوال والظروف؟.

ولعله من المتيسر أن نوجه الغرائز البشرية التي نشكو منها في إفساد

النظم المثالية وِجهةَ الفخر بأداء الواجب.

فالإنسان يَزْهُو بإنقاذ غريق أو التعرُّض للخطر في إطفاء حريق. فإذا صار العرف أن هذا العمل هو الذي تُسْتَحَقُّ عليه أعظمُ ألقاب الشرف، وأن الامتناع عن الأذى والاستشهاد في ذلك هو البطولة الكاملة، لاستخدمنا غرائز الاستعلاء والظهور في الخير العام.

ولم لا يخلَّد ذكرُ الذين ظهرت آيات مروءتهم في تأدية واجبهم بَدَلَ الذين ظهرت قدرتهم على الافتراس والفتك بالغير؟ فقد نصل عن طريق تعليم الواجب وتقديسه إلى إقامة صرح الحق وتخليده، ونكون قد اصطلحنا مع الغرائز الفِطرية، فنَعْدِل عن كَبْتِها واستفزازها إلى توجيهها واستخدامها في تدعيم النظام الجديد.

ولا أظن أحدًا من جيلنا الذين شهدوا هذه الحربَ والتي قبلها يمكنه أن يتصور نظامًا جديدًا يستحق البقاء لا يحرِّم الحرب تحريمًا باتًّا... فهل لذلك من سبيل أصلح من سبيل الأنبياء: سبيل التحريم عن طريق تعليم الواجب؟

فإذا لم نعلِّم الناسَ ونُربِّهم على احتقار القتال احتقارَهم للقتل، فأنَّى لنا أن نكفُل السِّلْم بتجريد أمم من السلاح أو وضع أمم مسلحة حُرَّاسًا على السلم؟ ومن ذا الذي يضمن أن لا يقتتل الحراس طمعًا فيما ٱئتُمِنُوا عليه إذا لم تكفُل ذلك التربيةُ التي أساسُها تقديس الواجب.

إعلاء الغرائز وتحويلها

ليست هذه التربية مستحيلة ولا هي خيالًا؛ فإن في حياتنا الأولية

كثيرًا من الفخر بضبط النفس والحرمان ، وتاريخ المروءة تاريخ طويل يكاد يلازم الناس في كل جيل ، وهذه المروءة بما تنطوي عليه من نكران الذات تَعلَّمها الناس بالاجتماع وبالدِّين ، فصارت فِطرية لأن الغرائز التي ترضيها المروءةُ هي ذات الغرائز التي يُرضيها العدوان.

فحين كان فخرُ الناس بالكرم ، كان إشباع غريزة حب الظهور في البذل والعطاء ، ولما صار فخرهم بالأثاث والسيارات والمُقْتَنيات ، صار إشباع هذه الشهوة بالأَثَرة والأنانية.

ولو علّمنا أولادَنا أن زَهْوهم وإعجابهم ليس في أن يلبَسُوا ثوبًا جديدًا في العيد ، حين لا يجد أولاد عمومتهم أو جيرانهم ثوبًا مثلَه ، وعوّدناهم أن زَهْوهم وظهورهم في أن يمتنعوا مختارين عن لِبْسه تأسِّياً بأهلهم ، فإن غريزة حبّ الظهور تتدرب على إشباع غرضها بالامتناع ، وتجد حظَّها في أداء الواجب.

تربية يطرد بها روح الأديان

ولن يكون هذا جديدًا في حياة الإنسان ، لأنه يتناسب مع رُوح الأديان التي سيطرت على تاريخ البشرية الطويل.

إن فطرة الناس واحدة ومظاهرَها متعددة ، فالنفس البشرية تتكيّف حسب مُقْتَضَيَاتِ التربية والعرف العامّ لتُرْضِي الكَمِينَ من الغرائز فيها. ولا سبيل لإنكار الغرائز الفطرية لمن يفكّرون في تنظيم العالم. ونهجُ الأنبياء الذين وجَّهوا الغَرَائز وِجهةً تُرْضي المروءةَ والمصلحة العامَّة ، هو النهج المستقيم. فإذا نحن اليوم بَدَلَ أن نعلن حقوق الإنسان ، أعلنَّا

واجباته ، وألبسناها حُلَلًا من الحرمة والتقديس ، فإننا قد نوفِّق إلى نظام صالح جديد. وليكن القانون الأساسيُّ لهذا النظام متضمنًا واجباتِ الإنسان نحو أهل بيته وجيرانه ووطنه وجِنْسِه والمخلوقات الأخرى. وقد يكون ذلك أبقى للعرف العام ، وأثْبتَ على ممر الأيام.

* * *

عِلل النظام الحالي

إجماع على فساد الرأسمالية الحالية – خطر رأسمالية الآلة – الآلات بركات كثيرة اللعنات – مادية لا سند لها من الروح – مشكلة التعطل في الأمم الرأسمالية – رجال الكنيسة الإنجيلية يتحولون إلى اليسار – إلى التوازن الإسلامي – الاستعمار الحديث – ويلات عالمية – شاهد منهم – شاهد من العالم الجديد.

إجماع على فساد الرأسمالية الحالية

يقول «نهرو»: إن سبب فساد العالم يرجع في معظمه إلى فساد نظامه الاقتصاديّ والسياسيّ الحاليّ، وإنه لا سبيل إلى الإصلاح ما دامت الرأسمالية تسخّر طبقة لطبقة، والاستعمار يسخر أمة لأمة.

وقد وافق «ويلز»، وأظن أن أكثر المفكرين اليوم على هذا الرأي. فالرأسمالية رغم أنها كلمة استعملت حتى ابْتُذِلَتْ، لا تزال تعبّر عن نظام يقوم على الرِّبا ويَهْدِي إلى الترفَ والإسراف.

وهي وإن كانت باستنادها إلى حقوق المِلْكية الفردية قديمةَ العهد، فإنها تتكيء اليوم على مِلكية الآلة للعمل.

وهي بالانقلاب الصناعيّ الكبير الذي نشأ عن استخدام البخار والكهرباء حديثةٌ بعيدة الغَوْرِ في حياة الإنسان ونظام المجتمع. بل تكاد الرأسمالية الحديثة تكونُ شيئًا آخرَ غير نظام الملكية القديمة في آثارها ومظاهرها، وإلى هذه الرأسمالية يَنْسُبُ الاشتراكيون كلَّ مساوئ

النظام العالميّ الحالي ويعدون العَطالة والبؤس والتّرف والإسراف من مظالمها.

خطر رأسمالية الآلة

لا شك أن ملكية الآلة، وحسن استخدامها، ودوام التحسين في إنتاجها، كل ذلك يعمل باستمرار للاستغناء عن عمل الصانع والزارع.

الآلات بركات كثيرة اللعنات

فبدلَ أن تكون وفرة الإنتاج وسهولتُه بركةً من بَركات عصر البخار والكهرباء، وبدلَ أن يكون استخدام الآلة والقوة سببًا في بهجة الحياة والسَّعة في أوقات الفراغ، انقلب الخير في ظلِّ النظام الاقتصادي الحديث إلى شر مستطير، وحُرِمَ الكادحون من رأس مالهم وهو العمل والجزاء المناسب له، واختص «المموِّلون» بمجهود محدود وثمرات وفيرة، فارتفعوا فيه إلى مستوى الأمراء في العهد الإقطاعي، وسارت الكثرة تنظر إلى مباهج الحياة ولا تشترك فيها، بل فقدت طوائفُ المتعطلين والذين على حافّة التعطل هناءَة العيش وهناءَةَ الإيمان، في ضوضاء الآلة. وكان الدّين من قبل يُمِدُّ المُعْوِزين بالسَّلْوَى والعِوَض في الدار الأخرى، أما الآن فقد ضعفت سيطرة الدين وذهب مدده من العزاء.

مادية لا سند لها من الروح

نعم كانت الأديان تخفف من آثار المِلْكية بدعوتها القوية إلى الزهد واشتراك المحرومين في ثمرات الكسب بقوة القانون، كما فعلت الديانة المحمدية، أو بتحريم مَلَكُوت السماءِ على الأغنياء كما فعلت المسيحية.

مشكلة التعطل في الأمم الرأسمالية

وكأنما النظام الرأسمالي الحديث، وقد سُلِبَ السنَدَ المَعْنوِيَّ والرُّوحِيّ، يتجه بعُنْفٍ نحو الأثَرة والاستزادة من الترف والإسراف، فيقذِفُ بلا

رحمة في هاوية التعطل فريقًا، ويسخِّر فريقًا آخر. وليس أدلَّ على ما وصل إليه الخطر من أن المتعطلين في بريطانيا قد تجاوزوا قبل الحرب[1] عدة ملايين. وبريطانيا هذه هي سوق الأموال في العالم ومن أهم مراكزه وتنفرد فوق ذلك بمُلْكٍ لم يُؤْتَه بلدٌ في العالم، تُجْبَى إليها الأموال من القارات الخمس ومن الأبيض والأسود والأصفر.

رجال الكنيسة الإنجيلية يتحولون إلى اليسار

بريطانيا المحسودة تنوء بعبء النظام الاقتصادي الرأسمالي! وليس أدلَّ كذلك على تداعي هذا النظام من أن قادة الكنيسة الذين ظلوا سَنَدَ العناصر المحافظة جيلًا بعد جيل أخذوا يتحولون من اليمين إلى اليسار. يتَّقُون أن يغمرهم سيل الفتنة كما غمر رجال الكنيسة الروسية، فنزعوا إلى التأويل أو رجعوا إلى المسيحية الأولى.

وآخر ما علمنا في هذا الشأن قرارُ مؤتمر ملفرن Melvern للكنيسة الإنجيلية، وهي قرارات لو نشرت في أول هذا القرن لَظُنَّ أنها مما أوحى به «كارل ماركس» أو بعض تلاميذه... وكما أن هذا دليل على اتجاه الأفكار فإنه كذلك دليل على حصافة رجال الكنيسة في الغرب. وإنا لنرجو أن يتعظ العلماء وقادة الرأي في البلاد الإسلامية؛ فإن شريعتهم هي الشريعة التي وُفِّقت كل التوفيق في تناولها هذه المشكلة المعقدة.

إلى التوازن الإسلامي

فلا بد للمسلمين الذين اندفعوا على غير هدى إلى تقليد الغرب

---

(١) أي الحرب العالمية الاخيرة (الكتاب صدر في ١٩٤٦).

من الرجوع إلى الإخاء والزكاة والتوازن بين الطبقات ؛ ذلك التوازن الذي أقامته شريعتُهم على أساس أن البِرَّ حق معلوم في أموال الأغنياء ، وعلى ترجيح المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، وعلى مسئولية ولي الأمر وسلطته الواسعة في النظر إلى حاجات المسلمين. وليس المقام مقام استرسال في نواحي الشكوى من النظام الحالي ، فالصيْحة تتردد من أوائل هذا القرن في جوانب العالم كلِّه ، والفتن يأخذ بعضُها بِرِقَاب بعض ، فلا بد إذًا من نظامٍ اقتصاديّ جديد يحل محل النظام الحالي .

الاستعمار الحديث

ولْنَرْجعْ النظر إلى العنصر الثاني لفساد المجتمع الحالي في رأي « نهرو » وهو الاستعمار . وإذا كانت الرأسمالية قديمة ولها من الألفة بها سَنَدٌ ؛ فإن الاستعمار حديث ، والفطرة تأباه وتُبْغِضه ، وقد عملت كل الأمم في كل العصور للخلاص من سيطرة الأجنبي .

وإذا قلنا إن الاستعمار حادث فليس معنى ذلك أن الناس والحكام لم تتقاتل على الأرض ومِلْكيتها ، أو على المُلْك وسَعَتِه ؛ فذلك قديم . وإنما الجديد في الأمر هو ذلك الطغيان العامّ باسم التَّمْدِين ، وقِوَامة الأمم الأوربية على العناصر الملوَّنة كما يقولون .

سادت الأقوام الأوربية الأصل الدنيا ، وأصبحت الكرة الأرضية كلها في متناول الاستعمار الحديث بتطور وسائل النقل والسرعة .

وكان فيما مضى زحف « تحوتمس » من النيل للفرات غير مسبوق ، وسير الإسكندر من الفرات إلى السَّنْد أعجوبة التاريخ . كانت شرور

الفتح والنهب محدودة وطرائق الأَثرة والاستغلال أوّلية .

ويلات عالمية

أما اليومَ فويلات الاستعمار عالمية وآثاره تشمل الكرة الأرضية . وقد أنصف كثير من الكتّاب الغربيين أهل الشرق المغلوبين ، ورَثُوا لحالهم قبل الحرب الماضية ، ولعلهم اليوم يَرْثُون لما أصاب الغازين أنفسهم ؛ فهم يستحقون كذلك الرثاء .

شاهد حق

قال الكاتب الإنجليزي المشهور « سدني لو » سنة ١٩١٢ يصف الاستعمار : « ما أشبه غالبَ الدول الأوربية في سلوكها هذا الذي ما برِحَتْ تسلكه منذ عدة سنوات إزاء الأمم الشرقية بعصابة من اللصوص يَهبِطُون على الحِلَلِ الآمنة فيُثْخِنُون فيها ، ثم ينقلبون بالغنائم والأسلاب . وما بال هذه الدول الغربية بعملها هذا مؤيدةً للدعوى الباطلة بأن القويَّ الشاكي السلاح يَحقُّ له الانقضاضُ على الضعيف الأعزل ، وآتية بالبرهان القاطع على أن مكارم الأخلاق والآداب الاجتماعية لا شأن لها ألبتة حِيالَ القوة المسلحة ! ففي خلال عشرين سنة ثارت ثائرة الاستعمار في أوربا ، وهبّت عواصف الحضارة المادّية الهوجاء فقوّضت الآداب والحقوق الدولية تقويضا » .

ذلك ما قاله « سدني لو » قبل الحرب العالمية الأولى ، وقد توالت حملات الاستعمار على العالم الشرقيّ آخذا بعضها برقاب بعض .

لو أن « لو » كتب في الاستعمار بعد الحربين العالميتين لكان رثاؤه للمستعمرين الغربيين أكثر من رثائه للمغلوبين الشرقيين .

شاهد من العالم الجديد

وقد دافع كذلك عن الشرقيين بعد الحرب العالمية الأولى الكاتب الأمريكي « لوثروب ستودارد » في كتاب « حاضر العالم الإسلامي »[1] بهذه العبارة : « إن مبادئ الحرية التي سادت في الغرب ونُودِيَ بها غالبَ القرن التاسع عشر قد هبّت عليها ريح هَوْجاءُ من المطامع السياسية والاقتصادية فمزقتها شرَّ مُمَزَّق ، وبُدِّدَت صورها كل مُبَدَّد ، إذ أخذ التزاحم يشتد والتنازع يُوغِر قلوب الدوَل الغربية ، حتى طَفَح الكيْل فاشتعلت الحرب الكونية العظمى . واشتد نهم أوربا وجشعها للتوسع في الفتح والاستعمار ومناطق السيطرة ونَيْل الامتيازات واحتياز الأسواق الاقتصادية اشتدادا وحشيا غير مسبوق المثيل » .

فلو أن « ستودارد » كتب بعد أن وقعت الحرب العالمية الثانية وشهد ويْلاتها ، أمَا كان يَرْثي هو أيضًا للغالبين كما رَثى لحال المغلوبين؟

إن السيطرة الاستعمارية على العالم باسم الحضارة إنما تسعى لإشباع شهوات الرأسمالية الحديثة في الأسواق والمواد الخامة . وقد وضعت الرأسمالية والاستعمار متسانِدَيْن أسسَ هذا الاضطراب العالميِّ الذي قد يقضي على الحضارة كلها .

فلا بد إذًا من نظامٍ اقتصاديّ وسياسي جديد .

وحين يقول « نهرو » ويوافقه « ويلز » إن النظام القائم على الرأسمالية والاستعمار والذي يعيش في ظل سيطرة طبقة على طبقة ، وأمة على أمة ،

---

(١) عربه الأستاذ عجاج نويهض ، وعلق عليه تعليقات مستفيضة الأمير شكيب أرسلان رحمه الله.

ليس نظاما صالحًا للبقاء لا يجدان من العقلاء من يخالفهما ، وإنما يأتي الخلاف حين يُقْتَرح العلاج .

مقترحات

البدء بتقرير قواعد بسيطة – يجب تطور الرأسمالية والاستعمار – عالم واحد لا تتجزأ السلم فيه – هيئة عليا عالمية لقيادة مشتركة – التدرج إلى حكومة عالمية – البدء في قلوب الطفولة – من التربية القومية إلى التربية العالمية – التدريب على الغضب للمصلحة العالمية – فلنتعهد النواة الصالحة في «هيئة الأمم المتحدة».

مما تقدم يتضح أن رسم نظامٍ كاملٍ لحياة عالَمية سعيدة ، أو وضع تفصيلات لنواحي هذا النظام ، ليس من شأنه أن يعين على قبوله أو كماله . فنحن لذلك أمْيلُ إلى البدء بتقرير أسس وقواعد بسيطة يقوم بعضها على « الامتناع » ومعرفة الواجب وأدائه .

البدء بتقرير قواعد بسيطة

وقد وَضَح كذلك أن النظم المؤيدة للاستعمار والرأسمالية الحديثة قد تطورت من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين بكيفية أحدثت أثرا بالغا في تقسيم الناس إلى أمم مسيطرة مستغِلة ، وأممٍ مغلوبة مسلوبة ، كما فرقت الجماعاتِ في هذه الأمم الغالبة والمغلوبة إلى طوائفَ وطبقاتٍ حاقدة متعادية . وقد أدت هذه النظم دَوْرها في تجارب البشر ، ولا بد لها من التطور لمسايرة عهد السرعة والإنتاج الآلي .

تطور الرأسمالية والاستعمار واجب

فهذا التطور من شأنه أن يمهد السبيل لعهد جديد أساسه الإخاء العام ، وهدفه التعاون على الخير والبر .

* * *

وعالمنا الجديد ، وقد أصبح في حيّز الإمكان الطواف حوله كلِّه في يوم أو ليلة ، واتصلت أطرافه باللاسلكي والراديو في لحظة ، عالمٌ واحد لا تتجزأ السلم فيه ، ولا سبيل لسعادة قوم منه على بؤس الآخرين ، ولا بد له أن ينتهي إلى قبول هيئة عليا لقيادة مشتركة كما قبلت الشعوب هيئات منها لقيادتها ، فتُولَد عندئذ الحكومة العالمية التي نرى فوائدها في نظام « الأمم المتحدة » ، فتكون لها سلطات تنفيذية وتشريعية وقضائية يُقِرُّ الناس شرعيتها كما يقرون شرعية حكوماتهم القومية ، ويَدِينون لها بولاء مماثلٍ لولائهم لدولهم .

عالم واحد لا تجزأ فيه

هيئة عليا عالمية لقيادة مشتركة

* * *

هذه الهيئة العالمية التي تتدرج إلى مقام الحكومة العالمية تقوم على أصول قليلة عامة تستضيء بها في رسم الخطط العامة لسياسة الدنيا . على أن تكون هذه القواعد العامة بسيطة ومقبولة بالفطرة من الناس على مختلف أجناسهم وألوانهم وعقائدهم .

التدرج إلى حكومة عالمية

فمثلا تكون مبادئ المساواة والإخاء بعضَ قواعدها ، فيكون ما ترسم للناس مقيَّدا بحقوق المساواة وحقوق الإخاء .

ومثلا يكون فيها حق العَيْش وتأمين الحاجة حقا طبيعيا يَهْدِفُ إليه الجميع ، كحق الأمن يسعى للمحافظة عليه الجميع ، فيكون إطعام الناس ، وتأمينهم من الخوف واجبا على كل الناس .

مثل هذه القواعد الفطرية ، إذا دُرِّبَ الناس على تقديسها تقديسَهم

البدء في قلوب الطفولة

لأديانهم وأوطانهم ، ولُقِّنوها في طفولتهم وهم في أحضان أمهاتهم وحين تنشئتهم في المدارس ، تنتهي حتما إلى إقامة صرح نظامٍ عالميٍّ عليها ، موطدِ القواعد ثابت الأركان .

من التربية القومية إلى التربية العالمية

وإذا اتفقت جميع الدول في « هيئة الأمم المتحدة » على برنامج للتعليم والتثقيف العام والدعوة ، وجدّت كل دولة في بثّ هذه الأفكار في نفوس الشعوب الخاضعة لسلطانها ، مكّن ذلك « الأممَ المتحدة » من التطور إلى الهيئة العالمية التي نرجو أن يدين لها الناس بالولاء والطاعة .

* * *

إن أثر الدعوات الإنسانية وأثر التربية واضح في تاريخ البشر وضوحا حاسما ومؤثرا في حياتهم . فالدعوات الدينية التي غالبت الدهر وعاشت القرون واستمرت تفعل فعلها في نفوس الناس وفي تكوين الهيئة الاجتماعية ، شاهدٌ على قابلية البشر لقبول الدعوات الإنسانية السامية للتآخي والتعاون . وإن ما حرَّمته هذه الدعوات استقرّت حرمته في نفوس الناس ، فكَبَحت من جموحهم ومن شهواتهم ، وحولت الدوافع والغرائز لتتخذ لمظاهرها أشكالا وألوانا أخرى . فإذا دعونا إلى تحريم الحرب وتمكنت هذه الدعوة من النفوس ، لاستحال تسيير الجيوش للقتال إلا بقدر ما يحدُث من الشذوذ ضدَّ إرادة المجتمع ، من تكوين عصابات من القَتَلَة للسلب ، ويصبح الوجدان الإنساني أشد نفورا في التوجه بالأذى والقتل إلى شخص مجهول له ، أكثرَ من

شعور الفرد العادي حين يهم بجريمة القتل ضد أَحد المارّة .

وهكذا إذا عودنا الناس أن استغلال الآخرين لمصلحتهم ، واستخدام الجاه أو النفوذ أو الحيلة للمنفعة الذاتية يعتبر عملا من أعمال السرقة ، فإن الوجدان البشري ينتهي إلى اعتبار هذا الاستغلال بأنواعه إجراما ، كما يَعْتَبِر السارق الذي يستخدم قوته أو حيلته للسرقة مجرما .

فعلى الدعوة والتربية العامة التي تجعل الناس ينظرون إلى هذه المبادئ البشرية نظرتَهم إلى القواعد التي تعارفوا عليها بالنسبة لأنفسهم كأفراد في أسرة أو وطن ، يتوقف تمهيد السبيل للنظام العالمي الجديد الذي لا بد منه لتطور الحضارة ، ولاجتناب الفناء الذي هيأت أسبابه سيطرةُ الإنسان المتزايدةُ على المادة ، وعلى مجرى الأمور في سلم المجتمع العالمي .

* * *

التدرب على الغضب للمصلحة العالمية

ويجب أن يُعَلَّم الناسُ الغضبَ لأشياءَ عامةٍ ، وفي المصلحة البشرية كما عُلِّموا الغضبَ لأوطانهم وعقائدهم الدينية . فتكون غَيْرتهم وانفعالهم للعدوان على حقوق الغير ، أو للتقصير في عمل الواجب نحو الناس كافَّة ، موجَّهَةً بالغريزة كتوجهها في الماضي للدفاع عن حق الأسرة وشرفِها .

* * *

فلنتعهد النواة الصالحة في هيئة الأمم المتحدة

وأخيرا إن وجود « هيئة الأمم المتحدة » في شكلها الحالي ، ورغم المؤثرات التي رافقت ميلادها يَفْسَح المجال لآمالٍ كبيرة في الاتجاه الذي نشير إليه ؛ فهي نواةٌ صالحة إذا تُعُهِّدَتْ بالاحترام والثقة فيها ، وأدركت الدول أنه لا سبيل إلى التخلّي عنها ، بل اتخذتها محكَمَتَها ومرجعها في كل نزاع ؛ حتى يشعرَ الناس تدريجيًا بضرورتها لسلامة عَيْشهم وأمنهم ، فيضحُّوا عن طِيبِ خاطرٍ في سبيل استمرارها وقدرتها ، كثيرًا من حقوق السيادة التي أظهرت الدول فيما مضى غَيْرَةً قوية على التمسك بها . بل قد يأتي اليوم الذي تضع فيه الدولة من الدول سيادتها وسلطانها تحت تصرف هيئة الأمم المتحدة ، لضمان أمنها أو يُسْرِها ، أو للتغلب على معضلاتها الاقتصادية والاجتماعية .

فعلينا في سبيل هذه الغاية النبيلة أن نصبر ونصابر ونصمم .

ولنحذرْ اليأس ونتعلقْ بأهداب السعي المتواصل لتمكين « الأمم المتحدة » من سد هذا الفراغ في حياة العالم الجديد .

* * *

٦

في النّظام الأساسي للدّولة الإسلاميّة

بعض أسس الدولة الإسلامية
الإمامة الشورى السيادة

دلالة الفقه الاسلامى – المبادىء العامة محدودة وقاطعة – من هم أهل الشورى؟– المجمع عليه في الامامة – تجربة العصور – الاصول المقررة في رياسة الدولة الاسلامية – مفهوم السيادة في الاسلام – صورة لا نظير لها – حدود سلطة الامة – لا سند لما ينقض العدل والحق.

ظهرت في السنوات الاخيرة دول اسلامية مستقلة متعددة في آسيا وافريقية، وظهرت معها وفيها هيئات وأحزاب تريد أن تقيم نظمها على مبادىء الشريعة الاسلامية وأصولها، وتعددت الآراء فيما هو نظام الحكم الاسلامى، وفي كيفية انشاء دساتير تتفق ومقتضيات الاسلام، وتحقق غايات الشريعة المحمدية.

والدول الاسلامية من أقصى المشرق الى أقصى المغرب تشمل أقواما وثقافات وعرفاً وعادات وطرائق للحكم، وتختلف فيها الحاجات باختلاف الأقاليم واختلاف البيئات الاجتماعية وضروراتها، فحكمها بطريقة واحدة أمر عسير؛ لأن استيفاء حاجاتها ومصالحها وسد الذرائع فيها يحتاج لتفصيل واجتهاد يجعلان من العسير أن يفى بحاجاتها دستور موحد ونظام حكم واحد بالمعنى الحديث للدساتير، يحقق الغرض الذى ترمى اليه الشريعة في كل مكان. بل قد يكون أدنى الى تحقيق غرض الشريعة

المحمدية أن تتعدد أشكال الدساتير ونظم الحكم على أساس أن تسودها المبادىء العامة للشريعة الاسلامية وأصول الآداب والأخلاق التى جاءت بها رسالة الاسلام واهتدى بها البشر من أقدم العصور، لأن اختلاف القوانين المنظمة للشئون العامة قد يكون في ذاته ضرورة محققة لأغراض الشريعة ولمصالح المسلمين في مختلف ظروفهم، وأدعى لتحقيق المصلحة، من الاصرار على دستور موحد شامل يطبق في كل مكان.

دلالة الفقه الاسلامى

ولعل الفقه الاسلامي في نشوئه وتطوره وتعدد آراء المجتهدين فيه متأثرين قطعا بظروف البيئة وظروف الزمن، هو الهادى الى ما نظنه الصواب في هذا النظر.

فالدساتير الاسلامية التي يطالب بها الاندونيسيون أو الباكستانيون أو المصريون أو غيرهم من الأمم الاسلامية، يمكن أن تكون في جوهرها متفقة متقاربة، وإن اختلفت في فروعها وتفصيلاتها وما يتفرع من ذلك من قوانين ومراسيم واجراءات تقتضيها المصلحة وتسد بها الذرائع.

وعليه، فما هو هذا الدستور أو هذا النظام الاسلامي الذى يوحد بين المسلمين من غير أن يعوق التطور التشريعى والاجتماعي وفق مقتضيات العدل والمصلحة في مكان ما أو زمان ما؟؟

المبادىء العامة محددة وقاطعة

اذا نظرنا في الكتاب والسنة وتاريخ المسلمين في أيام خلفائهم الراشدين نجد أن الاسلام محدد قاطع في كل ما هو من المبادىء العامة الصالحة لكل زمان ومكان وقوم، فاذا كان الأمر تنفيذا لهذا المبدأ واقامة

لأصل من أصول الاسلام، تجلت مرونة الشريعة الاسلامية وتفويضها لعقولنا واجتهادنا، وصارت الشريعة وكأنها تشير الى هدى النبي صلى الله عليه وسلم في قوله « أنتم أعلم بأمور دنياكم » فينفسح مجال الرأي ويكون الفضل بالنسبة للصواب أو عدمه لحكم العقل والتجربة الهاديين الى المصلحة العامة والمتجنبين للضرر.

ولعل ذلك هو فضل الاسلام الذي يجعل منه شريعة خالدة للناس جميعا ويحقق قوله تعالى « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » اذ لو كان الاسلام غير ذلك ما كان دينا يسرا، ولضاق بالناس في مختلف أزمانهم وأوطانهم وحاجاتهم المتغيرة. فوضوح الاسلام في الأصول العامة ومبادىء الأخلاق السامية وتركه الكثير من الأمور للرأى والاجتهاد لم يكن سببا للضعف في شريعته، بل سببا لاستمرار الحياة والخلود لهذه الشريعة وعظمة الفقه فيها.

* * *

في الشورى

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة: كره الاسلام أن تقوم الدولة على السيطرة والجبروت من شخص أو جماعة، وأرادها أن تقوم على الرضا والتعاون، فأمر بالشورى فقال « لست عليهم بمسيطر » «وشاورهم في الأمر » « وأمرهم شورى بينهم » فجعل الشورى مبدأ عاما لا مفر من اقراره واعتباره في كل دولة أو جماعة اسلامية في أي مكان وأى زمان وأى قوم. وقد دلت تجارب البشر على اضطراد هذا المبدأ ونفعه، ولكنه لم يرد أن يشق علينا بتعيين نظام واحد لهذه الشورى أو تعديد صور له لنختار منها ما يقتضيه المكان والزمان، فترك لنا الاختيار والتنظيم للشورى معتمدا في ذلك على اخلاصنا لديننا واخلاصنا لأنفسنا، وعلى أن الأعمال بالنيات وأن لكل امرىء ما نوى، ولنقرر في حدود هذا الأصل أشكال هذه الشورى وكيفياتها وفق حاجاتنا كي نكفل للأمة الاستقرار والرضا العام. ولذلك نجد كبار الصحابة ومن بعدهم من التابعين والأئمة والفقهاء قد اجتهدوا في هذا الأمر وتركوا لنا آثارهم فتعدد الرأى في كيفيات الشورى: —

١ — فنجدها مرة بعرض الأمر على العامة في المسجد أو الخاصة في ندوة.

٢ — ونجدها مرة ثانية بدعوة لعدد من كبار الصحابة لتبادل الرأى.

٣ — ونجدها ثالثة بعرض الأمر على من حضر من أهل الرأى والمقام

في ظرف معين.

٤ - ونجدها رابعة مقتصرة على واحد أو أكثر يختارهم الامام ويثق في سداد رأيهم ويشعر بمشاركة العامة اياه في ذلك.

وهكذا كان المعول في الأمر كله على حسن نية ولاة الأمر ومراعاتهم لأمر الله سبحانه وتعالى في الشورى وخشيتهم له فأدوها بالكيفية التى تطمئن لها نفوسهم حسب مقتضيات الظروف والأحوال.

من هم أهل الشورى؟

وقد اصطلح المسلمون على أن أهل الشورى هم جماعة من أهل الحل والعقد « وأهل الحل والعقد » هم من اذا أبرموا وعقدوا أمرا أبرمه الناس، واذا نقضوه وحلوه نقضه الناس.

فلو علمنا من هم أهل الحل والعقد الذين اذا قالوا قال الناس، واذا رأوا رأيا تبعهم الناس لكان فيهم كل الكفاية للحصول برضائهم على الرضا العام ومثلت الأمة خير تمثيل، ولكن المشكل الذى ظهر في مدى العصور الاسلامية هو الاتفاق أولا على من هم أهل الحل والعقد الذين تنعقد بهم مثلا البيعة للامام، وثانيا على كيفية اختيارهم، ولذلك تعدد الرأي، فحصرهم البعض في العلماء، والبعض في العلماء وغيرهم من المتبوعين في أقوامهم، والبعض فيمن تتوفر فيهم صفات الاجتهاد من العلماء.

والواقع ان تعيين أهل الحل والعقد ليس أمرا هينا، فهم في المدينة غيرهم في البادية، وهم في الريف غيرهم في العواصم ومراكز الاكتظاظ والصناعة، وهم في عصر من العصور العلماء المتبوعين، وفي غيره المتغلبون

النافذون في العشائر والأوطان والممالك، وفي عصرنا قد يكونون بين رؤساء الأحزاب والطوائف والنقابات وغيرهم.

وهكذا يختلف النظر بالنسبة لأشخاصهم وبالنسبة لاختيارهم وتعيينهم باختلاف الأقوام والعرف والعادات والأزمان، ليكونوا أهل الرأى في البيعة، وأهل الشورى في كل حين.

ولذلك نظن أن الدستور الذى يوضع لتمكين أهل الحل والعقد من ابداء الرأى، وتمكين الامام ورئيس الدولة الاسلامية من اختيارهم واستشارتهم يتغير بتغير ما أشرنا اليه. وقد يكون في دستور أية دولة من الدول الاسلامية غيره في دستور دولة أخرى.

هذا مثل قد يوضح في أذهاننا ما هو موضع الرأى وما هو موضع التقليد فيما نختار من النظم والدساتير لتكون موافقة للشريعة الاسلامية وأغراضها..

* * *

في الإمامة

ومثل آخر هو: مسألة الامامة واختيار رئيس الدولة، وما يجب أن يتوفر في الامام من شروط، وما له وما عليه من واجبات، ففي هذا أيضاً نجد الشريعة الاسلامية واضحة فيما هو ثابت ومستمر من أمر الامام والامامة، وتاركة للرأى والاجتهاد والمصلحة ما هو متغير وغير ثابت وتقتضى المصلحة فيه هذا التغيير وعدم الاستمرار.

المجمع عليه في الامامة

فمنذ اجتماع المسلمين في " سقيفة بنى ساعدة " عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم والبيعة لأبي بكر رضى الله عنه وموضوع الامامة محل خلاف بين المسلمين، تعددت فيه الآراء والمذاهب. وان اجتمعت الأكثرية العظمى على رأى أهل السنة فان هذا الاجتماع لا يخلو كذلك من خلاف على تفصيلات كثيرة. ويمكن القول بأن المسلمين لم يجتمعوا الا على أمر واحد: هو وجوب الامامة منعا للفوضى واقامة لحدود الله.

وليس القصد هنا تناول هذا الموضوع من الناحية النظرية، ومناقشة المذاهب والآراء التى لا تزال ممثلة في طوائف كثيرة من أهل السنة والشيعة والاباضية، وانما القصد هو الاشارة الى هذا الخلاف ليتبين للناس اتجاه الشريعة الاسلامية ببيان المفروض والمتروك لهم، ليقرروا بشأنه ما يشاءون وفق المصلحة وحسب مقتضيات معاشهم وزمانهم وأوطانهم.

فاذا تتبعنا ما اختلفوا فيه نجده قد تناول الكثير من أمر الامامة، حتى اللقب

نفسه، فسمى المسلمون رئيس الدولة خليفة، كماسموه أمير المؤمنين، واماما وسلطانا

وقد بلغ الخلاف في الموضوع أنه لما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم واجتمع الناس في السقيفة لم يكن الأمر واضحا لهم، حتى قال الأنصار: « منا أمير ومنكم أمير » وقال المهاجرون « منا الأمراء ومنكم الوزراء » أى قال قوم بوحدة الامام وآخرون بتعدده. ثم اجتمع الرأى باختيار أبي بكر لفضله، ولأنه لا تتطاول اليه الأعناق كما قال عمر رضى الله عنه. ولا يعنينا هنا أن نخوض في أصل وجوب الامامة وكونه عقليا أو شرعيا وغير هذا، ما دام المسلمون قد فصلوا في ذلك الوجوب باجماع الصحابة، ومارسوا الأمر، ثم اجتهدوا فيما يجب للامام وما عليه لاقامته وتمكينه من حراسة مصالحهم الدينية والدنيوية، في مجتمع ولد نتيجة للدعوة والارشاد والكفاح المحمدي على أسس جديدة غير مألوفة في ذلك العصر، فهو مجتمع متكافل متكامل، الناس فيه عيال الله، وأكرمهم أتقاهم، وهم سواسية كأسنان المشط، وليس لأحد عليهم سلطان الا بقانون مرجعه الشرع الاسلامى، فهو بذلك مجتمع جديد في عصره وفي عالم كان يقتسمه قيصر وكسرى كارباب من دون الله.

في هذا المجتمع نشأت الامامة، وسادت الشريعة واستقرت مبادىء وأصول ونظم لها كل القداسة، وهي بذلك الدستور الدائم للمسلمين الذى لايوهب ولايسلب، تتعين فيه الحقوق والواجبات العامة للجميع، ولا تملك قوة في الارض، حتى الأمة نفسها، له تغييرا أوتبديلا، ففيها الامامة مثلا امانة

والأمين عليها يتصرف في حدود الأصول العامة للشريعة وفق مصلحة الكافة.

والامامة كنظام اسلامي فريد غير مسبوق، لا تؤتى أحسن ثمارها الا في أمة صالحة، ينظم أمورها وفق الشريعة دستور واضح، يتطور بارادة الأمة وفي حدود الشريعة لتجلب به المصالح وتسد الذرائع.

تجربة العصور

وقد دلت تجربة العصور على أنه اذا فسدت الأمة، واذا فشا فيها الجور فلم يقف الناس عند حدود الشريعة، فسد الأمر كله، فضاع حق الراعى وحق الرعية، وكثرت الفتن وانطوت سيادة القانون، فلا بد لاتقاء هذا من نظام ودستور اسلامي ترضاه الكافة، ويكون حدود الله بين الناس، فيه ما هو ثابت خالد من الأصول، وما هو متغير وفقا للمصلحة من الفروع، لأن الشريعة تركت لنا الاختيار والاجتهاد في شأنه وفي صوره وأشكاله وما يتفرع عن ذلك من المسائل لدوام الأمن والرضا والعيش الكريم.

الاصول المقررة في رياسة الدولة الاسلامية

وأخيراً وبعد مراجعة الكثير من آراء الأئمة وفقهاء المسلمين في مختلف مذاهبهم، ومتابعة التاريخ الاسلامي، أشعر أن الشريعة الاسلامية لم تقرر لحكمة سامية في أمر رياسة الدولة الا بعض أصول قليلة: كاقامة الامام، وأن يكون بالغا، عاقلا، مرضيا عنه من الأمة مستعينا بصالحيها، مشاورا لأهل الحل والعقد فيها، وأن يكون بعد ذلك حارسا على مصالح المسلمين مقيما لشريعتهم. وينتقض أمره بمخالفته أوامر الله ومصالح المسلمين. وأظن أنه فيما عدا هذه الأصول القليلة قد ترك للناس أن يجتهدوا ويضعوا من النظم ما يصلح أمورهم، ليتناسب ذلك مع دعوة الاسلام العامة وأن هذا الدين للناس كافة.

في سيادة الأمة

ومثل ثالث: هو أمر « سيادة الأمة » وكونها مصدر السلطات بالمعنى المتعارف عليه في هذا العصر. فللاسلام في هذا منهج غير نهج الدساتير الحديثة.

ان الاسلام دين عام، لا يتقيد في أصول العقائد والآداب والأخلاق والمبادىء والحقوق بالأوطان الخاصة ولا بنعرات الجنسيات والقوميات والألوان، ولهذا فالسيادة عنده للشريعة: أي لتلك الأصول التى قامت عليها دعوته، وليس للأمة مجتمعة أو متفرقة، متفقة مع رئيس الدولة أو مختلفة، ممثلة في برلمان أو في هيئة تأسيسية أو غير ممثلة، أن تتصرف فيما جعله الله حقا أو واجبا للأفراد أو للجماعات في وطن ما أو للناس كافة في الدنيا كلها.. اذ لهذه الأصول وحدها القائمة على ما شرع الله من حقوق وواجبات عامة للانسان، السيادة والخلود، لأنها دائمة بارادة الله لا غيره. وهذا أصل اسلامي عظيم يجب دائما أن لا يغيب عن أذهان الباحثين الاسلاميين، وأن ينوه به في هذا العصر خاصة ويعلن عنه، لأنه جعل من رابطة الانسانية رابطة أعلى من الروابط العنصرية والوطنية، وجعل من الحقوق البشرية ما يسمو على السيادة أو المصلحة القومية.

مفهوم السيادة في الاسلام

فالسيادة بمعناها العصرى عند الآخرين أو مقلديهم من المسلمين

غيرها في النظام الاسلامي، فهي فيه مكونة من عدة قوى يجتمع بها سلطانها: هي الشريعة، والأمة، والامام حارس الشريعة ومختار الأمة، ولذلك يسمو النظام الاسلامي على ما عداه، فهو يكفل أصول المبادىء الأخلاقية العامة، وأسس العدل العام والمساواة بين الخلق والاخاء البشرى، فيقيم الحقوق والواجبات البشرية على قواعد الشمول والخلود بأمر الله تعالى وارادته، فيقطع بذلك السبيل على الهوى والتعصب والتحزب، اذ ليس للأمة ولا للملوك ولا للرؤساء ولا للعامة سبيل الى نقض حقوق الانسان وواجباته بدعوى حرية الأمة وسيادتها في وطنها.

فمفهوم السيادة في الشريعة الاسلامية غير مفهوم السيادة الشعبية في دساتير الأقوام الأخرى ودساتيرنا المنقولة عنها، اذ هي لا تتحقق كما قدمنا الا باجتماع العناصر الثلاثة التى ذكرناها: الشريعة الاسلامية، والأمة ممثلة في أهل الحل والعقد، والامام المختار ففيهم مجتمعين السلطان الذى يسمى حق السيادة Sovereignty وقد كانت قديما للملوك وصارت حديثا للشعوب.

صورة لا نظير لها

وهذه الصورة الاسلامية للسيادة مانعة من الهوى والتردى في مزالق الرأى، وهي ضمان للحقوق والواجبات الانسانية لا نظير له في مذاهب الأمم السابقة واللاحقة للاسلام.

* * *

والتعبير عن هذه السلطة لا يتأتى بارادة واحدة كما يحدث، باسم الشعب مثلا في حزب الأكثرية، أو باسم الملك، أو باسم الدكتاتورية شيوعية أو غير شيوعية، بل لا بد للتعبير عن هذه السلطة من اجتماع ارادة الله: أي شرعه، وارادة الدولة: أي الأمة والحكومة فمن هذه الارادات الثلاث تنتظم الحقوق والواجبات في جميع الأوطان والأزمان.

فمثلا اذا قالت الشريعة « ان الله يأمر بالعدل والاحسان ». « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ». « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم أو الوالدين والاقربين » لم تستطع الأمة ولا الامامة ولا هما مجتمعين أن يتجاوزوا ما أرادته الشريعة من عدل وانصاف، ولو كان ذلك باسم سيادة الأمة وحقها في تقرير مصائرها.

حدود سلطة الامة

واذا لا تكون الأمة مصدر السلطات بمعنى أنها طليقة تفعل بنفسها ووطنها أو غيره ما تشاء، فهذه المشيئة محدودة بمبادىء الأخلاق العامة ومبادىء العدل وحقوق الانسان وواجباته كما أرادها الله.

أما أن للامة أن تكيف نظمها وتضع القوانين والدساتير في حدود هذه السيادة المشتركة، فأمر لها فيه كامل الحرية، فهي سيدة في كل ما لا تجده ارادة عليا هي ارادة الله مصدر الوجود، الذى استخلف الانسان في الأرض، وحمله أمانة الحكم، وجعل هذه الخلافة تقصد الى العدل والحق « ياداود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله. ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم

عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ».

نعم ان الأمة مصدر السلطات، وليس للملوك ولا للرؤساء من أى نوع كانوا في الشريعة الاسلامية من الأمر الا ما تريده الأمة، فهى التى تقيم الدولة، وهي التى تنظمها، وهي التى تختار أولياء الأمر فيها، وهي التى تقدر مصالحها وتدرأ مفاسدها، فهي في هذا كله مصدر للسلطات: تلك السلطات التى يحدها ويحيط بها نطاق الشريعة الاسلامية.

ومن هذا المثل أيضا في أمر السيادة يتضح بعض ما له صفة الخلود، وبعض ما هو مقيد بارادتنا ومتغير بمشيئتنا واختيارنا من الأشخاص والقوانين والنظم والدساتير.

لا سند لما ينقض العدل والحق

وسيادة الشريعة فيما هو متعلق بأوامر الله لا تنقض برأى فرد ولا جماعة ولا قوة. وكل رأى أو قوة تحول بين الناس وبين العدل والحق كما جاء بهما الاسلام، لا مبرر له ولا سند من الدين الاسلامي، ولو كان له سندا من السلطان والأمة. فليس للأمة أن تتجاوز مصالح الناس في أوطان أخرى، وأن تفعل بقوانينها وشرائعها ما تشاء، أو أن للأغلبية فيها أن تشرع وأن تتصرف بظلم في حقوق الأفراد والجماعات بما يقتضيه رأيها باعتبارها معبرة عن الارادة العامة للأمة في زمان ما.. فهذه الصورة التى في أذهان المعاصرين من الشعوب الاسلامية وغير الاسلامية، والتى توحى بحرية التصرف الكامل طبق المصلحة الوطنية ليست صحيحة من الوجهة الاسلامية النظرية، فان الاسلام قد جاء بشريعة للناس

كافة، ولا يتقيد بما يسمى المصلحة الوطنية اذا كانت هذه المصلحة تتعارض مع مصلحة الناس كافة، وأن تكون بها « أمة هي أربى من أمة » اذ قصده للخير العام يجب ما قد يبدو من خير خاص. وهنا يتخصص ويتقيد الحق الناشيء من دعوى « السيادة الشعبية » كما يقول به فقهاء الدساتير الحديثة الديمقراطية، بالحق العام للناس كافة كما يقرره الاسلام.

(وبعد) فهذه أمثلة ثلاثة قدمتها في الحديث عن النظم الأساسية للدولة الاسلامية، وهي الشورى، ورياسة الدولة، وسيادة الأمة، وهي الأصول الكبرى التى تقوم على بيانها وبيان التفريع عليها الدساتير. وقد قدمها الاسلام وتاريخه وآراء فقهائه، واضحة محددة فيما هو ثابت خالد، ومتغيرة مرنة فيما يحسن فيه التغيير والتطور والمرونة.

وأني لأرجو أن أكون في هذا الفصل الموجز قد حفزت همم العلماء والفقهاء وأهل الرأى لاستقصاء البحث والتوسع فيه، اذ كل قصدى، وقد أخذ الناس في كل أقطار المسلمين يتحدثون فيما هو نظام الحكم الاسلامي والدستور الذى يبين هذا النظام، لا يكلفهم شططا، وأن صور الدساتير الاسلامية قد تتعدد جلبا للمصلحة ودفعا للمضرة ما دامت في حدود الأصول الاسلامية الخالدة.

فما دام المسلمون في أي قطر من أقطارهم أو دولة من دولهم، يعملون بنية خالصة محترمين شرعهم ومقيمين نظما دستورية تتناسب مع أحوالهم، فانهم يحدثون بذلك نظما اسلامية هي خير لهم من تلك التى يقلدون

فيها ما يسمى بالديمقراطيات الشيوعية أو الديمقراطيات الرأسمالية.
فيكونون بذلك أمة الوسط كما سماهم القرآن ويوفقون الى حل ما استعصى على غيرهم، ويجمعون بين حاجات الروح وحاجات البدن، معطلين الحضارة والحياة الانسانية السندين الذين لا بد منهما للسلم والاستقرار والرخاء، اذ ليس الانسان حيوانا ليكون كل همه في بطنه، ولا ملكا ليكون كل أمره في روحه. وقد امتازت الرسالة الاسلامية باختيار الوسط من الأمور، فأخذت في الاعتبار حاجات الروح والبدن الدائمة وسنت لها أصولا خالدة لا سبيل الى نقضها، وتركت الفروع تتغير طبق المصلحة المتغيرة في الدنيا، وقد نظرت في المصلحة العامة للانسانية كلها ولم تغلب عليها أية مصلحة قد تدعيها أمة لنفسها، وجعلت السلطة التى تنشىء الحقوق والواجبات الفرعية مقيدة أولاً باجتماع العناصر الثلاثة التى أشرنا اليها وضرورة موافقتها للمبادىء العامة الانسانية التى يجب أن يتضمنها أي نظام اسلامي. وقد نهت الأمم كافة عن السعى الى أن تكون مصلحة أمة أربى وأكثر من مصلحة أمة أخرى، وفى هذا يقول القرآن الكريم « وكذلك جعلناكم أمةً وسَطًا لتكونوا شهداءَ على الناسِ ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدا ».

* * *

٧

في انتشار الدّعوة

انتشار الدّعوة في الوثنيّين

شهرة باطلة – خلط بين انتشار الدعوة وامتداد الدولة – فتح مكة بجيش المستضعفين المطرودين – الدعوة السرية والجهرية – الدفاع عن النفس مشروع – الموقف في الحديبية يشهد – تاريخ الدعوة هو تاريخ الصبر والمقاومة – الموقف في خارج الجزيرة – رواية الكولونيل «فردريك بيك» – فتنة واعتداء – مع الروم في شرق الأردن «مؤته» – دليل فذ من أدلة التسامح الإسلامي – فتح مكة – لم يكن مفر من تحكيم السيف في فتحها – الغرض من فتحها – صورة من التسامح المحمدي – دليل على انهيار النظام الجاهلي – الفتح السلمي قبل الفتح الحربي – دليل من إسلام أبي سفيان زعيم المشركين – الوفود تتوالى من الجزيرة على الرسول باختيارها – الخدمة الوحيدة التي أداها السيف للإسلام – أيباع الدين بدراهم معدودات ! – ما بعث الله محمدًا جابيًا – قصة تكشف عن روح عصرها.

شهرة باطلة

استقرّ في أذهانِ كثيرٍ من الناس ، المسلمين وغيرِهم ، أن الدعوة المحمدية ظهرت وانتشرت تحت ظلالِ السيوفِ ، وأن القبائلَ التي حملت كتابَ الله في رِقابها حملَت سيوفَ الحقِّ في أيديها ، وانطلقت للمغربِ والمشرقِ ، فحكَّمَتْ السيفَ حتى دان الناسُ للكتابِ المعلَّقِ في الرقابِ . وليس أبعَدَ من الصواب ولا أدّلَّ على البحث السطحيّ المعتلّ من هذا الظن ! لهذا يحسُن أن نتناولَ هذا الأمر بشيءٍ من الإفاضة وتَتَبُّعِ انتشار الدعوة في العصورِ المختلفة ، ليستقرَّ الحق في نصابه ، ويتبين الرُّشد من الغيّ . ولعل ذيوعَ هذه الفكرة الخاطئة عن انتشارِ الدعوة المحمديةِ بالسيف جاء من اقترانِ ظهورِها خارجَ الجزيرةِ

العربيةِ بظهورِ الدولةِ الإسلاميةِ ، وامتزاج تاريخ الفتوحات السياسية والدوْلِيَّةِ بتاريخِ الفتحِ الدينيِّ ، مما جعل الناس يخلِطُون بين دخول الأقوام في الإيمان وقبولِهم لرسالةِ التوحيدِ وبين خضوعِهم لسلطان الأمة الجديدة التي كانت السابقةَ إلى قبولِ الرسالة المحمدية .

خلط بين انتشار الدعوة وامتداد الدولة

وقد نَسِيَ الناس أن الفتح المحمديَّ لمكةَ وغيرها ، إنما كان بجيشٍ قِوامهُ آلافُ المستضعَفين المهتدين قبل هذا الفتحِ ، ممن أسلموا سرًّا واضْطُهِدُوا جهرًا ، وهَاجَرُوا من أوطانهم قهرًا ، وعَبَرُوا البحرَ مرتين لاجئين إلى الحبشة ، وفرُّوا إلى المدينةِ ، واحتَموْا في جوار كل ذي حَوْل أو طَوْلٍ .

فتح مكة بجيش المطرودين

دعا محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، أولَ ما دعا إلى الإسلام ، آلَ بَيْته ، فمنْهم من آمنَ ، ومنهم من عَصَى . دعا سِرا فدخل في دعوته من أشرافِ القومِ وصناديدِ الجاهليةِ ، كما دخل جماعةٌ من المستضعقين والعبيدِ ، ولم يستطعْ هؤلاء وهؤلاء أن يَحْمُوا رسولَهم ، وألجأَتْه قريش إلى قبول النفي الاختياريِّ مع آله في الشّعب حيث بَقُوا حِقْبةً من الزمنِ مقاطَعين منبوذين من أهلِ مكةَ وأحابيشها وأشياعها من ثَقيفٍ وغيرها ، ثم خرج من هذا الحصارِ ، وقد فقد زوجَه وعمه ، وأخذ يَعْرِضُ نفسه على القبائلِ ، ورجع مَهِيضَ الجناح من « الطائفِ » ولم يستطعْ دخولَ بلدهِ إلا في حمايةِ المُطْعِمِ بنِ عَدِيّ من كفارِ قريشٍ ، وقد أجارَه نخوةً ومروءة .

الدعوة السرية والجهرية

وما زال يدعو سرا وجهرا ، وينالُ أصنافَ الأذى في نفسِه وأتباعه ، حتى لَقِيَ أهلَ البَيْعةِ الأُولى من شبانِ المدينةِ في موسمِ الحجِّ ، فحبَّبُوا إليه الهجرةَ إلى وطنهم . ففرّ من الموتِ إلى أحضانِ « يثربَ » المواليةِ ، ولم يترکْه خصومه في ملجئه . فلما بسطوا أيديَ الشرّ إلى أطراف الواحةِ التي نزل بها ، خرج إليهم والتقى بهم في « بدرٍ » وقد أُذِنَ له بالقتالِ بهذه الآية الجليلة « أُذِنَ للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلِموا وإنَّ اللهَ على نصرِهم لَقدير . الذين أُخرِجُوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربُّنا اللهُ ، ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لهُدِّمت صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكَرُ فيها اسمُ اللهِ كثيرًا ، ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ من يَنصُره إن اللهَ لقويٌّ عزيزٌ . الذين إن مكَّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ وأمروا بالمعروفِ ونهَوْا عن المنكر » .

والآية في صراحتها وبساطتها وتعليليها للإذن بالقتال ، وتحديدها الغرضَ منه ، وفي سياقِها كلِّه ، واضحةٌ في تصوير الحالة تصويرًا ينافي تماما ما عَلِق في أذهان كثيرة من صورةِ الكتابِ والسيفِ متلازمين.

استمر الرسولُ قبل واقعة بدر خمسَ عشرةَ سنة يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويصبرُ على الظلم ؛ فلما لم يَبْق إلا الدفاعُ عن النفس بالقوة ، جاء إذن الله ، ووقعت الواقعة في بدر ، وأذلَّ المستضعَفون الجبابرةَ ، وضَمَّ جوفُ القليبِ[1] من فحولِ قريشٍ من كانوا على مرّ

(١) البئر التي دفنت فيها جثث قتلى بدر من المشركين.

السنين ينوّعون وسائلَ التعذيبِ للذين يدخلون في دين الله إيمانا واحتسابا .

الموقف في الحديبية يشهد

ومع ذلك فقد رجع الرسولُ إلى المدينة صابرًا داعيًا ، فلم تصبِرْ قريش ومن معها ، وعادُوا لمهاجمته في نفس المدينة . ولما كانت « الحُدَيْبية » اغتنم الرسول الفرصة للهدنة ، ورَضِيَ بشروط لم يكن ليرضاها لو كان عمادُ دعوته السيفَ ، فإن تلك الشروطَ لم تُرْضِ حَمَلَةَ السيوف من أنصارِه ، واعتبرُوها هَوانًا ولَمَّا يقاتلوا ولما يُغْلَبُوا . ولكنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم أن دعوته إنما يمنعها من الانتشار السيفُ ، ولا يبسطُها في الناس سيفٌ ، فإذا هو هادَنَ وسالَمَ غلَبَ ، وذلك ما كان : فقد كانت هدنة « الحديبية » فتحا ، وكان هذا العَقْدُ الظاهرُ الغَبْنِ الذي عُقِدَ للحصولِ على السلمِ بِشرائطَ تبدو مُذِلّةً ، سببًا لانتشار الدعوة ، وقد نزلت سورة الفتح بعد الحديبية ، وتحققت الآيةُ ، ودخل الناسُ في أيام الهدنة أفواجا في دين الله الذي قام بالدعوة ، والذي أُحِلَّ فيه القتالُ لحرية هذه الدعوة ولا شيءَ غيرُها .

تاريخ الدعوة هو تاريخ الصبر والمقاومة

فتاريخُ الدعوة في الجزيرة العربية هو تاريخ المسلمين الصابرين . وكل تَعَقُّب لتفصيلات التاريخ الإسلامي يكشف لنا عن هذه الحقيقة ، ويؤيد عمل النبي . ويحقق قوله تعالى « لا إكراهَ في الدينِ قد تبين الرُّشدُ مِن الغيِّ » وقولَه تعالى . « أفأنت تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين ! » وقولَه « من يَهْدِ اللهُ فهو المهتدِ ، ومن يضللْ فلن تجدَ لــه وليًّا مُرشدا » .

الموقف في خارج الجزيرة

قد يقولُ بعضُ الناسِ : إذا كان هذا شأنَ الرسول في مكة والمدينةِ ، يصبرُ على الأذى ويرجِّح السلمَ حتى بشروط لم تُرْضِ أنصاره ، فما الذي دعاه للخروج من قلب الجزيرة العربية ، وسَوْقِ الجيوش لقتال الرومان في سورية ؟ أليس الرغبةَ في تحكيم السيف ؟

رواية الكولونيل بيك

ذلك ما قد يظنه بعض من لا يعرفون كيف ابتدأت الحربُ بين النبيّ والروم وأنصارهم من العرب . وإليكم رواية الكولونيل «فريدريك بيك » في مؤلَّفِه الحديث « تاريخ شرق الأردن وقبائلها » ، وقد اعتمد الكولونيل بيك على مراجعَ محترمة من كتب المسلمين وغيرهم ، وأشار إليها في كتابِه . قال في صحيفة ٨٥ « في عام ٦٢٧ – ٦٢٨ م « ٦ هـ » استشهد أولُ مسلم في شرق الأردن بسبب إسلامِه : ذلك أن فَروةَ بن عُمَر الجذامي عاملَ الرومِ على « عمّان » – وفي رواية ابن هشام على معان – كان قد اعتنق الدين الإسلاميَّ ، وأرسل مع مسعود ابنِ سعدٍ الجُذامى بغلًا أشهبَ وفرَسا وحِمارا وأقمصةً كتّانيةً وعباءة حريرية هدية للنبي . ولما بلغ الرومانَ ذلك حاولوا عبثا إقناع فروة ليرتد عن إسلامه فأبى . فما كان منهم إلا أن سجنوه ، ثم صلَبُوه على ماء يقال له « عفري » بفلسطين .

فتنة واعتداء

وفي تموز « يوليو » عام ٦٢٩ م « ٨ هـ » أوفد النبيُّ كتيبةً من خمسةَ عشرَ رجلا إلى حدود شرق الأردن ، ليدعُوا الناس إلى الدين الحنيف ، وليستطلعوا أخبارَ الروم وحوادثَهم ، فخرج عليهم جمع غفيرٌ في مكان

يقال له « طلة » بين الكرك والطفيلة ، وقتلوهم كلَّهم إلا واحدًا لاذ بالفِرار .

وبنفس الوقت أرسل النبيُّ رسولا اسمه الحارث بن عُمَيْرٍ إلى أمير غسان في سوريا يدعوه إلى الإسلام ، فقبض عليه شُرَحْبِيلُ بنُ عَمْرو سيدُ « مؤته » ، وهي قرية بجوار الكرك وقتله .

تجمع وتهديد

وحواليْ هذا الزمنِ أيضا وصلت رسلُ النبيِّ من الشمالِ تحمل أخبار الاستعدادات الحربية على تخوم الولايات الرومانية ، ووجود « هرقل » وجيشِهِ في الكرك مع حلفائه من بهراء وجُذام وبَليّ والبلقاوية .

كل هذه الأسباب جعلت النبيَّ يَعْقِدْ النية على بعث حَمْلَةٍ إلى جنوبِ شرق الأردن ليقتصَّ من قَتَلَة الحارث ، وليختبر قوة أعدائه واستعدادَهم ، وليَعرفَ أسباب تجمعهم على الحدود الجنوبية .

مع الروم في شرق الأردن « مؤتة »

وفي أيلول « سبتمبر » عام ٦٢٩ م « ٨ هـ » جمع النبيُّ ثلاثةَ آلاف مقاتل في « الجَوْف » قربَ المدينةِ ليسيرهم نحو سورية وأمَّر عليهم زيد بن حارثة « فإن أصابه قَدَرٌ فالأميرُ جعفرُ بنُ أبي طالب ، فإن أصابه قَدَرٌ فالأمير عبدالله بن رواحةَ على الناس ، فإن أصيب فليرتضِ المسلمون برجل من بينهم يجعلونه أميرا عليهم » .

فمضى الجيشُ حتى إذا كان بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من روم وعرب ، واقتتل الفريقان في قرية « مؤتة » بجوار الكرك .

استبسل المسلمون في هذه المعركة ، بالرغم من قلّة عددِهم بالنسبةِ

لعدوهم ، فلما استشهد أميرُهم زيدُ بنُ حارثة تولى جعفرٌ « كما وصاهم النبي » فقطعت يمناه ، وكان بها اللواءُ ، فأخذه بشماله ، فقُطعت ، فاحتضنه بعضُدَيْه حتى قُتِل ، وكان فيه نحو خمسين جُرحا . فلما نُمِيَ ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : أثابه اللهُ بجناحينِ في الجنة يطيرُ بهما حيث شاء » فأصبح يُعَرف فيما بعدُ بجعفر الطيّار .

وبعد جعفر أخذ الرايةَ عبداللهِ بن رَوَاحةَ ، فقاتل حتى قُتِل ، وتولى خالد ابن الوليد وانسحب بالجيش إلى المدينة .

تلك روايةُ الكولونيل « بيك » عن كيفية وقوع الحرب بين النبي والروم . وهي واضحةٌ في أن الروم صلَبوا « فروة » لما أبى أن يرتَّدَّ . وهي واضحة كذلك في بيان الاضطهاد والغَيْرة التي استولت على أفكارهم وأعمالهم . ولا مجال للشك في أن الرومَ وأنصارَهم من العرب لما أخذتهم العزة والخوف من الدعوة السلمية ، لجأوا إلى العنف ، بل إلى القسوة والغدر ، ولم يكن بدٌّ لصاحب الدعوة من أن يدفع الشرَّ عنها ، ويقاتلَ في سبيل حريتها .

دليل فذ من أدلة التسامح الإسلامي

ومما يرويه المؤرخُ المذكور أيضًا أن أسرة مسيحيةً تدعى « العزيزات » كانت تعيشُ في مؤتة ، فلما قدم الجيش الإسلاميُّ خرج أخَوانِ من هذه الأسرة للقائه ، وفتحا أبواب القرية ، وقدّما له الطعامَ والشرابَ ، ثم اعتنق أحدُهما الإسلام وبقِيَ الآخرُ على نصرانيته ، فأمر النبي ألّا يُستوفَى منهما ولا من أعقابهما جزيةٌ ولا خَراجٌ . وظل أمر النبي نافذًا

مدة ألف وثلاثمائة سنة. وقد أخذت الحكومة التركية تحصِّلُ منهم الأموالَ الأميرية بعد سنة ١٩١١ فقط، لما ثار أهلُ الكرك. والعزيزات يقطنون اليوم «ماديا» وهم من أقوى العشائر.

ومغزى هذه الحادثة واضحٌ؛ فقد أمر النبي ألّا تؤخذ جزية ولا خراج من بعض المسيحيين وأعقابهم، لأنهم أحسنوا لِقاءَ جنوده، واحترم المسلمون هذه الرغبةَ مئاتِ السنين. وهي في ذاتها دليلُ تسامح يستحيلُ معه أن يكون السيفُ وسيلة الدعوة وهاديَ الإيمان.

* * *

فتح مكة

أما ما كان من فتح مكة بالقوة فنظرةٌ عاجلة في تطور النزاع بين محمدٍ صلى الله عليه وسلم وعشيرتهِ قريش، كافيةٌ لإقرار الحقّ في نصابهِ، وأنه لم يكن مفرٌّ من تحكيم السيف بين الفريقين، حتى لو لم يكن محمد رسولًا وكان رجلًا كريمًا عزيزًا أُخرِج من وطنه، وأُخرِج معه كل من قال برأيه.

لم يكن مفر من تحكيم السيف في فتحها

يقول القرآن على لسان قريش «وقالوا إنْ نَتَّبِعْ الهدى معك نُتَخَطَّفْ من أرضِنا». فقريشٌ التي أقامت لنفسها سيادة دينية على العرب بسَدانةِ الكعبةِ ورعاية الحجِّ، وحراسةِ أوثان العرب وآلهتها، والتي اتخذت هذا المَقام وسيلةً لنفوذ سياسيٍّ واقتصاديّ في كل الجزيرةِ العربيةِ، والتي كانت تُدرِك ضعفَها، وأن هذه السيطرة التي لا تتناسبُ مع عَددها ومَقرِّها إنما ترتكزُ على النظام الجاهليِّ الذي يدعو محمد لتقويضِه،

والذي عبرت هذه الآيةُ أصدقَ تعبير عن إخلاصِ قريش له: فلو أنها تَبِعَت هدى محمد لهانت وذلت كما تدّعي، قريشٌ هذه أنَّى لها أن تصبرَ على هذا الداعي ودعوتِه! لذلك حكَّمت من أول الأمرِ القوة.

ولما اقتتلت خزاعةُ وبكرٌ بعد صلح الحديبية لم تصبرْ قريش عن نصرةِ بكر، ولم تَرْعَ هدنةً ولا احترمت ميثاقًا، بل عادت إلى تحكيمِ السيفِ فقبِلَ الرسولُ هذا التحدّيَ، وترك للسيف أن يحكمَ في نزاع دامَ عشرين سنةً، وقد حكم للمسلمين يوم الفتح. على أن الرواية التاريخية تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر قوَّاد جيشه بعدم القتال إلا أن يُقَاتَلوا. ومعاملته لقريش يوم الفتح دليل قاطع على أن السيف لم يكن وسيلة للدعوة.

الغرض من فتحها

فلم يكن الإكراه في الدينِ، ولا قهرُ الناس على الإسلام هو سبب القتال في مكة التي حرّم اللهُ القتالَ فيها، والتي يقول الرسول إنها أبيحت له ساعةً من نهارٍ هي بعدَها حرامٌ. وإنما كان الغرض أن يوضعَ حدٌّ للاضطهاد الدينيّ وأن يباح للناس حقٌّ اختيار العقيدة من غير إكراه ولا قهر.

صورة من التسامح المحمدي

ولذلك لما سأل صفوانُ بن أمية الرسولَ صلى الله عليه وسلم أن يكون له الخيارُ في مغادرة مكةَ أو الإسلام لمدة شهرين بعد الفتح قال: «بل أنت فيه بالخيار أربعة». وكان صفوانُ وأبوه أمية بن خلفٍ ممن أساءوا للمسلمين أشدَّ إساءة، يعذبون ضعفاءهم، ويستهزئون بنبيّهم.

فكان أميةُ يسخر ويَفُتُّ العظامَ الباليةَ في يده ويقول «يزعمُ محمد أن هذه تحيا مرة أخرى!» فنزلت الآية «وضَرَب لنا مَثَلًا ونَسِيَ خَلْقَه. قال مَن يُحْيِي العظامَ وهي رميم! قل يُحييها الذي أنشأها أول مرة، وهو بكل خلق عليم». فمع ذلك التاريخ السيء الطويلِ يطلبُ منه صفوانُ أن يترك له الخيارَ في الدين فيسمح له بعد الفتحِ والغلبةِ التامةِ! فهل هذا شأنُ من يقيمُ دينَه بالسيفِ؟ كلا.

دليل على انهيار النظام الجاهلي

لم يُقْتَل في موقعة مكة إلا بضعةَ عشرَ شخصًا، مع عِظَم الجيوشِ المقاتلةِ. فلقد كان جيشُ الإسلام وحدَه مقدرًا بعشرة آلاف، مما يدلُّ على أن النظام الجاهليَّ قد انهار أمام الدعوة المحمدية قبل يوم الفتح، وأن عصابة قريش لم تستطعْ أن تستنهض للقتال جمهرة الناس بعد أن نفذت العقيدة المحمدية إلى صدورهم. وإلا كيف تستطيعُ تفسير استسلام مكة بهذه السهولة ولمّا تُغْلَبْ!؟ وآخرُ وقائعها ذلك النصرُ في «أُحُد» بعد «بدر»، وكيف تفسر دخول الناس في دين الله أفواجًا بين يوم وليلة، وهم الذين كانوا يقولون «إن نتبعْ الهدى معك نُتَخَطَّفْ من أرضِنا»؟

الفتح السلمي قبل الفتح الحربي

لا شك أن أيامَ الهدنة بعد الحُدَيْبيةِ لم تُقْضَ عبثًا، وأن الدعوةَ وجدت في ظلال السلْم سبيلَها للنفوسِ التي تهيأت لقبول الحقِّ، وأن زعماءَ قريش قد أحسُّوا الأرض قد زُلْزِلَتْ تحت أقدامِهم، وأَن العامةَ مالت للحنيفيّة السمْحَةِ، وإلا فما الذي جعل أبا سفيانَ يُسْلِمُ ليلةَ الفتح،

ويتوسل بالعباس إلى ابن أخيه، لو كانت مكةُ لا تزال تؤمن بالنظام الجاهليِّ؟ أليس أبو سفيانَ هو الذي حمل راية الحرب جيلًا في وجه هذه الدعوة؟ ثم أليست هوازِنُ وثقيفٌ حلفاؤهُ لا يزالون في مَنَعَتِهم، حتى لقد كادُوا بعد الفتح يوم «حُنَينٍ» أن يفعلوا بجيشِ الإسلام الأفاعيل ويقتلوا الرسول؟ فما بالُ أبي سفيانَ وغيره من الزعماء لا يَنْحازُون بأتباعهم إلى حلفائهم ويديموا القتالَ، والعربُ بطبيعتهم صِلابُ العُود مَرِيرُو العداوةِ يُدِيمونها جيلًا بعد جيل؟ السبب واضح: هو أن مكةَ قد أسلمت وانقادت للدعوة قبل أن يدخل أرضها جيش خصومها من أهل «يثرب» وَمَنْ حولَها من الأعراب.

فحتى فتحُ مكة الذي يظنه بعضُ الناس حادثًا عسكريًّا ترتبَ عليه إسلامُها قهرًا، لم يكن إلا وسيلة لكفِّ الأيدي الباطشة عن أهلها ليُعْلِنُوا إيمانَهم ويدخلوا في الدعوة التي مالُوا إليها سرًّا أفواجًا أفواجًا.

ثم بعد فتح مكةَ نجدُ الوفود من أطراف هذه الأرض الواسعة المترامية تتوالى على المدينة، من اليمن ونجران وكِنْدةَ والبحرين وشمال الجزيرة ومن نجدٍ وتهامةَ، ومن كل ناحية، وتدخل فيها إيمانًا واحتسابًا.

فماذا كان قدرُ السيفِ ليرُدَّ الناسَ عَن دينهم، وبينه وبينهم مسيرةُ الشهور، وهم في مَنَعةٍ بعددهم وعُدَّتهم؟ إن الخدمة الوحيدة التي أدّاها السيفُ للإسلام هو أنه منع الرسولَ في المدينة من أن يقعَ فريسة لخُصومه من العرب واليهود والروم، فمكَّنَ له بذلك من نشر دعوته وإيصالها إلى

دليل من إسلام أبي سفيان زعيم المشركين

الوفود تتوالى من الجزيرة باختيارها على الرسول

الخدمة الوحيدة التي أداها السيف للإسلام

العقول والقلوب .

وإدراكُ الرسولِ قوةَ الدعوة في ظلال السلم ، هو الذي دعاه كما قلنا لإمضاء صلح الحديبية . والمسلمون بعد الرسول إنما اطاعوا الله ورسوله حيث جعلوا للناس الخيار بين الإسلام والجزية ، إذا لم يحكّموا السيف في رقاب المسلمين ولم يَحُولوا بين الناس واختيار العقيدة التي يَلقَوْن اللهَ علَيها .

ولو كان السيفُ وسيلةَ الدعوةِ ما كان للناسِ خيارُ ، وما اشترى أيٌّ إنسان في البلادِ المفتوحة دينه بدينار أو بنصف دينار . والدين الذي يساوي عند صاحبه دينارًا فالإسلامُ أولى بصاحبِه منه .

كان الناس في البلاد المفتوحة يعصمون أنفسَهم وأموالهم ودينهم من قهر السيف بجزية هي «ضريبة شخصية» يدفعها القادرون منهم لولاة المسلمين ، فيكفلون لهم مقابِلَها جميعَ حريّاتهم المدنية والدينية .

أيباع الدين بدراهم معدودات ؟ !

فهل تتصورون أن قومًا يبيعون دينهم وعُرْفَهم ووطنيتهم بنصفِ دينار يدفعُه القادر عليه منهم ، وليس على النساء ولا على الأطفال ولا العجزة ولا الرهبان ولا القسوس ؟ . لا شك أن الذين جَازُوا إلى الإسلام بعد الخيار بينه وبين الجزية ، وجدوه أحبَّ إلى أنفسِهم مما كانوا عليه

مفارقات !

بل من الغريبِ أن الدينار الذي كان يعصِم كلَّ عزيز لدى الأمم المفتوحة من سيف الإسلام ، والذي كان أزهدَ شيءٍ عندها ، كان أعزَّ على بعض ولاة المسلمين من إسلام هذه الأقوام ، فكانوا يكرهون

دخول الناس في دينهم ونقصَ جزيتهم ! كتب والي مصرَ إلى ذلك الخليفة الزاهد عُمَر بن عبد العزيز يخبرُه أن المصريين مقبلون على الإسلام ، وأن إيرادات الجزية تناقصت بسبب ذلك ، ويطلبُ منه أن يأذنَ له في الاستمرار على طلبِ الجزيةِ منهم ...

ما بعث الله محمدًا جابيًا

فكتب إليه الخليفة تلك العبارةَ المأثورة « قبَّح الله رأيك ! ما بعث اللهُ محمدًا جابيًا ، ولكنه بعثه هاديًا ! ! »

تلك الحادثة تقرّب لنا تصورَ الحالة الذهنية في القرن الأول لظهور الدعوة المحمدية ، فلا بد أن قدْر التسامح الديني كان على أعظم جانب ، وأن حريةَ العقيدة كانت في أوْجها ، وإلا فكيف تستطيعُ أن تتصور واليًا يكتبُ لخليفة المسلمين هذا الكتابَ إذا كان في المحيط الذي يعيش فيه أيُّ أثرٍ للتعصب أو الرغبة في قهر الناس على الدخول في الإسلام؟ إن تناوُلَ الموضوع بهذه الصورةِ دليلٌ على أن الواليَ ، الذي يُحِسُّ طبعًا بحسِّ البيئة ، كان يكتبُ في شيء لا يظنه عجيبًا ولا يراه مُنْكَرًا ، وإلا لكان هذا الوالي عُرضةً لفتك الجماهير ، بل وانتقامِ الخليفةِ إرضاء لهذه الجماهير .

قصة تكشف عن روح عصرها

لم يعاقِب الخليفةُ واليَه بعزله ، بل كان ما كان ، أن قبّح رأيَه ، وهو الذي يحاول منع الناس من الإسلام احتفاظًا بدينارِ الجزيةِ ... فهل تتصورون أن ولاةً لهم هذه العقليةُ ، وأن خليفةً له هذا التسامحُ مع ما اشتهر به بين خلفاء عصر كامل من التقوى ، وأن أمة فاتحة

مسيطرة تخيّر الناسَ بين البقاء على أديانهم ونظمهم مقابل جزية هي أقلُّ الضرائب بالنسبة لعصر كعصرنا هذا أو المساواةِ بالفاتحين ، يَخْطُرُ لدعاتها وولاتها أن يتخذوا السيف وسيلةً للإيمان؟!

كلا ، لم يكن السيف وسيلة للدعوة المحمدية ، وإنما كان حاميَها من القهر والاضطهاد ، وكان شعارُها «من يهدِ اللهُ فهو المهتدِ ومن يُضللْ فلن تجدَ له وليًّا مُرْشِدًا» .

* * *

انتشار الدّعوة في الأمم المسيحيّة

ماذا بين الموجة العربية وموجات الهون والقندال والتتار؟ – موجة تحمل رسالة الهدى والعدالة – موجة فذة في التاريخ – في ساحة المسيحية – شهادة السير توماس أرنولد – انتشار المسيحية في ظلال الإسلام – تحاكم المسيحيين إلى عدالة المسلمين – فرض مرفوض – الوزراء والولاة المسيحيون في دولة الإسلام – الكنائس تشاد في رعاية الإسلام – العرب المسيحيون يحاربون مع إخوانهم المسلمين – بطولة عربي نصراني في واقعة البويب – لم يكن السيف من أسباب دخول المسيحيين في الإسلام – وقائع اضطهاد هي الاستثناء الذي يثبت القاعدة – السياسة والحسد الاجتماعي لا الدين – برهان قاطع على تسامح المسلمين – بلاد الإسلام هي منطقة اللقاء الودي الدائم بينه وبين المسيحية – التعصب الديني بضاعة غربية.

ماذا بين الموجة العربية وموجات الهون والفندال والتتار؟

يظنٌّ بعض من لا يعلم، أنه لما جمع محمّدٌ صلى الله عليه وسلم شتاتَ العرب، وقهر الوثنية في وسط الجزيرة العربية، طغت بعده جماعات الرعاةِ من قُساةِ البدو، على الشمال والشرق للنهب والسلب والقضاء على حضارة الرومِ والفرسِ، وعلى معتقدات هاتين الدولتين وقواهما التي كانت تصونُ المدنية القديمة ضدَّ طغيان الهمج من الشمال الشرق والجنوب، وأن ظهور العرب كظهور الهُون والفَندال من الأقوام التي تدفقت من المشرق يسوقُها الجوع، ويُغريها الطمع، ويقويها الفخرُ بنسبِها، أو كغيرِهم من موجات المغول والتتر المتأخرين، وسيلتُهم العنفُ، وغايتُهم ما في أيدي الناس ومِثلُ هذا الظن بالعرب الحاملين دعوة الإسلام بعيدٌ كلَّ البعد عن الحق وعن ثابتِ التاريخِ. فمع أن حَمَلَة الدعوة كانوا ممن غلبت عليهم البداوةُ، ومع أن أعراب الجزيرة

كانوا من أرغبِ الأقوامِ في النهبِ وسفكِ الدماءِ، إلا أن الرسالةَ التي حملوها والشريعةَ التي دانُوا لها كانت أَمْلكَ لنفوسهم مما تعودُوه من الطمع والفخر؛ لذلك اختلفت آثارُهم عن آثار أشباههم من الأقوام التي استمر هاديها في فتوحاتها النهب والفخر.

موجة تحمل رسالة الهدي والعدالة

فقد أقام العرب دولةً امتدت من فرنسا إلى الهند والصين، وعرّبوا الأقوامَ وأدْمَجُوها فيهم، وهدَوْها بهديهم. فكان وفاؤهم للعهدِ واحترامُهم للشرعِ وتحقيقهم معنى العدلِ مَضْرِبَ أمثال الأمم، وموضعَ عجبِ المؤرخين والمحققين. لذلك لم يُكْرِه هؤلاءِ البدوُ أحدًا على تغييرِ دينه، ولم يعاملوا الناس فُرادى وجماعاتٍ إلا بقانونٍ تواضعوا عليه مستمدًا من نصوص الشريعة التي حملوا رسالتَها، أو من رُوحها. وقد لَقّنُوا ذلك من دخل في دينهم من الأقوامِ المتبدّية كالأتراكِ والبربرِ، فصار هؤلاء كذلك مثلًا للخضوع للشرع وللوفاءِ بالعهودِ والتسامح، بما لُقِّنوا من الأدبِ المحمديّ، صادقين في احترام أوامرِ دينهم متسامحين مع أهل الأديان الأخرى. بل يمكنُ القولُ بحقٍ: إنه فيما نعلمُ من تاريخ الأقوام والدعوات، لا توجد دعوةٌ صَحِبتها العدالةُ وسَعَةُ الصدرِ والعفوُ والتسامحُ في عنفوانِها وضعفِها كالدعوة المحمدية، سواءٌ أكان العربُ أم التركُ هم الحاملون إياها.

موجة فذة في التاريخ

لقد غلبت النفوسَ الجامحةَ، وهذبت الأممَ القاسية، وبقيت كلمةُ اللهِ هي العليا، وأمرهُ المطاع، وهو الذي يقول لحملَةِ الرسالة عربًا

وعجمًا «وقل للذين أُوتُوا الكتابَ والأُمِّيِّين أأسلمتم؟ فإن أسلمُوا فقد اهتدَوْا وإن تولَّوْا فإنَّما عليك البلاغ».

في ساحة المسيحية

كانت المسيحيةُ هي الديانة الغالبة في دولة الروم من جبال طورس إلى جبال الأطلس، أي في الساحة التي تشملُ اليومَ سورية ومصرَ وطرابلس الغرب وتونس، وكانت هذه الأقطارُ من أول ما حرر العربُ في الدَّفعة الأُولى أيام خلفائِهم الراشدين، وأيام أن كان الحماسُ للدين الجديد في أَوْجِ حرارتِه.

وكان النصارى في الأقطار المفتوحة من مختلف الشعوب واللغات، فمنهم العربُ، ومنهم غيرُ العربِ. فماذا كان حكم الفاتحين في المغلوبين؟ ذلك ما ندعُ الكلامَ فيه للسير «توماس أرنولد» ذلك المؤرخُ والعالمُ الكبيرُ المختصٌّ فى هذا الموضوع.

شهادة السير توماس أرنولد

يقولُ السير توماس في كتابه «انتشار الإسلام»: «حقًا إن الكنيسة المسيحية قويت وتقدمت في رعايةِ المسلمين وحكمِهم. فلم يَحُلْ الحكمُ الإسلاميُّ بينها وبين الانتعاش والرقيِّ، بل إن النساطرة لم تتفجر فيهم الحَمِيَّةُ والحماسةُ الدينيةُ إلا بعد أن دخلوا في حكم الإسلام بما لا عهدَ لهم به من قبلُ. فنشروا المسيحيةَ تحت رايةِ الإسلامِ، وبلغُوا بدعوتهم الصينَ والهندَ تحت حماية الخلفاءِ. وإذا لم يكن لغير النساطرة

انتشار المسيحية في ظلال الإسلام

من أهل النصرانية ما لهؤلاء من النشاط والهمة في نشر دعوتهم الدينية، فليسَ هذا ذنبَ المسلمين، ولا ذنب حُكّامِهم: فقد كانت جميعُ

المذاهب المسيحيةِ تتمتعُ بالرعاية والتسامح من الحكامِ المسلمين على حدٍّ سواء. بل كان هؤلاء الحكامُ هم الذين يمنعون اضطهادَ بعض المسيحيين لبعضٍ ، ويكفُلون الحريةَ الدينية للجميع » ، وقد عدد السير توماس حوادثَ النكايةِ بين المذاهب المسيحية ، وبيّن كيف كان الحكامُ المسلمون يتدخلون لإقامة العدل ، وإنصافِ المظلوم من غيرِ تحيُّزٍ وبمنتهى التسامحِ ، مما لا محلَّ للإطالةِ فيه الآن ، ويمكنُ الرجوعُ إليه في صفحة ٦٠ وغيرِها من كتابِه السالف الذكر.

تحاكم المسيحيين إلى عدالة المسلمين

كذلك بيّن أن ما يعرفُه من التسامحِ والإحسانِ الذي امتد ظلُّه على الرعايا المسيحيين في العصرِ الأول ، وما ساقه من الأمثلة والوقائعِ ، لا يسمحُ بما يفترضُه كثيرٌ من الناس ظنًّا ، وهو أن الأممَ المسيحيةَ دخلت في الإسلام قهرًا أو بحدِّ السيفِ ، فذلك لا شك باطلٌ ولا مبررَ له ، وعلينا أن نبحثَ عن أسبابٍ أخرى لتفسيرِ إسلامِ المسيحيين.

فرض مرفوض

ويقول السير توماس «تحت نظامٍ من الأمنِ يكفلُ حريةَ الحياةِ والمِلْكِ والعقيدةِ الدينيةِ ، تمتع المسيحيون ، وعلى الأخص في المدنِ ، بثرواتٍ ونجاحٍ كبير في عصورِ الإسلام الأولى ، فكان منهم أربابُ النفوذِ الواسع في قصورِ الخلفاء». وقد ساق على ذلك شواهدَ كثيرةً ، من أطرفها أن أخوين مسيحيين «سلماوه وإبراهيم» وَلِيَا للخليفةِ العباسيِّ المعتصمِ مناصبَ الوزارةِ ، ومنها بيتُ مالِ المسلمين ، ولما مرض إبراهيمُ عاده الخليفةُ في بيتِه ، فلما مات حزِن عليه حزنًا شديدًا ، وأمر بجثتِه

الوزراء والولاة المسيحيون في دولة الإسلام

مراسم المسيحية في قصر الخلافة الإسلامية !

فجيء بها إلى القصرِ وجرت المراسمُ المسيحيةُ والصلوات عليها في قصرِ الخلافة الذي شُيِّعت منه الجنازةُ ! وذكر السير توماس من بين من ذكر من الوزراء المسيحيين، «نصر بنَ هارون» الذي تولى رياسةَ الوزارة لعضدِ الدولة بن بويه، وبني عددًا كبيرًا من الكنائسِ والمعابدِ.

الكنائس تشاد في رعاية الإسلام

وقد عدد كذلك أمثلةً للتسامحِ في الكنائسِ التي أمر ببنائها الخلفاء، وأنفقوا عليها في شمالِ الجزيرةِ والعراقِ والشامِ، ولا يزالُ بعضُها قائمًا إلى اليوم ككنيسةِ «أبو سرجة» في مصرَ العتيقة مما بُنِيَ في العهدِ الأول الإسلامي بالفسطاط. وليس أدلَّ على سعةِ الصدرِ من أن واليَ الأمويين في العراقِ وفارسَ «خالدًا القَسْرِيّ» بنى لأمه المسيحية كنيسةً لتتعبد فيها في العهد الأول للدعوة وأيام صولةِ الفتوحات والحروب بين المسلمين والروم المسيحيين. ويمكنُ للذين يريدون تفصيلًا أوسعَ في هذا الشأنِ أن يَرْجعوا إلى كتابِ السير توماس وما يشيرُ إليه من المراجع الأجنبيةِ والإسلاميةِ.

العرب المسيحيون يحاربون مع إخوانهم المسلمين

لقد كان بين العربِ المسلمين وأولادِ عمومتِهم العربِ المسيحيين من الإخاءِ والتسامحِ في عهدِ الفتوحاتِ الأولى، ما جعل نصارى العربِ يقاتلون في الصفوفِ الإسلاميةِ انتصارًا لعروبتهم واستجابة لعدالة أبناء عمومتهم. والتاريخُ الإسلاميُّ مستفيضٌ بحوادث الأفراد والجماعات المسيحية في العراق والشام ومصرَ، التي احتفظت بدينِها وساهمت في بناءِ الإمبراطوريةِ العربية بجهدها ودمِها.

بطولة عربي نصراني في واقعة البويب

في واقعةِ الجسر ، لما زُلزل جيش «المُثَنَّى» وحُصِر بين الفرات والجيش الفارسي ، كان نصارى بني طي خيرَ أعوانِ إخوانهم العربِ المسلمين ، فحمل زعيمُهم حملةً صادقةً وحمى المَعْبَرَ للمسلمين . ولما عاد «المثنى» واستنجد الناسَ لمحوِ عارِ هزيمةِ الجسرِ كان بنو النمير المسيحيون من خير من أنجده. في واقعة البويبِ قاتل نصارى العرب جنبًا لجنبٍ مع مسلمي العربِ ، وكان فخرُ اليوم لنصرانيٍّ من بني تغلب لَحِق بالمعركة أثناء اشتدادِها ، وقطع رأس زعيم الفُرس وسلبه جوادَه وفاز بالغنيمة وركض راجعًا بين صفوف المسلمين يفخرُ بنسبهِ وأنه من نصارى تغلِب ، والمسلمون يهتفون له ويحيُّون نجدَته.

ولقد بقيت «تغلب» على نصرانيتِها ، وهي التي أبت الجزيةَ وطلبت أن تدفعَ الصدَقة أسوةً بالمسلمين ، فأمر عمرُ رضي الله عنه لها بذلك قائلًا «لا تُذِلوا العربَ . خذوا من بني تغلب الصدَقة» .

وقد بين السير توماس أرنولد في كتابِه سالف الذكر جملةَ أسبابٍ لترك المسيحيين دينَهم في العصورِ والأوطانِ المختلفةِ ، وسرد الحوادثِ سردًا علميًا مدَّعمًا بالحجةِ القاطعةِ . وفي كل زمان ومكانٍ تتكرر مفخرة المسلمين التي لا يدانيهم فيها أحد ؛ وهي التسامحُ وسعةُ الصدرِ والإنصافُ للمخالفين في العقيدة.

لم يكن السيف من أسباب دخول المسيحيين في الإسلام

وسواء أكان المسيحيون الذين تركوا دينهم قد فعلوا ذلك إعجابًا بالدين الجديدِ وبأصحابِه ، أم بُغضًا لما هم فيه من فرقةٍ ، أم يأسًا من

الإصلاح، أم فِرارًا من أذى بعضِهم لبعض، أم إهمالًا من قساوستِهم ومرشدِيهم، أم طمعًا في دنيا، أم هدًى من الله.. فإن هذه الأسبابَ المتنوعةَ والتي يشيرُ إليها المؤرخون من أهلِ المِللِ الأخرى في تعليلِ إسلام المسيحيين، أدلةٌ على بُعدِ السيف عن ميدانِ العقيدة المحمدية.

وقائع اضطهاد عن استثناء يثبت القاعدة

نعم لقد وقعت في التاريخ الإسلامي بعضُ حوادثَ لا تخلو من اضطهادِ المسيحيين، وأكثرُ ما يُشارُ إليه من هذه الحوادثِ في أيامِ المتوكلِ العباسيّ والحاكم بأمر الله الفاطمي، وبعضِ المماليك. والأول كان شديدًا على المسلمين أنفسِهم، قاسيًا على المتشيّعةِ والمعتزلة من الفِرَقِ الإسلاميةِ. والثاني كان بالعكس فاطميًا قاسيًا على المسلمين من غيرِ الشيعةِ. فإذا أصابوا لضيقِ صدرِهم النصارى، فلهؤلاء فيما أصاب المسلمين أُسوةٌ. ومع ذلك فنفسُ هذا الاضطهادِ هو الاستثناءُ الذي يثبتُ القاعدة. ووقوعُ حوادثَ منعزلة قليلة في تاريخِ أكثرَ من ألف سنة، هو الدليلُ القاطع على تسامح منقطعِ النظير وتاريخ ناصع مشرِّف في سجلّ الأقوام والأديان.

السياسة والحسد الاجتماعي لا الدين

وأكثرُ حوادثِ الأذى التي أصابت بعضَ المسيحيين في أزمنة متباعدة، أثارتها نازعة حسدٍ لما كان يتمتعُ به النصارى من ثراءٍ كبيرٍ ونفوذٍ قيل إنهم أساءوا به، أو نازعةُ خوف؛ فقد كان النصارى في بعض العهود ضالِعين معَ إخوانهم في الدين وراءَ الحدود الإسلاميةِ ومتجسسين متربّصين، فأصابهم بعضُ الأمراء، أو سلط عليهم العامةَ

تخلصًا من أذاهم. وفي تاريخ مصرَ والشام والدولة العثمانيةِ والأندلسِ حوادثُ متفرقة يمكن تَتَبُّعها وردُّها إلى السياسةِ لا إلى العاطفةِ الدينيةِ، أو رغبةِ المسلمين في إكراهِ غيرِهم على الدخولِ في دينهم. ومن مفاخرِ المسلمين المتفق عليها أن تاريخهم خِلْوٌ من القوانين الباطشةِ الجائرةِ التي حرّمت العقيدةَ الإسلاميةَ في أسبانيا أيام فردناند وإزابيلا، وحرّمت البروتستانتيةَ في فرنسا على عهدِ لويس الرابع عشر، وحرمت دخولَ اليهودِ في انجلترا أربعةَ قرون.

برهان قاطع على تسامح المسلمين

ويقول السير توماس «إن بقاءَ الكنائسِ والمذاهبِ المسيحيةِ معزولةً في الشرق الإسلاميِّ تلك القرونَ الطويلةَ، هو البرهانُ القاطع على تسامح الدول الإسلامية تسامحًا عامًا».

لقاء ودي دائم في بلاد الإسلام بينه وبين المسيحية

لم يكن السيفُ إذًا وسيلةَ الإسلام إلى القلوب المغلقة كما كان السيف والاضطهادُ وسيلةً لإنقاذِ أرواح المسلمينِ واليهودِ وحتى المخالفين في المذاهبِ المسيحية... وكيف يكونُ ذلك في قومٍ عاهد نبيُّهم القبائلَ المسيحيةَ ووفى لها وكفلَ حريةَ مِلكها وعقيدتها وأمَّن رهبانَها وقساوستَها؟! وقد قال القرآن الكريم فيهم «ولتجدَنَّ أقربَهم مودَّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانًا وأنهم لا يستكبرُون».

التعصب الديني بضاعة غريبة

على هذا الأساسِ الصالحِ تُرِكَ الناسُ لضمائرِهم ولهدايةِ اللهِ، فنشأت واستمرت علاقة أهلِ الشرق بعضِهم ببعضٍ، وستنمو على هذه القواعدِ، وتبقى مثلًا للذين أساءوا إلى الإسلام والمسيحية من متعصِّبة

الغرب لضيق صدورهم وعدم إنصافهم. ويحقّ لنا نحن الشرقيين مسلمين ومسيحيين أن نعتزّ ونفخر بهذه السيرة المحمدية وأن نطالب الأقوام المتناحرةَ أن تهتدي بهَدْيِنا وتستنيرَ برُشْدنا.

* * *

إسلام الصليبيين

دور من الصراع بين المسلمين والمسيحيين – تاج العرب والترك من بعدهم – إسلام طوائف من الصليبيين – في الحرب الصليبية الأولى – في الحرب الثانية – رواية راهب صليبي عن إسلام ثلاثة آلاف – القسوة الغادرة بالإخاء – الرحمة المنقذة للأعداء – رحمة أشد قسوة من الخيانة ! – احتكاك أفاد الصليبيين – تبادل الأسوة الحسنة – تأثير الإعجاب بصلاح الدين – أمراء كثيرون يسلمون – صليبيون يقاتلون في صفوف المسلمين – فرح نصارى الشرق بزوال حكم الصليبيين – شواهد أخرى من الشرق البعيد في العهد الأموي – سلوك كريم في كل مكان وزمان – أساس قرآني لم يختلف باختلاف العصور – هل من نهضة للحق والحرية يقوم بها المسلمون والمسيحيون في الشرق ؟

دور من الصراع بين المسلمين والمسيحيين

تغلبت دعوةُ التوحيدِ على كلّ ما عداها ، ودارت ، بهذا البحرِ الأبيض المتوسط حتى عبرت جبالَ البرانس إلى فرنسا ، فعرّبت شبهَ الجزيرةِ الإيبيريةِ ، ثم هزمت بيزنطةَ ، ولفّت بالجناح الشرقيِّ حتى وصلت إلى شواطىءِ الأدرياتيك ، فغلّبت لغة الأتراك وأدبهم في جنوبِ أوربا الشرقيّ ، كما غلّبت من قبلُ لغةَ العرب وعُرفَهم في جنوبها الغربيّ . وحَظِيَ من حمل لواء هذه الدعوة من القبائل العربية والتركية ممن أخلصوا لها ، بجزاءٍ من اللهِ منقطع النظير ! بسطةُ المُلكِ ودوامُه ، وإقبالُ الدنيا حتى اندمج في هيئتهم ولغتهم وعنصرهم من الأقوام من هم أعرقُ منهم في العمران والمُلك. وقد سبق للعربِ وسبق للتركِ أن فتحُوا ممالك ، وأقاموا دولًا قبل أن يعرِفُوا محمدًا ويهتدُوا بهَدْيه ، فما عظُمَ لهم شأنٌ ولا بقِيَ

تاج العرب والترك من بعدهم

لهم ذكرٌ محمودٌ. ولكنّ هاتين الأمتين المعروفتين بالقدرةِ على الغزو والقهرو الموصوفتين بالتوحشِ في التاريخِ القديم، هذبتهما الرسالةُ المحمدية فمشتا إلى الأقوام المتحضرة والبادية، يَهديهما شرعٌ واضحٌ في كتابٍ كريم، وأدبٌ عالٍ قِوامُه الفضيلةُ، ونظامٌ أساسُه العدل، ودعامتُه خشيةُ اللهِ في عبادِه، فسحرتا المتقدمين والمتأخرين، وما زال الناسُ من الأقوام المتنصرةِ الأوربيةِ والأسيويةِ والإفريقيةِ يتمثلون بمَثَالِهما، حتى دخلوا أفواجًا في دعوتهما من غيرِ قهرٍ ولا أذى.

إسلام طوائف من الصليبيين

دخلت الأمم المسيحية مستجيبةً لدعوى العرب والتركِ طواعيةً واختيارًا للجانبِ الأعزِّ بالحقِّ والمثلِ الأعلى في الأدبِ والفضيلة. ولعل من أظهر الأدلةِ على ذلك وأعجبِها، إسلامَ طوائفَ من الصليبيين الذين حُشدُوا من كل جنس وجيل، وجاءوا المشرقَ تغلي صدورُهم بالبغضاء، وتَقْطُر من أيديهم الدماءُ، حتى ذبحوا نفسَ النصارى في طريقهم ممن لم يَنْشَطْ لدعوتِهم، أو ممن خالف رأيَهم، أو كان على غيرِ مذهبِهم في المسيحية. هؤلاءِ العتاةُ القساةُ ما لبثوا أن اقتبسوا أدبَ أعدائِهم، فاتسعت صدورُهم وتهذب تعصبهم، وتعلموا ممن يبغضونَهم التسامحَ، فصار القادمُ عليهم مددًا من الغرب يُنكِرُ ما يجدُهم فيه من أدبٍ سما على البغضاء والحقد.

في الحرب الصليبية الأولى

بل إن كثيرًا من زعماءِ الصليبيين وكثيرًا من عامتِهم الذين قطعوا الأرضَ لقطع رقاب المسلمين، ارتَموْا في أحضان الدعوةِ التي غامرُوا

كل مغامراتِهم للقضاءِ عليها منذ أول تعارف ؛ ذلك هو أعجبُ آثارِ التسامح !

في الحرب الثانية

فقد أسلم في الحربِ الصليبيةِ الأولى ممن أسلم «رينود» أميرُ طوائفِ الجرمان واللمبارديين ، وأسلم معه خلقٌ كثيرٌ منهم . وأسلم في الحربِ الصليبيةِ الثانيةِ ، كما يروي السير توماس عن راهب من رهبانِ سنت دنيس كان قسيسًا في المعبدِ الخصوصيِّ للملك لويس السابع ، ورافقه في هذه الغزوةِ طائفة كبيرة . وإليكم ما يقولهُ الراهب في عبارة شائقة :

رواية راهب عن إسلام ثلاثة آلاف صليبي

«وفي طريقِ الصليبيينَ إلى المَقْدِس ، عبْرَ جبالِ الأناضول ، التَقَوْا بجيشِ المسلمين ، فهُزِم الصليبيون شرَّ هزيمةٍ . وكان ذلك في الممرِّ الجبليِّ «فريجيا» وذلك سنة ١١٤٨ ، ولم يصلُوا إلى مرسى «أضاليا» إلا بشِقِّ الأنفس .ومنها استطاع القادرون بعد تلبية طلبات التجار اليونانيين الباهظةِ أن يَرْحَلُوا إلى أنطاكيةَ بحرًا ، وقد دفعوا مبالغَ طائلةً ، وتركوا خلْفَهم الجرحى والمرضى والحُجَّاجَ ، فدفع كذلك لويس خَمْسَمائةِ مارك لليونانيين على أن يُعْنَوْا بهؤلاء الضعفاء حتى يُشْفَوْا ، وعلى أن يرافقهم حرسُ اليونانيين حتى يَلحقُوا بمن سبقهم . فما كان من اليونانِ الغادرين إلا أن تربصوا حتى تباعد جيشُ الصليبيين ، واتصلُوا بالمسلمين الأتراكِ وأخبروهم بما عليه الحُجَّاجُ والجرحى ، ممن تخلّفوا من الوهَن والعجز ، ثم قعدوا ينظرون إلى إخوانِهم في الدين ينالُ منهم البؤسُ والمرض وسهامُ المسلمين . ولما ضاق الصليبيون المتخلفون ذَرْعًا بما أصابهم ، خرج ثلاثةُ

القسوة الغادرة بالإخاء

آلافٍ أو أربعة من قلعتِهم محاولين النجاةَ بأنفسِهم ، فحصرهم المسلمون وشَدُّوا عليهم ، ثم حملوا على المعسكراتِ الصليبيةِ ، وكان حالُ من خرج ومن بَقِيَ في المعسكرِ ليس فيه أقلُّ رجاءٍ ، ولم يُنْقَذُوا إلا بما نزل في قلوبِ المسلمين من الرحمةِ ، حين اطَّلعُوا على ما فيه عدوُّهم من بأساء ، وما أصابهم من ضراء. رقّت قلوبُهم وذابت نفوسُهم رحمةً لأعدائِهم الصليبيين المساكين ، فواسَوْا المريضَ وأحسنُوا للفقيرِ ، واطعموا المسكينَ بسخاءٍ وكرم. وبلغ من إحسانِهم أن بعضَهم استردَّ بالشِّراء أو الحيلة أو القهر النقودَ الفرنساوية التي أخذها اليونانُ من الحجّاجِ ، وردّها عليهم ، ووزعها على المحتاجينَ من الصليبيين. وقد كان الفرقُ واضحًا بين معاملة هؤلاء الكفار – يقصِد المسلمين – للحجّاجِ المسيحيينَ ، ومعاملة اليونان الذين سخّروا إخوانَهم في الدين ، ونهبُوا أموالَهم وضربوهم. كان الفرقُ عظيمًا لدرجةٍ حملت الصليبيين على اعتناق دين الأعداء المنقذين ، ومن غير أن يُكرَهوا أو يُقْهرُوا. لقد فرُّوا من إخوانِهم في الدين الذين أساءوا إليهم ، فلَحِق ثلاثةُ آلافٍ بالجيشِ الإسلاميِّ بعد أن رجع عنهم ودخلوا في دينه . لقد كانت الرحمةُ أشدَّ قسوةً من الخيانةِ ! لقد أعطاهم المسلمون الخبزَ وسلبُوهم الإيمانَ. واحسرتاهُ ! لقد ارتدُّوا عن المسيحية من غيرِ أَن يُجْبَرَ واحدٌ منهم على تركِ دينِه ».

الرحمة المنقذة للأعداء

رحمة أشد قسوة من الخيانة !

ذلك ما يقوله الراهب. ويقولُ السير توماس «لقد كان اختلاطُ النصارى الصليبيين بالمسلمين ينمُو على ممرِّ الأيام ، وينمو معه الاحترامُ

احتكاك أفاد الصليبيين

والتقديرُ بمزايا عدوِّهم وفضائله . وتزايدَ تقليدُ الفرنجة النازلين في فلسطينَ للمسلمين تزايدًا كان له أثرٌ واضح على أفكارهم الدينية . وأظهرُ هذه الآثار ذلك التسامُحُ الدينيُّ الذي أخذ يتصف به كثير من فرسان الصليبيين وامرائهم ، وذلك الصدرُ الرحْب الذي أخذوا يتلقَّوْن به التعاليم المحمدية ، حتى إن الأميرَ السوريَّ «ابنَ مُنْقِذ» لما زار بيتَ المقدس أثناءَ بعض الهدنات كان أميرُ الصليبيين على المسجد الأقصى يأذَنُ له بإقامة صلاته في المعبدِ ، فعجبَ الصليبيون الجُدُد لهذه الحالة العقلية ، واحتجُّوا عليها . ولكن الصليبيين الذين أثر فيهم جوارُ الشرق كرهوا أن يتدخلَ أحدٌ في حرية ضيفهم الدينية ، ولم يردَّهم عن هذا التسامح الذي تعلموه في الشرق حَرَج الكنيسة وغضبُها في الغرب». ثم قال : «لقد اجتذبت الدعوةُ المحمدية إلى أحضانها من الصليبيين عددًا مذكورًا ، حتى في العهد الأول ، أي القرن الثاني عشر ، مما يلفتُ نظر من يطَّلِعُ على سجلّاتِ الصليبيين» .

تبادل الأسوة الحسنة

ولقد بلغ تأثير الإعجاب بشجاعة صلاح الدين وفضائله في الصليبيين ، أن كثيرًا من أمرائهم وعامَّتهم المُعجَبين به ذهب بهم هذا الإعجابُ إلى ترك دينهم وأهلهم والدخول في الإسلام.

تأثير الإعجاب بصلاح الدين

مثلُ ذلك ما فعل الزعيم الإنجليزيُّ «روبرت سنت أليان» وكان ذلك قبل انتصارِ صلاح الدين في معركة حِطِّين الفاصلة التي وقع فيها ملكُ القدسِ «جاي» أسيرًا . ويقول بعضُ مؤرخي النصارى : إن ستةً من

أمراء كثيرون يسلمون

أمراء هذا المَلك استولى عليهم الشيطانُ ليلةَ المعركة فأسلموا وانضمُّوا إلى صفوف الأعداء دون أن يُقْهروا من أحدٍ على ذلك. وقد وصل الأمرُ «بريمون الثالث» أمير طرابلس الشام أن اتفق مع صلاح الدين على أن يدعو قومه إلى الإسلام.

وحتى بعد صلاح الدين، لما قام الصليبيون بحربهم الثالثة انتقامًا لسقوط بيت المقدس، وحاصروا عكا، وأصابتهم البأساءُ، وعضَّهم الجوع، فرّ كثير إلى صفوف المسلمين؛ فمنهم من آمن، ومنهم من رجع إلى قومه، ومنهم من استمر على نصرانيته، واختار البقاءَ وأن يقاتل في صفوف المسلمين. وفي هذا المعنى يقول السير «جون ماندفيل» أحدُ المعاصرين للصليبيين «كان بعضُ المسيحيين يرتدُّون عن دينهم ويصيرون عربًا، لفقرهم أو غباوتهم أو شقاوتهم». ولا يُنتظر بالطبع من صليبيٍّ كالسير جون أن يفسّرَ ما يسمّيه المسلمون بالهداية إلا بالغباوة والشقاوة. والذي يعنينا من الأمر أن الفقراء والأغبياء والضالّين الذين ذكرهم السير ماندفيل، دخلوا في الإسلام الذي جاءوا لمحوِه، مختارين، واجْتُذِبُوا إليه بالدعوة والإرشادِ، لا القهر والاضطهادِ. بل إنّ بعض المؤرّخين المسيحيين المعاصرين للفتح الإسلامي واسترداد بيت المقدس، وبعد ذلك بكثير بعد انهيار دُوَل الفرنجة في الشام كلِّها، يُشيرون إلى فرحِ النصارى بالتحرّر من حكم الصليبيين. ويقولُ السير توماس في هذا المعنى «لقد سكنوا إلى الحكم الإسلاميّ وادعين مستبشرين، كما

صليبيون يقاتلون في صفوف المسلمين

فرح نصارى الشرق بزوال حكم الصليبيين

استمر الحكامُ المسلمون على عادتهم القديمة من التسامح وسعة الصدر لأهل المللِ الأخرى».

وإذا كان ما ذكرنا هو بعض الشواهد على انتشار الدعوة المحمدية بالحجة بين أشدِّ خصومها المحاربين، وفي أحلكِ أيام الدولة الإسلامية، أيامَ غاراتِ الصليبيين والتتر، فإن لنا شاهدًا آخرَ من بطريقِ خراسانَ في أعزِّ أيام الدولة الأموية العربية، نختمُ به هذا الفصل. يقولُ البطريقُ «يوساب الثالث» اليعقوبيُّ في خطاب طويل بعث به لحَبْرٍ زميلٍ «أين ابناؤك ايها الأب! اين هذا الشعب العظيمُ شعبُ مَرْو! لم تصبهم جائحة ولا سقطوا للسيف، ولا عذِّبوا بنار، وإنما أصابهم متاعُ الدنيا، فارتدّوا عن دينهم، وقذفوا بأنفسهم كما يَقْذِفُ المجانينُ في مهاوِي الهلاك والكفر، فلم ينجُ من هذا السعير إلا قسيسان اثنان فرَّا بنفسيْهما من من جحيم الكفرِ – أي الإسلام – واحسرتاه على الآلاف المؤلَّفة الذين حملوا اسمَ المسيحية وصفتَها، ولم يقعْ منهم شهيدٌ واحد ولا ضحى واحد منهم لدينه!!

شواهد أخرى من الشرق البعيد في العهد الأموي

أين كذلك بِيَعُ كِرْمانَ وكنائسُ فارس! لم يكن قدومُ شيطانٍ ولا ملَك ولا أميرٍ، ولا أمرُ خليفة أو سلطان هو الذي قضى عليها. لم يكن ساحرًا موهوبًا أوتِيَ المنطقَ وسلطةَ الشيطان على النفوس، ولكنه ساحرٌ هز رأسَه فقط فخرّت كنائسُ فارسَ كلها على الأرض!

سلوك كريم في كل مكان وزمان

أما العربُ الذين آتاهم اللهُ ملكَ الدنيا كما تعلمُ – فإنهم عندَك

كذلك – فلم يطعُنوا في دينِنا ولا اعتدَوْا على بِيَعنا ، بل بالعكس ضالَعُوا مع ديننا وفضّلوه على غيره ، وأكرموا رهبانَنا وقساوستَنا ، واحترموا أولياءنا ، وأحسنُوا الهباتِ إلى معابدنا . فلماذا إذًا هجر أهلُ مَرْو نصرانيتَهم زُلْفَى لهؤلاءِ العرب ، وهم يعلمون ويقولون إن العربَ ما طلبوا منهم تغييرَ دينهم ، بل أقرّوهم عليه كاملًا ، ولم يسألوهم إلا ضريبةً بسيطةً يؤدّونَها عن أنفسهم ، ولكنهم اشترَوْا خلودَ أرواحهم في دين المسيح بمتاعٍ قليلٍ ؟ ! »

أساس قرآنيّ لم يختلف باختلاف العصور

هل هناك بيانٌ أوضحُ من هذا البيان عن نفاذ الدعوة المحمدية بالحجة إلى قلوب المسيحيين؟ لقد سقنا لك الشواهدَ من المشرق والمغرب في القرن الأول ، وفي القرنِ السابع ، في المحاربينَ والمهادنينَ . لقد اختلف كلُّ شيء ، اختلفت الأممُ والقرونُ والظروفُ ، ولم يختلف الحقُّ الذي سايرَ هذه الدعوةَ منذُ ظهورِها ، والذي وضع أصلَه القرآنُ في قوله تعالى : «لا إكراهَ في الدِّين قد تبين الرُّشْدُ من الغيّ» .

هل من نهضة للحق والحرية يقوم بها المسلمون والمسيحيون في الشرق ؟ !

وحقٌّ لنا نحن سلالةَ الأقوامِ العادلة المنصفة الحليمة الرحيمة في المشرق ، مسلمين ومسيحيين ، أن نطمعَ في نهضةٍ جديدةٍ نكونُ فيها مُثُلًا ودعاةً لحرية العقيدة وحرية الرأي في عالمٍ ضاق صدرُه بالمخالفين في الرأي . لقد كان آباؤنا حماةَ هذه الحرية ومُثُلَها العليا ، فلنكن نحن ورثةَ هذا الصبر عليها ، وحَملةَ رايتها في أمةٍ ناشئةٍ ودولة جديدة .

* * *

إسلام الأوروبيين

تاريخ مشرف لنا وتاريخ غير مشرف لغيرنا – مزاج قاس وصدر ضيق – مفارقات بين البدو المسلمين والحضر المسيحيين – المسيح البريء من روح التعصب الغربي – النزعات البشرية بين إطلاق المسيحية وتقييد الإسلام – أثر تركيز الدين في النظام الكهنوتي – الحرية في فهم القرآن لدى جميع المسلمين – والقيود في فهم الإنجيل لدى المسيحيين – الحلال والحرام كلاهما بين في الإسلام لدى الخاصة والعامة – أدب القرآن مع المخالفين – بساطة الدخول في الإسلام تعصم الدماء والأموال – من تاريخ تعصب المسيحيين في إسبانيا – اضطهاد اليهود والعبيد في إسبانيا – فرار المضطهدين إلى الإسلام برغبة – أثر تسامح الفاتحين وعدم ترفعهم عن المخالطة – استعراب واندماج – نصارى يتلون القرآن – دخول في الإسلام حتى في وقت سقوط دولته – هزيمة العرب في فرنسا سببت تأخر وصول الحضارة إلى أوروبا ثمانية قرون – بين وطأة المسيحيين في الغرب ورحمة المسلمين في الشرق – سلطات وامتيازات لبطارقة المسيحيين في دولة الأتراك – العمى عن الأسوة الحسنة ! – هو المزاج الغربي الدموي دائماً ! – أمل في رحمة الله !

تاريخ مشرف لنا وتاريخ غير مشرف لغيرنا

يصحَبُ نشر الدعوة المحمدية في أوربا الشرقية وأوربا الغربية تاريخٌ جدير بالذكر الحسَن، وحقيقٌ بفخرِ المسلمين، كما يصحَبُه، مع الأسفِ من الناحية الأخرى، حوادثُ لا حصر لها من أمثلة السوءِ الدَّالَّة على ضيق صدور كثير من الأوربيين، وعلى التجائهم في سبيل تأييدِ آرائهم الدينية إلى أردأ الوسائل وأنكرِ الأعمال !

مزاج قاس وصدر ضيق

ومع أن الذين رفعوا رايةَ الإسلام في الغرب من ناحيةِ إسبانيا وفرنسا وإيطاليا، كانوا من العرب والبربر، وهم أقوامٌ اشتهرت كلها بالبأس والشدة، فإن تاريخَهم من ناحية نشرهم الدعوةَ المحمدية، وتسامحِهم

الديني ، هو أظهرُ ما في صفحات مجدهم وأحقّها بالفَخارِ . وذلك على عكس الأقوام الأوربية ؛ فقد كان ينتظم بَرُّها وفاجرُها في سلسلة الفظائع الدموية التي اقترنت بمقاومة الدعوة المحمدية والقضاء عليها في أوربا الغربية والشرقية في مدى مئاتِ السنين.

ومما يصعبُ أن نجدَ له تفسيرًا أن القسوة التي كانت وسيلةَ الأوروبيين في القضاء على حضارة المسلمين ودينِهم في أسبانيا وفرنسا وإيطاليا أو في شرق أوربا ، لم تتخلّفْ عن الظهور بأشنع مظاهرها حتى ضدَّ النصارى أنفسهم كلما وقع نزاعٌ حادٌّ على رأيٍ في الدين ، أو دعوة من الدعواتِ المسيحيةِ ، أو ضدَّ اليهود.

وليست الأقوام الأوروبية كلُّها جنسًا واحدًا ، ولا من بيئة واحدة ، ولا طبيعة واحدة ؛ فبينَها من الخلاف في الجنس واللغة والطبائع ما بينَ أمم الشرق ؛ فماذا وحّد إذًا وسائلَها ، وجعل الفتكَ والغِيلَة والغدر والظلم من أظهر هذه الوسائل لإعلاء دينٍ على دين؟

مفارقات بين البدو المسلمين والحضر المسيحيين

وماذا جعل أقوامًا بادِيةً كالعرب ، وأقوامًا صناعتُها القتالُ كالترك والتتر والبربر ، تختارُ لنشر دينها الحجةَ والقدوةَ ؛ فلا نجدُ في تاريخٍ طويلٍ شَمِل المشرِق والمغرِب أكثرَ من ألف سنة حوادثَ دمَوية تشبهُ عن قرب أو بعد ، تلك الفظائعَ الساحقةَ التي تتكررُ على ممرّ الزمن ، على أيدي الأوربيين في أنفسِهم ، أو مع أهل الملل الأخرى؟!

لا نجدُ لذلك تفسيرًا نجزمُ به ؛ فالسيد المسيح ، عليه السلام ،

المسيح البريء من روح التعصب الغربي

هو ضحيةُ العنف ، ومــن خير مــن دعا إلى المعروف والسلام ، ودعوتُه تحرِّمُ الحرب والقتل تحريمًا قاطعًا ؛ فليس دينُ المسيح هو الذي بثَّ روحَ التعصب الممقوت ، ولا هو الذي حوّل مِزاج الغربيين إلى مِزاجٍ سفّاح ...

النزعات البشرية القاسية بين إطلاق المسيحية وتقييد الإسلام

أما الدينُ الإسلاميُّ قد أباح القتال ، وظهرت دعوتُه في العالم مصحوبة بتلك الفتوحات التي لم تقِفْ في وجهها شاهقاتُ الهملايا ، ولا شاهقاتُ الأطلسِ والبرانس والبلقان ، فلماذا كان أصحابُه أكثرَ الناس تسامحًا مع رعاياهم من أهل الأديان ، وأوسعَهم صدرًا للمِلَل والنِّحَل ؟ !

أثر تركيز الدين في النظام الكهنوتي

لعل السبب بينهما ناشيء من اختلاف النظم الدينية ؛ فإن للمسيحيين نظامًا إكليريكيًّا ، أو بعبارة أخرى كهنوتيًّا جعل عليهم قُوّاما من طوائف رجال الدين .

الحرية في فهم القرآن لدى المسلمين والقيود في فهم الإنجيل لدى المسيحيين

وكذلك لم تكن المسيحية واضحةً في شئون الدنيا ، فتسلطت النزعةُ البشرية . أما الإسلامُ فحرَّم هذه القِوامةَ ، ولم يسمحْ بصِلَةٍ بين العبد وربّه غير صلة الضمير ، وكانت أوامرهُ ونواهِيه في شئون الدنيا جليَّةً . فلعل سيطرةَ العنصر البشريِّ على العقيدة هي التي أخرجت هذا الفرْق الهائل في مِزاج الأقوامِ الدينيِّ الذي نشهدُ مظاهرَه طولَ الدهرِ وفي كلِّ مكان .

وأيضا كان وضوح الأوامرِ الدينية عند المسلمين ، مما جعل كلا

الحلال والحرام بين في الإسلام لدى الخاصة والعامة

من الحلال والحرام بيّنًا في كتابٍ مبين . فالخاصّة والعامّة يعلمون أن اللهَ قد حرّم عليهم الإكراهَ في الدين ، ويعلمون أنه يقولُ لنبيِّه « أفأنت تُكرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين ! ». بل إن الدين الذي حرم على أهله سبَّ الأديان الأخرى لا يدعُ سبيلا للاضطهاد والظلم .

أدب القرآن مع المخالفين

يقولُ تعالى « ولا تَسبُّوا الذين يَدْعونَ من دونِ اللهِ فيَسبُّوا اللهَ عَدْوًا بغيرِ علمٍ كذلك زَيَّنّا لكلِّ أمّةٍ عملهم ثم إلى ربِّهم مَرْجِعُهم فيُنَبِّئُهم بما كانوا يعملون » .

بساطة الدخول في الإسلام تعصم الدماء والأموال

لعل كذلك من أسباب تكَوُّنِ هذا المزاجِ المتسامحِ بساطةَ العقيدةِ المحمدية ، فإنها تقومُ على شهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأَن محمدا رسولُه ، وأن هاتين الكلمتين تَعْصِمُ الدماءَ والأموال . فلما درج الناسُ على هذه البساطةِ وتركوا ما وراءَ ذلك لحسابِ اللهِ ، تعوَّدُوا التسامحَ وسَعَةَ الصدر ، بعضُهم مع بعض ، ومع من خالفَهم من أهل المِلل الأخرى .

قد تكونُ هذه الأسبابُ ، وقد يكونُ غيرُها عِلّة الخلاف الجوهريِّ بين مزاج المسلمين ومزاج الأوربيين الدينيّ . وليس هذا مقامَ سردِ تاريخٍ طويلٍ لبيانِ ما نشيرُ إليه من خلافٍ ، فهو هيِّنٌ على من أَراد أن يَتبيّن الحقَّ ، ولكن قد يحسُن سَوْقُ بعضِ الشواهد :

من تاريخ تعصب المسيحيين في إسبانيا

لما دخل العربُ إلى إسبانيا كان مجمعُ طُلَيْطِلةَ السادس قد قرر أن يُقْسِمَ الملوكُ عند تولّي سلطتهم أن لا يُطِيقُوا في مُلْكهم من لا يتمذهبُ بمذهب الكاثوليك ، وأن ينفِّذُوا القانون بكل شدة على من يخالفُ .

وكان من ضمن هذه القوانين السجنُ المؤبَّد مع مصادرة المُلْك لكل من يفكر في مناقشة أوامر الكنيسة، وتعاليم الكثلكة. ويقولُ «بودسين» «كان للإكليروس السيطرةُ التامةُ على شئون الدولة؛ ففضلًا على ما للأساقفة من رأي نافذ في جميعِ مجالسِ الحكمِ؛ قد كان لهم حقُّ التصديقِ على انتخاب المَلِك وحقٌّ خلعِه إذا خالف ما يرسمون من قوانين. ولقد اتخذ الإكليروس من سلطانِه سبيلًا لاضطهاد اليهود الذين كانوا عنصرًا مهمًّا في إسبانيا» ويقولُ «هلفريخ» «إن أوامرَ وحشيةً صدرت لتعميد من يأبَى الارتدادَ عن دينه من اليهود. فلما وصل العربُ تلقَّاهم اليهودُ بالترحيبِ الذي يستحقُّه المنقذون، وكذلك فَرِح العبيدُ المتنصّرون لقدومِ العربِ فرَحًا شديدًا، فأخذ المضطهَدون يدخلون في دين العرب أفواجًا، بل أخذ النبلاء والعامّةُ يُقبِلونَ على الدعوة الجديدة الحرّة». ويقولُ السير توماس أرنولد. «لقد أصبحت الطوائفُ الكثيرة التي اعتنقت الدين الإسلاميَّ مختارةً، من أشدِّ أنصارِه تحمسًا وأظهرِها زُهدًا؛ فكانوا يمثِّلونَ الطهرَ والتقشفَ، حتى صار الفرقُ بينها وبين الأرستقراطيةِ العربيةِ التي مالت للترفِ واضحًا».

اضطهاد اليهود في إسبانيا

فرار المضطهدين إلى الإسلام برغبة

ولم يسمعْ في أيام الفتح العربيِّ بأيةِ محاولةٍ من الفاتحين للإكراه في الدين، أو الاضطهاد والظلم لتغيير العقيدة. ولعل السببَ الأول في امتلاكهم السريع لهذا الجزءِ من غرب أوربا هو سعةُ الصدرِ والتسامحُ الذي كان ديدَنَهم. كما أن تسامحَ الحكامِ بما أبَاحوا من الحرية

تسامح الفاتحين وعدم ترفعهم عن المخالطة

الدينية للمسيحيين واختلاطهم بهم وتزاوجهم معهم ، أدى إلى تعريبٍ واسع للعناصر المسيحية ، فاتخذ كثيرون من النصارى أسماءً عربيةً ، وتختَّنوا كجيرانهم المسلمين. وتسميةُ المسيحيين الذين في حكم العرب بكلمة Muzarabe أي مستعرب ، تشيرُ إلى الاتجاهِ الذي اتجهت إليه جماعتُهم. ولقد بلغ من إعجابِ النصارى المتعرِبين بلغةِ القرآنِ أَن صارُوا يتلُونَه ويُعْجَبُون به . بل لقد بلغ أثرُ هذه الدعوة إلى رؤساء الكنيسة نفسها ، فتلقحت أفكارُهم في إسبانيا وخارجها بالنظريات الإسلامية. كل ذلك يفسرُ لنا ما كان للمثَلَ والقدوة مع نشاط الدعوة من الأثر في خروج المسيحيين عن دينِهم ، حتى صارت الأكثرية الكبيرةُ للإسلام في زمن قصير .

استعراب واندماج

نصارى يقرءون القرآن

وقد بلغ من أثر القدوة الحسنة والدعوة بالحكمة أن المسيحيينَ لم ينقطعوا عن الدخولِ في الإسلامِ ، حتى وأهلُه يرسُفُون في المظالم الوحشيةِ ، فيُشرَّدُون ويُقتَلون ويهجَّرون من أوطانهم . ومن أغربِ ما رُوِيَ في ذلك ما ذكره « سترلنج ماكسويل » عن حوادث ١٤٩٩ ، أي بعدَ سقوط غرْناطةَ بسبع سنين ؛ فقد أشار إلى مسلمينَ جُدُدٍ دخلوا في الإسلام وهاجروا في جموعِ الفارِّين من السيفِ والنار .

دخول في الإسلام حتى في وقت سقوط دولته

وليس المقامُ مقامَ تفصيل ، وإنما أردنا الاستشهادَ لسيرة كريمة معترفٍ بها من جمهورِ المسيحيينَ عن حكم العرب في غرب أوربا ، وما تمتع الناسُ به من حرية العقيدة ، وما كسَبوا من علم وعرفان وحضارة

في ظل الآدابِ والأوامر والنواهي الإسلامية . ولقد بلغ من اعتراف المنصفين بهذه الحقيقة أن أحدَ المؤرخين قال عند ذكرِ واقعة « بواتيه » التي قتل فيها « عبد الرحمن الغافِقيّ » وفازت جيوشُ « كارل مارتل » على العرب في غرب فرنسا : « لقد كانت هزيمةُ العرب سببا في تأخر وصول الحضارة لأوربا ثمانيةَ قرون ! » .

هزيمة العرب في فرنسا سببت تأخر وصول الحضارة إلى أوربا ثمانية قرون

فازت جيوشُ الهمجِ من الأوربيين على العرب في القرن الثامن فأخّرت الحضارةَ ، وفاز الغلاةُ المتعصبون من الفرنج مرةً أخرى فوزا ساحقا في القرن الخامسَ عشرَ ، فقضَوْا على العِرفان والحضارة . وفي الوقتِ الذي كانت محاكم التفتيش وسيوفُ الدولة تسوق إلى المذبحةِ أو إلى البحر رُسُلَ الحضارة في الغربِ ، وتُخْلي أوطانًا بأكملها من أهلها ، وفي الوقت الذي تسقطُ فيه غِرْناطةُ ويمحى أثرُ مائتيْ ألفِ مسلم بها ، وجلُّهم من أهل إسبانيا نفسِها ومن عنصرها الأصليّ، ذبحا وطرْدًا وتشريدا ، كانت جيوشُ الإسلام الظافرةُ تحت راية اخرى تفتحُ الممالك الأوربية الشرقية ، فيستظل المسيحيون بظلّ العدالة الجديدة ، وينعَم الناسُ بحرية الضمير وحرية الأديان .

سقطت بيزنطة مركزُ العداوة للمسلمين ، ومبعثُ العواصف على الأوطان الإسلاميةِ مدةَ ثمانِي قرونٍ ، فما استبيحت الحرماتُ الدينية ، ولا تسلط الفاتحون على العقائد والأديان ، ولا طُرِد الناسُ من أوطانهم وحُوسِبوا على نيّاتهم وضمائرِهم .

سلطات وامتيازات للمسيحيين في دولة الأتراك

ولْندَع الكلامَ للمؤرخين المسيحيين : فرنتز ، وفنلي ، وبتز يبوس ، ودهسون، كما لخصه أرنولد :- « كانت أولى الخطواتِ التي اتخذَها « محمدٌ الثاني » بعد الاستيلاء على القسطنطينية أن طمْأَنَ المسيحيين بالتعهد بحماية الكنيسة الأرثوذكسيةِ ، ومَنَع منعًا باتّا اضطهادَ النصارى ، وصدرت الإرادةُ السَّنِيّة بأن يكونَ للبطريق والأساقفة في النظام الجديد جميعُ الحقوق والامتيازات التي كانت لهم في النظام السابق للفتح . واستلم البطريق « جناديوس » من يد السلطان الأداةَ التي كانت شارةَ ولايته ، ومعها ألفُ قطعةٍ من الذهبِ وحِصانٌ مُطهَّمٌ بُعُدّة فاخرة ليركبه في موكِبِه في المدينة . ولم يَهَبْ السلطانُ لرأس الكنيسة المسيحية الامتيازاتِ التي كانت له في عهدِ الأمبراطور المسيحيِّ فَحسْبُ ، بل مكّنه من سلطة مدنية واسعة على الرعايا المسيحيين ؛ فكان مجلِسُ قضاء البطريقية هو الذي يفصِلُ في منازعات المسيحيين ويقضي بالغرامة والحبس والقتل ، وكانت حكومة السلطان تنفذ ما يقضي به مجلسُ البطريقية . فكان للبطريق السلطة المطلقة في الشئونِ الرُوحية ، ولم تتدخلْ قطٌّ في هذه الشئون السلطاتُ المدنية الإسلامية ، كما كانت تفعل المسيحية ، قبلَ الفتح . ولما كان البطريق معتبرا من كبار رجال الدولة في نظر السلطان ، ومعترفًا به ، فقد كان له أن يتدخلَ لرفعِ الظلمِ الذي يقعُ من بعض الولاة على النصارى باتصاله مباشرة بالسلطان . وكان للأساقفةِ في الولاياتِ من الحرمةِ والسلطةِ مثلُ ما للبطريق في

العاصمةِ ، حتى انتهى الأمرُ إلى أن صاروا في مناطقِ سلطانِهم الديني كأنهم مأمورو الدولة وولاتها ، فحلوا محلَّ الأرستقراطية البيزنطية التي انقرضت بسقوط دولتها » .

العمى عن الأسوة الحسنة

ذلك ما فعل المسلمون في المشرق ، وقد سقطت غرناطة للإسبان بعدَ سقوطِ القسطنطينيةِ للترك بأربعين سنةً ؛ فهل كان للفرنجة فيما فعل المسلمون أسوةٌ ؟ وإذا لم يكن لهم في الماضي الطويل من التسامح المنقطع النظير ، ما يوجهُهُم وِجْهةَ الإنصافِ والرحمة ، فلِمَ لَمْ تكن لهم عظةٌ فيما بينَ أعينِهم من مَثلٍ عالٍ ؟ كان ذلك كما قلنا سابقا لأسبابٍ عدةٍ أشرنا إلى بعضِها ، وقد يستطيعُ غيرُنا أن يبيّنَ أسبابًا أخرى . وهي في نظري ليست في طبيعة الدين المسيحيِّ ؛ فإن سيدَنا عيسى ما جاء إلا رحمةً للعالمين .

هو المزاج الغربي الدموي دائماً !

وإذا كانت كلُّ حوادث التاريخ تُشيرُ إلى أن المزاج الغربيَّ يَجْنحُ دائما إلى القهر والتدخل في شئون الغير الروحية والمعنوية تدخلا ينتهي بالمظالم والإسراف في سفك الدماء ، فليس من الغريب أن نرى في الحرب الأخيرة والتي قبلها من مظاهر هذا المِزاج صورًا من الماضي ، وقد حل النزاعُ الأيديولوجي « الفكري » في هذا القرن محلَّ النزاع الدينيّ في القرون الوسطى .

أمل في رحمة الله !

« وبعد » فهل يُكْتَب لسكان الشرق من المسلمين والمسيحيين الذين تَتَعَلَّقُ نفوسُهم دائما برحمة الله وتترقَّبُ هُداه إذا اشتدَّت الكُروب

والظلمات ، أن ينهضوا مرة أخرى بميراثهم السامي الذي يُقَوِّم من عِوَج النزاع الفكريّ والاقتصاديّ والعنصريّ ، ويلطِّف من حِدَّة المزاج الغربي ، حتى يؤمن بالأُخوّة الإنسانية ويعمل لخدمة السلام العام بإخلاص نية وحسن تَوَجُّه ، بما مكَّن الله له في الأرض ؟

ذلك ما نسأل اللهَ ربَّ العالمين أن يعجّل بتهيئة أسبابه . « إن اللهَ بالناس لَرؤُفٌ رحيم » .

* * *

فهرس الكتاب

٢ – في الاصلاح الاجتماعي

* * *